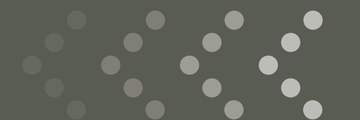


القافلة
مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • نوفمبر - ديسمبر 009
الهدر.. بين البيئة والجوع
بيكاسو والمسرح..
ملف العدد
البطل
العدد 6
المجلد 58

قافلة الأبحاث



تنظِّم مجلة القافلة نشاطاً بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. هدف هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتَّابها.

صورة الغلاف



Corbis

البطل: إنه القادر على القيام بعمل لا يستطيع غيره القيام به. وفي حياة كل فرد ومجتمع بطل أو أكثر، يمثِّل القدرة البشرية في ذروتها. كما أنه مصدر زهو المجتمع، خاصة عندما يكون المجتمع في ذروة ضعفه وتأزمه. وهذا ما يعرضه ملف هذا العدد.

القافلة



الناشر
شركة الزيت العربية السعودية
(أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
خالد بن عبدالعزيز الفالح

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
خالد عبدالله البريك

مدير عام الشؤون العامة
عصام زين العابدين توفيق

رئيس التحرير
صالح محمد السبتي

نائب رئيس التحرير
محمد الدميني

مدير التحرير
محمد أبو المكارم

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتير التحرير
عبود عطية

المكاتب:
الرياض، **دينا الشهوان**
بيروت، **رولان قطان**
القاهرة، **ليلى أمل**
أمريكا الشمالية، **أشرف إحسان فقيه**

قافلة الأبحاث
أحمد المنعي

الإنتاج والموقع الإلكتروني
طوني بيروتي

المخرج المنفذ
حسام نصر

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع التريكي

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

نوفمبر – ديسمبر 2009
ذو القعدة – ذو الحجة 1430

توزع مجاناً للمشتركين
العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389 ، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa
الموقع الإلكتروني: www.qafilah.com

الهواتف: فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

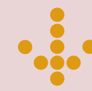
رسالة المحرر

قضايا

1 بتحسن الأوضاع الاقتصادية في أي مجتمع يزداد الميل إلى البذخ والهدر بسبب الاطمئنان إلى القدرة على تحمل تكلفته. ولكن إن كانت التكلفة المالية محتملة، فهل التكلفة البيئية كذلك؟



في هذا العدد، تخصص «القافلة» باب القضايا لأثر الهدر وحياة البذخ على البيئة، فتتناول من خلال أمثلة غاية في البساطة يعرفها الجميع، التحولات التي طرأت على سلوك الفرد والمجتمع في مجالات الاستهلاك اليومي، بفعل العوامل الاقتصادية أولاً، ومن ثم بفعل الوعي لأثر هذا السلوك على البيئة.



أما «قول في مقال»، فيبتعد عن المقياس الاقتصادي في قراءة مختلفة لصفقة شراء شركة «ياهو» لموقع «مكتوب» العربي، فيتناول أثرها المتوقع على الإنترنت العربي ككل.



طاقة واقتصاد

2 وفي مناخ الطاقة والاقتصاد موضوعان: الأول حول عالم استكشاف الزيت والغاز وتطوره، بحيث أصبح العلم القديم مجموعة كبيرة من العلوم والتخصصات المتكاملة. أما الموضوع الثاني فهو حول الإعلان الإلكتروني، ويتناول جانبين مختلفين، أحدهما الإعلان على شبكة الإنترنت، تنظيماً وصناعة وشكلاً، في حين يتناول الثاني ومن زاوية مختلفة، الإعلان على الهاتف الجوال، ويتوقف بشيء من التفصيل أمام «القسرية» التي تميزه عن باقي وسائل الإعلان، والتي أصبحت قضية اجتماعية مثيرة للجدل والتذمر وحتى.. الغضب.





علوم وبيئة

3 ويبقى مناخ العلوم في إطار الحياة الاجتماعية، من خلال تناوله لارتفاع معدل الأعمار في العصر الحديث على مستوى العالم بأسره، وذلك بفعل تحسن نوعية الحياة اليومية، وتطور العلوم وعلى رأسها الطب. غير أن لهذا الارتفاع في معدل الأعمار آثاراً سلبية على الصعد الاجتماعية والاقتصادية تستوجب التحسب لها.

الفاصل المصور

ولمناسبة تزامن صدور هذا العدد مع موسم الحج لهذا العام، تستضيف القافلة المصوِّر السعودي عامر الهلابي من خلال عينة من أعماله مستوحاة من هذه المناسبة المباركة.



4 الحياة اليومية

بعد استراحة الفاصل المصور، يطالع القارئ موضوعاً طالما شغله بالأسئلة خلال حياته اليومية: «ماذا يخبئ عني محدثي وهو يسعى إلى إقناعي بكذا أو بكذا..» إذ يبدو أن إخفاء بعض الجوانب عند إبرام الاتفاقات والعقود، وحتى خلال سير العمل، باتت وكأنها جزء من مناهج بعض القطاعات والأعمال، الأمر الذي كثيراً ما يتسبب لنا لاحقاً بخيبات أمل، كنا سنتلافاها لو كنا على بينة من حقيقة التفاصيل المخفية في العقد مع المصرف، أو في حديث المحامي والطبيب، وصولاً إلى النادي الرياضي.

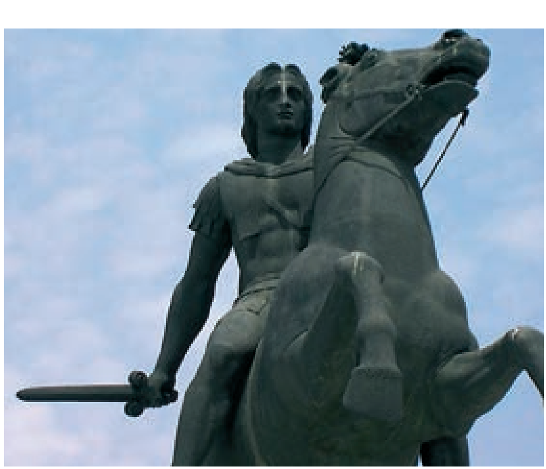


5 الثقافة والأدب

وتتوزع صفحات المناخ الثقافي على موضوعين: أولهما فني، وهو حول انهماك بعض الفنانين المعروفين بتفوقهم في مجال محدد، بالعمل في مجال فني آخر، من خلال مثال شهير وهو الفنان الإسباني بيكاسو الذي يعرفه العالم بأسره رسَّاماً بالدرجة الأولى، ومن ثم نحاتاً، ولكن قلائل يعرفون إنجازاته في مجال المسرح.

أما الموضوع الثاني فهو أدبي، يتضمن عرضاً لرواية «إكليل الخلاص»، العمل الأخير للروائي محمد المزيني، الذي تدرَّس أعماله في بعض الجامعات الفرنسية، نظراً لأمانتها في التعبير عن بيئة الأديب.





6 ملف العدد

وفي الختام، تفرد «القافلة» صفحات الملف لمفهوم البطل.. والتحولات التي طرأت عليه في العصر الحديث، رغم ثبات القيم التي ميَّزته خلال التاريخ، ودور الأدب والفن في رسم صورته، وتقديمه قدوة ومثلاً أعلى.

الرحلة معاً

الصحافة الإلكترونية والشعور بالمسؤولية

بدأ النشر الإلكتروني يرسِّخ أقدامه على مستوى العالم، وحتى في الدول ذات الإمكانات المادية المتواضعة، فقد أصبحت شبكة الإنترنت بمواقعها التي لا تحصى وصحفها الإلكترونية مصدراً رئيساً من مصادر المعلومات للبشر. كما صارت الأخبار والمقالات والتعليقات على الأمور العامة تظهر على شبكة الإنترنت ويبدأ تداولها ومناقشتها بشكل أسرع بكثير مما كان الحال عليه في وسائل الإعلام التقليدية.

ولا شك أن هذه الظاهرة تحمل من الإيجابيات الشيء الكثير، فإذا كان للإعلام التقليدي تأثيره البالغ على كافة الأصعدة، فإن تأثير الإعلام الإلكتروني يتزايد بوتيرة عالية مع أن تكلفته قليلة نسبياً. ويمكن له، إذا اتسم برؤية واضحة وشعور بالمسؤولية، أن يكون ذا أثر إيجابي ملموس، وقد تحدثنا عن ذلك في عدد سابق هذا العام. غير أن هذا في المقابل لا ينفي وجود سلبيات وثغرات تحتم الحاجة إلى تنظيم النشر الإلكتروني لكي تتحق منه الفوائد المرجوة وتقليص السلبيات التي بدأت تظهر في مواقع الإنترنت بشكل عام ومواقع الصحف الإلكترونية بشكل خاص.

وإذا كان تنظيم النشر التقليدي أصبح واضح المعالم بسبب التجربة العريقة وتراكم الخبرات ووضوح المسار، فإن تنظيم النشر الإلكتروني لن يكون بنفس الوضوح لكونه لا يزال يخطو خطواته الأولى، ويكتنفه الكثير من المجهولات، التي بدأنا نتعرف إليها شيئاً فشيئاً من خلال التجارب.

فالصحيفة التقليدية، على سبيل المثال، مؤسسة ذات شخصية اعتبارية واضحة وتمتلك مقراً يسهل التعرف إليه والتعامل معها بشكل قانوني، في حين أن الصحيفة الإلكترونية يمكن أن يصدرها شخص أو أشخاص من أية دولة بينما يُسجل موقعها في دولة أخرى. وبمعنى آخر فإن الصحيفة الإلكترونية يمكن أن تناقش شؤون مجتمع معيَّن وهي تعيش خارجه. وهذا الأمر قد يشكِّل معضلة تنظيمية مع غياب الشعور بمسؤولية وسائل الإعلام وعدم وجود الضوابط.

ومن جانب آخر، فإذا كانت الأسماء المستعارة من الظواهر الموجودة في الصحافة بشكل عام، فهي أسلوب غير مستحب، لأن الإنسان عندما لا يوقِّع مقالاته باسمه فإنه يكون أقل حرصاً على الدقة والعقلانية في



تناول الموضوعات والقضايا المختلفة. ومن الملاحظ أن الأسماء المستعارة في صحافة اليوم بدأت تتناقص وصار استخدام الاسم الحقيقي هو الأسلوب السائد في النشر التقليدي. أما في الصحافة الإلكترونية فإن الأمر يختلف. فالاسم المستعار أو عدم توقيع المقالات هو الأسلوب السائد. وقد ترتب على هذا انتشار عدم الدقة في نشر الأخبار، ونشر المقالات التي لا تتسم بالموضوعية، والتي تتصف بالاستعجال.

أما السمة الأجمل في الإعلام الإلكتروني، فهي التفاعل الحي مع الكلمة بين الكاتب والقارئ من جهة، وبين القرَّاء أنفسهم من جهة أخرى، فقد تحوَّلت، في كثير من الأحيان، إلى مصدر من مصادر مشكلات الإعلام الإلكتروني. فكثير ممن يعلِّقون على ما يُنشر في الإعلام الإلكتروني يتوارون خلف أسماء مستعارة، لتتسع بذلك دائرة اللامسؤولية وعدم الدقة، وأحياناً التطرف فيما يُطرح من آراء. ويمكن القول إن الكثير من التعليقات التي تأتي من المتلقين تحتاج إلى غربلة وإعادة صياغة حتى تصبح مواد قابلة للنشر في إعلام إلكتروني منظَّم.

قد يعترض البعض على مفهوم الضبط ويعدّه فرضاً للقيود، إلا أن لكل شيء حدَّاً، وحدود الحرية تنتهي عند التعدي على حريات الآخرين، وإن إعلاماً من هذا النوع، إذا لم يُضبط، يمكن أن يخلق مشكلات في المجتمع الواحد، مشكلات للأفراد والمؤسسات والشركات وللمجتمع بشكل عام. فإعلام تنتشر فيه الشائعات والآراء المتشنِّجة لا يمكن أن يؤدي دور الإعلام المتزن، الذي يلتزم الدقة في الأخبار التي ينشرها والعقلانية في الآراء التي يطرحها.

إن أحد أسباب مشكلات الإعلام الإلكتروني هي أنه يمكن لشخص واحد من الناحية الفنية أن ينشىء صحيفة، لكن هذا لا يعني أن هذا الشخص يستطيع أن ينشئ صحيفة إلكترونية ذات مسؤولية اجتماعية، تتأكد من صحة الأخبار ودقتها، واتزان الآراء وموضوعيتها قبل نشرها. فتحقيق ذلك الهدف، وتحمل تلك المسؤولية، يحتاج إلى عدد أكبر من الأشخاص المؤهلين. كما أن مراجعة آراء المتلقين لنشر الصالح منها، واستبعاد ما لا يصلح للنشر، وإعادة صياغة ما يحتاج إلى تحرير، يتطلب أيضاً كوادر مؤهَّلة.

ورغم أن مجال الإعلام الإلكتروني جديد ولا يستطيع أحد أن يضع وصفة نهائية لتنظيمه، إلا أن الأخذ ببعض الضوابط قد يوسِّع دائرة الاستفادة منه، ويحد من سلبياته، ومنها:

أولاً: أن يضطلع ناشرو الصحف الإلكترونية بمسؤولياتهم، وأن يقدِّروا المسؤولية الاجتماعية الملقاة على عاتقهم، وأن يحرصوا على التحقق من صحة الأخبار، وأن يستبعدوا من الآراء ما يفتقر إلى الموضوعية والاتزان.

ثانياً: وضع نظام للنشر الإلكتروني يبدأ من الأمور المشتركة بين النشر التقليدي والإلكتروني وينطلق ليغطي خصوصيات النشر الإلكتروني بشكل يمنع السلبيات التي تحدَّثنا عنها وغيرها. ولا شك أن ذلك النظام يحتاج إلى أن يُعد من قبل متخصصين في الإعلام، وتقنية المعلومات، وغيرها من التخصصات ذات العلاقة، للخروج بتصورات عن كل ما يحتاج إلى تنظيم والتعامل معه.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى.. رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

الأهرام في السودان

أنا مواطن سوداني أسعدني الحظ أن أكون من أوائل الموظفين في مصفاة أرامكو-شل بالجبيل الصناعية، حيث عملت في الخدمات الطبية بالمصفاة حتى العام 1991م. وكنت أقرأ مجلة «القافلة» بانتظام طوال تلك الفترة. وسبب كتابتي لكم الآن، هو أن هناك باحثة سودانية بصدد استكمال بحث عن الأهرامات والآثار في شمال السودان، وأذكر أنني قد قرأت في مجلة «القافلة» بحثاً خاصاً بالأهرامات السودانية كتبه أحد أعضاء بعثة الآثار الأمريكية التي كانت تعمل في شمال السودان عند بدايات القرن العشرين (1900 - 1923م)، وقد نُشر المقال في النصف الأول من العام 1991م، وهو بحث مهم يشير إلى أن عدد الأهرامات من مختلف الأحجام، هو الأكبر في العالم. لهذا، أرجو أن تتكرموا بإرسال نسخة من هذا المقال إليَّ إذا كان الأمر ممكناً، ولكم خالص الشكر والتقدير.

عبدالرحمن آدم محمد زين
السودان

القافلة: يمكنك الاطلاع على المقال المشار إليه من خلال موقع القافلة على الإنترنت: www.qafilah.com.

ما كنت أخالها كذلك!

اطلعت مصادفة على عدد من أعداد مجلتكم، وفوجئت بما رأيت حقاً. فما كنت أخال جهة صناعية أو تجارية يمكنها أن تُخرج مجلة ثقافية رصينة متميزة، شكلاً ومضموناً.
إن ما اشتملت عليه المجلة من موضوعات، ومقالات، وتحقيقات، وما امتازت به من حسن الإخراج، ليجعلها تتبوأ مكانة رفيعة في عالم المجلات الثقافية الهادفة.
وإنني إذ أشيد بمجلتكم ومستواها ليسعدني أن أتوجه إليكم بجزيل الشكر ووافر التقدير على ما تبذلون فيها من جهود.
شكر الله لكم، وأنجح قصدكم، ووفقكم إلى مزيد من التقدم.
مع رجاء التكرم بقبول اشتراكي في مجلتكم الغرَّاء.

أيمن بن أحمد ذو الغنى
المستشار القانوني لموقع الألوكة الإلكتروني، الرياض

القافلة: شكراً على إطرائك للمجلة، وقد أضفنا اسمك إلى قائمة اشتراكاتها.

مقالات الهنداوي

سبق وأن نشر المرحوم الأديب خليل الهنداوي، سلسلة من المقالات على صفحات مجلة «قافلة الزيت» سابقاً. ونظراً لأنني أجمع مقالاته المنشورة في بطون المجلات، حبَّذا لو أسديتم لي المساعدة بتزويدي ببليوغرافيا تتضمن عناوين المقالات وتاريخ نشرها ورقم المجلد ورقم العدد إن توافرت هذه المعلومات لديكم.
كما سبق وأن نشرت مجلة «قافلة الزيت» أكثر من مقالة معربة لي، وإنني أرغب الآن بنشر مزيد من المقالات على صفحات مجلتكم حول البيئة والنفط أيضاً، فهل هناك مجال لهذا الأمر؟

محمد كامل خليل الهنداوي
حلب، سوريا

القافلة: يمكنك الاطلاع على كل المقالات القديمة من خلال موقع القافلة الإلكتروني: www.qafilah.com. ونرحّب بكل مساهمة جدية في القافلة.

اهتمام منذ الصغر

يطيب لي أن أعبِّر لكم عن عظيم إعجابي بمجلتكم الغرَّاء (القافلة) وهي حقاً اسم على مسمًّى، حيث إنها قافلة القرَّاء المحملة بصنوف الزاد المعرفي والثقافي، وإنني من المهتمين بقراءتها منذ صغري. فلكم مني ومن القرَّاء الكرام خالص الشكر والتقدير على جهودكم المخلصة، وجزاكم الله كل خير.
كما أن لي طلباً أرجو من سعادتكم تلبيته وهو تزويدي بالمجلة على بريدي الخاص، وإذا أمكن بعض الأعداد القديمة نظراً لحاجتي الماسة إليها خصوصاً بعد انتقالي من المدرسة التي كنت أقرأ فيها المجلة إلى عملي الجديد كاختصاصي في وزارة التربية والتعليم، وحاجتي لمجلتكم في إعداد البحوث والدراسات.

إبراهيم جاسم أحمد خاتم
مملكة البحرين

القافلة: شكراً جزيلاً على رسالتك الرقيقة وعلى تواصلك معنا. وقد حوَّلنا طلبك لقسم الاشتراكات وسوف تصلك الأعداد الجديدة من المجلة قريباً، إن شاء الله. أما الأعداد القديمة فيمكنك الاطلاع عليها من خلال موقع المجلة: www.qafilah.com.

موقع القافلة واقتراح آخر

كانت معرفتي الأولى بشركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) منذ سنواتي الأولى من المرحلة الابتدائية، وذلك عندما كانت تمر بمدرستنا مكتبة أرامكو

المتنقلة في سيارتها الحمراء المميزة، إذ كانت المكتبة العامة الأولى التي أستعير منها كتاباً في حياتي، حيث استعرت منها أول مرة كتاباً يحكي قصة معركة «داحس والغبراء».

ولا تزال «أرامكو السعودية» تمثِّل لي ذلك الزاد والمورد الثقافي والمعرفي إلى الآن من خلال اشتراكي المجاني في مجلتها «القافلة»، ولا سيما بعدما قمتم -مشكورين- بتحميل كل أعدادها السابقة على موقع المجلة على الشبكة العنكبوتية، حيث بدأتُ بتنزيل الأعداد وتصفحها، وهي مهمة تحتاج إلى وقت طويل، استطعتُ -إلى الآن- تنزيل أكثر من 300 عدد من الأعداد السابقة وتصفح أكثرها.

وما قمتم به من مجهود في هذا الاتجاه تشكرون عليه، فهو مجهود يسهم إلى حدٍّ كبير في نشر الفكر والثقافة -ولا سيما المعاصرة منها- على مستوى أوسع وأكثر سهولة.

وأنا -هنا- أطمح إلى المزيد من القائمين على المجلة، ذلك أنكم موضع الأمل ومحطّ الثقة، فكم أطمح -ويشاركني في ذلك الكثير من الأصدقاء والزملاء- أن يكون للمجلة أدوار وأوجه نشاط أخرى تتناسب وما تملكه هذه المجلة من تاريخ وسمعة طيبة على مستوى العالم العربي. ذلك أنني -وهذا مما أحمد الله عليه كثيراً- من المتابعين للشأن الثقافي والمعرفي منذ حداثة سني، وكثيراً ما تشدني معارض الكتاب، ولا سيما إذا أقيمت في مملكة البحرين الشقيقة، إذ أحرص -غالباً- على حضور هذه المعارض، وبخاصة أنها قريبة من موقع سُكناي نسبياً. وعندما أتوجه إلى هذه المعارض والمهرجانات الثقافية دائماً ما أسمع من أصحاب دور النشر والمكتبات هناك أن أكثر روَّاد المعرض هم من المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، وأتساءل: لماذا لا تقوم مؤسسة عريقة -مثل «مجلة القافلة»- لها دورها وحضورها الثقافي الواضح في هذه المنطقة، الذي لا ينكره أحد، بتنظيم مثل هذه المهرجانات الثقافية التي سيكون لها أثرها البعيد والعميق والمهم لاحقاً؟ إنها نقطة دائماً ما نردِّدها مع بعضنا في مجالسنا الخاصة كأصدقاء، ونتساءل: لماذا لا يكون لمجلة «القافلة» مثل هذا الدور المهم والفاعل في المنطقة؟ أرجو أن نرى مثل هذه المبادرة في القريب العاجل، فأنتم بالفعل محط الثقة والأمل.

حسين منصور الشيخ

القطيف

القافلة: نشكرك على ثقتك بالقافلة ومحبتك لها، ونؤكد لك أنه مهم للقافلة أن تصبَّ كل جهودها في تقديم أفضل مادة ثقافية لقرَّائها، في حين أن جهات أخرى تتولى إقامة الكثير من أوجه النشاط الثقافية.

المشتركون الجدد

سلمان بن صالح الطويل، الهفوف - عون بن عبد بو دويحس، الرياض - داود كمال الدين الأفغاني، جدة - أحمد محمد عسكر، الدمام - عبدالله علي الغامدي، بلجرشي - محمد صالح عبدالعزيز العيد، الهفوف - مصعب أحمد الفضالة، الرياض - عبدالله مساعد الصالح، الرياض - الدكتور محمود البحار، مونتريال، كندا، عبدالله إبراهيم الجشي، القطيف - نهلة جميل علوش، الأردن - ماجد علي العوى، القطيف - باسم محمد العثيان، سيهات - عبدالعزيز عبدالله العتي، الرياض - أفراح الهندال، الكويت - عبدالعزيز بن فهد الغاشم، معهد بحوث البترول والصناعات البتروكيميائية - يوسف أحمد المهيني، معهد الدراسات الفنية - الدكتور مصطفى خميس الحجي، الهفوف - يوسف علي الحويجي، الهفوف - أحمد بن عبدالله الفضالة، الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربي، الرياض - فهد علي سعيد عبدالله، مكة المكرمة - عامر بو جفام، الجزائر - عزوز رشيد، الجزائر - عبدالملك الصالح، الرياض - حامد بن عبدالمجيد كابلي، جدة.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديل، ونرحِّب بكم أصدقاء لـ «القافلة» التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

شجرة سنط

في أعلى جبل القرية
شجرةُ سنط هيفاء
يعلوها منديلٌ منقوشُ الأطرافِ الغضةِ
بهديل الحناءْ
تختبئُ طويلاً خلف كهوف الريح
وتحتَ دبيب الأنواءْ
لا البصر سيلحقها بحنينِ الشوقِ
ولا معجزةُ الزرقاءْ!!
لا الغيمُ سيحلّ بطيئاً
ويظلل حرقتها
أو يؤنسُ وحشتَها،
يمطرها بحليبِ السحر
ولا الماء، ولا الماء!!
لا طيف بنات يأتين
ويجمعن الصمغَ
ويطرحنَ هجيرَ الأيامِ،
ولا الراعي
سيجيء ويغفو
ويغني
يقتاتُ الجوعَ
ويلتاثُ الأحلامْ
لا الماعز تثغو
لا محض قطيع الأغنامْ!!
شجرة سنط
تبتئسُ وتشتاقْ
من أين أتتها اليرقاتُ
وأسرابُ الديدان
لترعى في الورق المرِّ،
ومن أغواها لتعيثَ وتشربَ
من نخب السنط،
الصهد، القرِّ، الحَرِّ،
وتتحوَّر تتحوَّلَ على سجَّاد الأوراق؟
تضعَ البيضات السودَ
من أين أتاها هذا الورق المزدهر حنيناً؟
من أين أتاها الجذْعُ الممشوق
الممتد الأرداف؟
من أين أتاها الفرعُ المياسُ الراقصُ
يتثنَّى ويميلْ؟
من أشعل في ظلمة دهشتنا القنديل؟
من علَّق هذا المنديل؟

محمد عزَّت الطيري

مصر

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قرَّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

حول

في الصومال.. المذياع صديق البريد!

طالعت في القافلة (العدد 4 - أغسطس 2009م) ملفاً رائعاً عن البريد وتطوره حول العالم للأستاذ هشام عودة. واعتمد البحث في مجمله على فكرة تطور الكتابة كرافد أساس للرسالة وانتشار البريد ومكاتبه حول العالم.

لكن ماذا عن تلك المجتمعات الغارقة في الأمية، والتي لم يمسك بنوها القلم إلا على كبر.. أو في المهجر بعيداً عن الوطن الذي لا يكتب أحد إليه منهم؟ مع اعترافنا الكامل بأن فكرة الرسالة على اختلاف أشكالها ما هي إلا وسيلة لإيصال المعلومات أو المشاعر بين بني البشر بعيداً عن مستوياتهم الثقافية والعلمية. لذا، يجب أن نستعرض طرقاً أخرى غير الكتابة لإرسال الرسائل بين البشر.

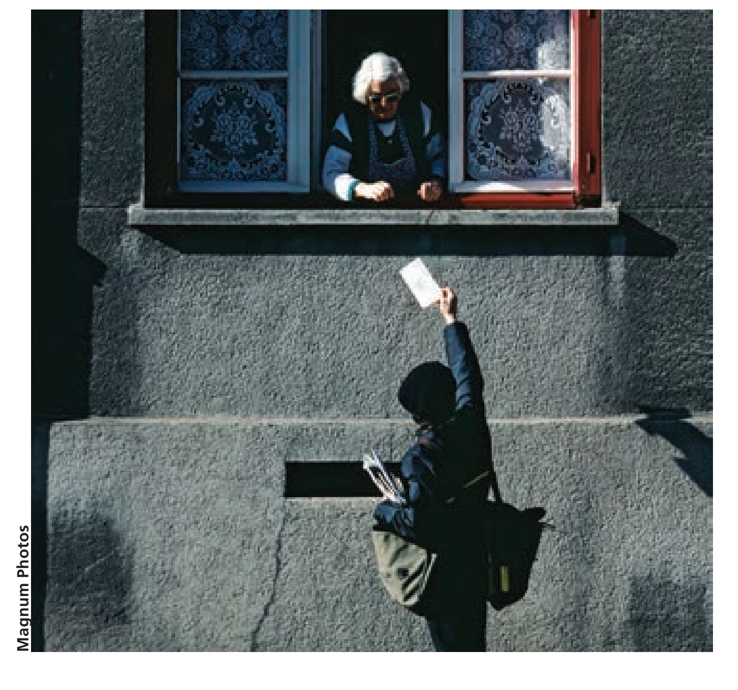
في الصومال حيث ما زالت مستويات الأمية تراوح بين 65 و75% منذ العام 1960 وحتى العام 1992م، لم تزل قصة البريد في صفحتها الأولى.. وقد طويت تقريباً منذ اندلاع الحرب الأهلية عام 1992م.. فكيف كانت الأخبار تتناقل بين الأمهات والأبناء، وبين الأصدقاء، بل وبين الأحباء الذين فرَّقتهم الحرب وشتَّتتهم المنافي؟ فالطرق مسدودة، وبياض الورق لطَّخه رصاص الإخوة الأعداء، فكيف يمكن لساعي البريد -بزيه الأنيق- التنقل بسلام حاملاً رسائله الممهورة بالطوابع والأختام من الخارج، وبحنين الأمهات وآهاتهن من الداخل؟! وحتى لو وصلت الرسالة -جدلاً- فمن يتكفل بقراءة الطلاسم المتعبة على بياض الورق؟

الفن الوحيد الذي برع فيه الصوماليون بناءً على جذورهم العربية وجغرافيتهم الإفريقية، كان السرد وفن الكلمة التي تصل إلى المتلقي فيفهمها مباشرةً.. كما يبتسم القارئ عندما يتعثر بعلامة الدهشة والتعجب عند آخر السطر!

استبدل الناس قبل الحرب وبعدها الشريط الصوتي بالرسالة الورقية، لذا كان من الطبيعي أن يخلو بيت الصومالي من الأقلام والأوراق لكن يستحيل أن يغيب المسجل عن خيمته وسط الصحراء.

واستعاضوا بالـ 60 دقيقه والتي تطورت إلى 90 على وجهي الشريط عن وجه الرسالة وقفاها.. ثم جعلوا للشريط المرسل مقدمةً تبدأ بالبسملة والصلاة على سيد المرسلين ثم الدعاء بالصحة للمرسل إليه، ثم الموضوع الذي يرتكز عليه الشريط وفيه يتم إخباره بالمراد وحال الناس بعده مع التعريج على السؤال عن أخباره، وينتهي الشريط بفيض من الأشواق وأبيات من الشعر الصومالي القديم وبعض الوصايا التي درج عليها الأولون.

ولأن العناوين ضاعت بعد الحرب فكثر النازحون والمهاجرون من الصومال إلى بقاع العالم، احتاج القوم إلى طريقة أسرع وأضمن للتواصل عن



Magnum Photos

بعد، ولم يكن المنقذ هذه المرة سوى المذياع الذي تركه الإنجليز بعد الاستعمار.

فقد درجت هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) على تخصيص الساعة الخامسة مساءً من كل يوم للبث باللغة الصومالية التي يتكلمها أكثر من 9 ملايين صومالي حول العالم.

وتحت ضغط المستمعين خصصت ربع الساعة الأخير من ساعة البث، للبحث عن المفقودين والتائهين ومن تقطعت بهم السبل، وطلب العون ممن يسمع اسم الشخص المطلوب لتبليغه عن العنوان الذي يتركه من يبحث عنه ويسأل عليه. ولعل الطريقة نفسها أجدت مع الراونديين أيام حربهم الأهلية الأخيرة والتي قتل فيها أكثر من مليون شخص.

الجيل الجديد من صوماليي المهجر يتواجدون على الشبكة العنكبوتية بشكل واضح، ويتحاورون في المنتديات ومجموعات التواصل على الفيس بوك.. لكنهم لا يعرفون أنهم انتقلوا من الشريط الصوتي إلى فضاء الإنترنت الفسيح دون المرور بساعي البريد!

د . محمد علي ديريه

طبيب وكاتب صومالي مقيم في الخبر - المملكة العربية السعودية

تعقيباً على ملف «البريد»، «القافلة» عدد يوليو-أغسطس 2009



أدباء خذلهم القرَّاء والناشرون

عندما أُعلن في السويد قبل أسابيع عن فوز الأديبة الألمانية هيرتا مولر بجائزة نوبل للآداب هذا العام، كنت قد انتهيت لتوي من قراءة الموضوع المنشور في «القافلة» بعنوان «علماء خذلتهم نوبل».

تضمَّن المقال المذكور عرضاً لعدد من العلماء، يرى الكاتب رجب سعد السيد أن لجنة نوبل خذلتهم وحرمتهم من هذه الجائزة المرموقة رغم كونهم من مستحقيها بشهادات علماء آخرين. وقد يكون كل ما ورد في هذا المقال صحيحاً بكل ما فيه من أحكام ضمنية على أداء لجنة الجائزة.

ولكن، كيف يمكننا أن نقرأ اختيارات هذه اللجنة في مجالات أخرى، وانطلاقاً من اختيارها للفائزة بجائزتها للآداب لهذا العام؟

فوجئ الكثيرون باختيار هيرتا مولر الألمانية، الرومانية الأصل والمولد والنشأة، ووصلت المفاجأة إلى حد الاستهجان، لأن هناك أسماء لامعة أكثر من اسمها كانت مرشحة ولم تنل الجائزة (ومن ضمنها اسم أدونيس، المرشَّح الخالد من قبل مريديه أكثر مما هو مرشَّح الأكاديمية السويدية).

فوجئنا مع الذين فوجئوا، وبعد البحث لدقائق على شبكة الإنترنت، اختفى شعورنا بالحرج من عدم سماعنا سابقاً باسم الروائية مولر.

فعملها الوحيد المترجم إلى العربية هو رواية «أرجوحة النفس» الذي كان مشروع «كلمة» للترجمة التابع لهيئة أبو ظبي للثقافة والتراث قد قرَّر ترجمته قبل أن تفوز مولر بالجائزة، ووضع الترجمة والطباعة على نار حامية لعرض الكتاب بالعربية في معرض فرانكفورت الدولي الذي أقيم ما بين 14 و18 أكتوبر من العام الجاري، أي بعد إعلان فوز مولر ببضعة أيام.

وترجمة أعمال مولر إلى اللغات الأخرى قد تكون أفضل من ترجمتها شبه المنعدمة إلى العربية، ولكن ليس كثيراً. فمن أصل نحو عشرين رواية كتبتها، هناك نحو خمس فقط تمت ترجمتها إلى الإنجليزية، وثلاثة فقط



إلى الفرنسية.. أي أننا لسنا وحدنا المقصِّرين في استكشاف الأدباء الكبار وإنصافهم.

عندما عدنا إلى شبكة الإنترنت لقراءة المزيد حول سيرة هذه الروائية وأعمالها، وقرأنا ما توافر أمامنا من محتويات هذه الروايات وآراء النقَّاد الألمان فيها، انضممنا إلى صفوف كل الذين طأطأوا برؤوسهم بصمت، ثم تمتموا: «نعم، يبدو أنها كانت تستحق الجائزة».

فبموازاة «العلماء الذين خذلتهم نوبل»، هناك أدباء، وربما علماء يخذلهم الجمهور قبل أي طرف آخر.. الجمهور الذي يبدو في أحيان كثيرة وكأنه بحاجة إلى صدمة ليفيق ويستكشف وينصف، فيبدو أشبه بنائم يتكل على الإعلام ليلعب دور ساعة المنبه ليوقظه، وما من شيء في العالم يمكنه أن يحرِّك الإعلام العالمي دفعة واحدة وبكل طاقته، مثل الإعلان عن منح جائزة نوبل التي، وإن خذلت البعض هنا أو هناك، فإنها أنصفت عدداً أكبر، وحملتنا على إنصافهم.

رشاد سليم المحبوس

القاهرة

تعقيباً على موضوع «علماء خذلتهم نوبل»، «القافلة» عدد سبتمبر-أكتوبر 2009

حول

العرب في ملف البحر

أشار الجزء الذي يتحدث عن «القرصنة» في ملف «البحر» الذي نشر مؤخراً في «القافلة»، إلى أن بعض العرب كانوا قراصنة، اتخذوا من جنوب فرنسا مقراً وقاعدة لهم. والحقيقة العلمية تخالف ذلك. ففي الفترة التي كان الأوروبيون بشكل عام يطلقون اسم «القرصنة» على الفتوحات العثمانية ودورهم البطولي في الدفاع عن بلاد المغرب العربي، وجَّه الإسبان والبرتغاليون، الذين طردوا العرب والمسلمين من بلاد الأندلس ولحقوا بهم إلى ساحل المغرب والجزائر (حتى أن بعض قواعدهم ما زالت قائمة في سبتة ومليلة والجزر الجعفرية)، التهمة نفسها إلى بطولات العثمانيين التي كان يقوم بها الإخوان عروج، وأشهرهم باربروسا الذي كان يلقب بذي اللحية الخضراء، وكانت بطولاته سبباً في الحد من تقدم الإسبان في بلاد المغرب العربي.

أما بالنسبة لاتخاذ جنوب فرنسا قاعدة لهم، فقد كان مصلحة استراتيجية عليا بين الدولة العثمانية وفرنسا، إذ كان لهما عدو مشترك وهي إمبراطورية النمسا التي كانت تحارب العثمانيين والفرنسيين. فلذلك تم السماح للأسطول العثماني ببناء قاعدة في مرسيليا جنوب فرنسا وكان الأسطول العثماني يُغير على شواطئ إسبانيا ويُلحق الضرر بالسفن الإسبانية. وكان غربي البحر المتوسط ميداناً لكثير من المعارك البحرية بين الإسبان والعثمانيين.

كما أن المسلمين في زمن الدولة الأموية بالأندلس، أقاموا دولة بالقرب من مرسيليا أطلق عليها الغربيون اسم «الفرانسيكوم» وحاول الصليبيون جاهدين للقضاء عليها، إلى أن كان ضعف دولة الإسلام في الأندلس سبباً في زوالها. وما زالت آثار العرب من قلاع وحصون وأسماء أماكن باقية في سويسرا وجنوب فرنسا، إذ كان العرب في جبال الألب دولة قائمة وليس مجموعة قراصنة.

هذا تفصيل لبعض الأحداث التي يفهمها الغرب بأنها قرصنة وهي على العكس من ذلك بطولات جهادية لردّ المستعمر وكف شره ومهاجمته في عقر داره.

إبراهيم علي أبو رمان

عمَّان - الأردن

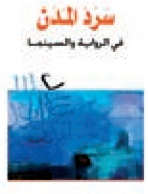
تعقيباً على ملف «البحر»، «القافلة» عدد مايو-يونيو 2009

قافلة النشر

إصدارات جديدة

الدار العربية للعلوم ناشرون



















سرد المدن في الرواية والسينما
سعد البازعي

النص وإشكالية المعنى
عبدالله محمد العضيبي

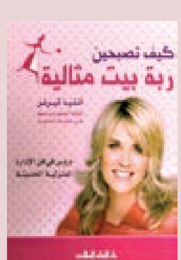
مقالات عن قضايا عربية
عبدالله الصالح العثيمين

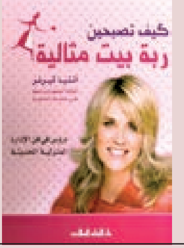
التعليم الإلكتروني في المملكة العربية السعودية
د. علي بن عبدالله الألمعي

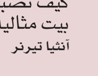
سياسة التعليم في المملكة العربية السعودية
د. علي بن عبدالله الألمعي

دار العلم للملايين









كيف تصبحين ربة بيت مثالية؟
آنثيا تيرنر

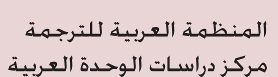
كيف تؤلف كتاباً؟
د. راشد بن حسين العبدالكريم

في التربية الشغوفة
رجا أبو شقرا

أزواج وزوجات (حكايات من واقع الحياة)
علا المطيري

أطباق شهية للأطفال والأولاد

المنظمة العربية للترجمة
مركز دراسات الوحدة العربية









حال الأمة العربية 2008-2009 أمة في خطر

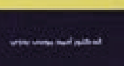
الأبعاد الاجتماعية لإنتاج واكتساب المعرفة
د. أحمد موسى بدوي

حقوق الإنسان في الوطن العربي (تقرير سنوي)
المنظمة العربية لحقوق الإنسان

سوسيولوجيا الغزل العربي
الطاهر لبيب

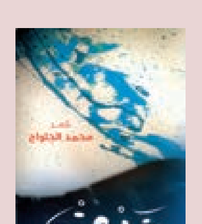
خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر
جان جاك روسو

دور نشر مختلفة

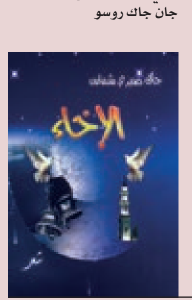












خمس دقائق مفيدة في العمل
د. جيفري برانتلي
مكتبة جرير

مجلة الهلال
دار الهلال

نَزْف (شعر)
محمد الجلواح
دار الكفاح للنشر والتوزيع

الشخصية الجذابة
د. عبدالرحمن عبدالله الصبيحي
دار النساء للنشر والتوزيع

الإخاء (شعر)
جاك صبري شماس

النادي الأدبي بالطائف





هوامش نقدية على دفتر الشعر السعودي
أ.د. حافظ المغربي

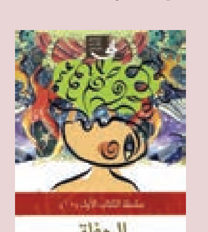
المسرح السعودي.. بين البناء والتوجس
حليمة مظفر

مدونات تشكيلي
فيصل الخديدي

نصوص مسرحية
فهد ردة الحارثي

ليس مهماً (شعر)
طلال الطويرقي

النادي الأدبي بالرياض



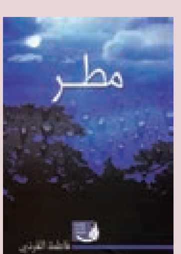














حمأ
مي العتيبي

الحفلة
عبدالله باخشوين

الشخصية في قصص الأمثال العربية
ناصر الحجيلان

مطر

آه من سطوة الفقدان.. آه من موت العبارة (شعر)
عبدالله الزيد

دار القلم











التاريخ الأندلسي
د. عبدالرحمن علي الحجي

ابدأ كتابة حياتك
مشعل عبدالعزيز الفلاحي

وأنزلنا الحديد.. رؤية فيزيائية ذرية
د. أنور حمدي

رياض الريس للنشر والكتب













أعطيت المرأة ظهري (شعر)
بروين حبيب

لا تجرح الماء (شعر)
أحمد قرّان الزهراني

شمال القاهرة غرب الفيليبين (أسفار)
يوسف رخا

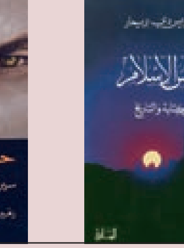
أجمل ما في الأرض أن أبقى عليها (شعر)
جوزف حرب

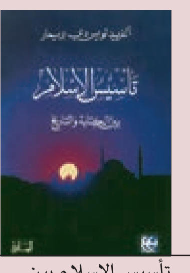
دار الساقي

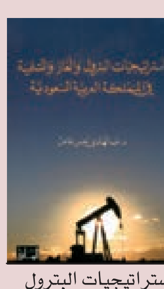












تأسيس الإسلام بين الكتابة والتاريخ
ألفريد لويس دي بريمار

حرب العاجز.. سيرة عائد، سيرة بلد
زهير الجزائري

مي زيادة صحافية
أحمد أصفهاني

الغبار الأمريكي
زهير الهيتي

استراتيجيات البترول والغاز والتنمية في المملكة
د. عبدالهادي حسن طاهر



وقف الهدر
يحمي البيئة ويُطعم الجياع..

قبلاً، كان الناس ينظرون إلى الطبيعة على أنها غير محدودة، غير أن ضعف القدرة الشرائية، وبدائية مفهوم الصناعة، كبحا الآثار المدمِّرة لهذا الاعتقاد. اليوم، ومع زيادة التصنيع والقدرة الشرائية، بدأت الأمور تفلت من عقالها، وعلت الأصوات المطالبة بالاستهلاك الرشيد. ويحفظ التاريخ لرسول الله (صلى الله عليه وسلم)، أنه مرَّ على سعد يسرف في وضوئه، فقال له، «ما هذا السَّرف؟» فسأله الأعرابي، «أفي الوضوء إسراف؟» فأجابه، «نعم، وإن كنتَ على نهر جار».

هذا الموقف الجاد كان سابقاً لعصره؛ ذلك أنه عكس وعياً حقيقياً لمحدودية الموارد الطبيعية، ولقدرة الإسراف في الاستهلاك، أو البذخ، على استنفادها. كميل حوّا يدرس ظاهرة الإسراف، وإلى أين نتجه بها حالياً.

Corbis



قصاصات ورق صغيرة، شبه منتظمة المقاس مجموعة في لاقط معدني تستخدم لكتابة ملاحظات أو رسائل صغيرة. هذه واحدة من أدوات عديدة كنت تراها في مكاتب شركات أواسط القرن الماضي، حتى أكبرها حجماً وأغزرها ربحاً.

القصاصات هي في الأصل أوراق مكتبية عادية كاملة المقاس من تقارير أو نسخ من مستندات مكررة على آلة النسخ (الفوتوكوبي) أو غيرها. وبدلاً من أن تُجعّد وترمى في سلال المهملات كانت تقص ويستفاد من الجهة الأخرى منها لتسجيل ملاحظات سريعة أو رقم هاتف أو لائحة للتسوق أو غيرها. الهدف من هذا كان بالدرجة الأولى التوفير والحد من مصاريف استهلاك الورق في المكاتب. ولكن من حيث كانت تدري هذه الشركات أو لا تدري، فهي في تصرفها هذا كانت تقوم بما هو متناغم مع البيئة وذلك بالحد، أولاً وقبل كل شيء، من الحاجة لقطع المزيد من الأشجار من أجل استخدامها في صناعة الورق.

هذا الميل إلى التوفير حتى في أصغر الأشياء وأبسطها، كان في صلب تفكير الشركات المعاصرة في الغرب منذ نشأتها. وربما عززه في بعض المنعطفات دخول الدول الأوروبية الحروب الكبرى حيث كان الاقتصاد في استهلاك بعض أشياء مثل الورق والوقود من ضروريات المواجهة والبقاء.

وعلى عكس الانطباع عند البعض منا اليوم، فإن الاقتصاد في الاستهلاك وعدم التبذير كان في أساس النهضة الصناعية المعاصرة. ويتمثل في نواحٍ عديدة مثل بساطة المظهر، وإضافة إلى البساطة تبتكر وسائل لعدم تلف أطراف السترات والمعاطف عبر تغطية أكمامها وياقاتها بالجلد أو القماش السميك، حتى لو كان ذلك يحمل بعض النقص في الأناقة أو اللياقة. وكان هناك حرص يبدأ في المصنع والمكتب وينتهي في البيت، على عدم التخلص من أي شيء بطلت الحاجة إليه والسعي إلى إصلاحه أو استخدامه في أمور أخرى. وكأنها «إعادة تدوير» الأشياء التي نسمع بها كثيراً اليوم. فأنصاف العلب المعدنية يتم تجميعها لتشكل مصرفاً للمياه. والملابس القطنية إذا تلفت تُغسل وتستخدم كقماش لتنظيف المعدات ذات الشحوم الصناعية.



Reuters

الاستهلاك المفرط تدفع فاتورته الشعوب الفقيرة

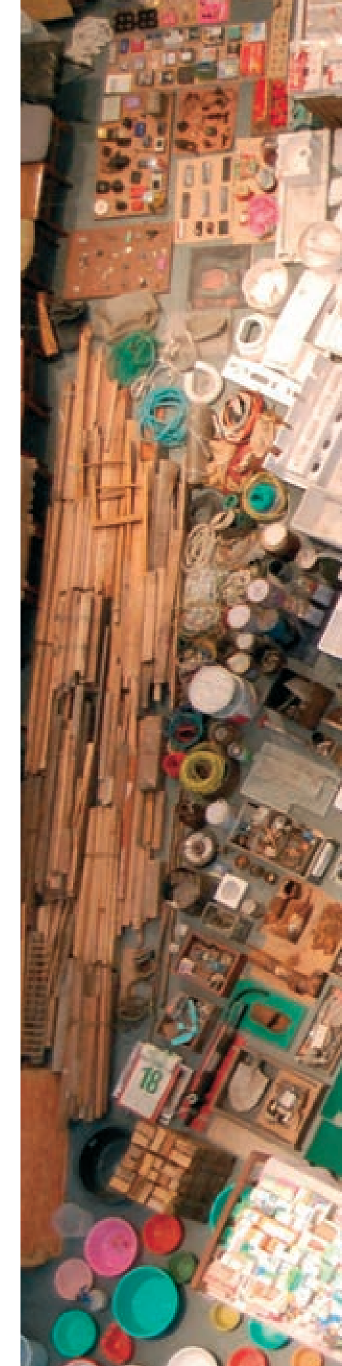
ومما لا شك فيه أن هذا النزوع العملي والاقتصادي في استخدام الأشياء لأطول فترة ممكنة، يقف وراء اكتشاف «الجينز»، هذا الملبس الذي لا يفنى والذي صنع للعمال من قماش الأكياس. كذلك كان خلف ذاك الحرص الكبير على متانة المنتج أن يبقى صالحاً لعشرات السنين. وبالفعل، كم من المعدات كانت تعيش أكثر مما كان متوقعاً لها؟ وأحياناً يتم التخلص منها وهي ما زالت قوية البنيان صالحة لتأدية وظيفتها الأصلية. ولم يكن هذا الحرص إلا اهتداءً بالضمير المهني والقيم التي كانت تلك النهضة تسير على هديها.

ومن عايش تلك الفترة كان يرى انتشاراً واسعاً للرغبة في الاستفادة من الأشياء بما في ذلك الأشياء التي سبق واستخدمت قليلاً أو كثيراً. كنت ترى الكثيرين يقاومون التخلص من أي شيء يمكن الاستفادة منه أو من جزء منه في أي وقت في المستقبل. فيحتفظون مثلاً بآلة معطلة لا يمكن إصلاحها وهم يحاولون بشتى الوسائل إنقاذ جزء سليم أو جميل منها واستخدامه لمنفعة أخرى.

من معرض «سونغ دونغ» المعنون «لا تهدر» في متحف الفن الحديث في نيويورك



وفـي المنــازل كان الأهل يجمعون حاجيــات لا تحصى، ولا وجود حتى لاحتمال استخدامها في المستقبل، في صناديق تتراكـم عبـر السنيـن فـي «السمنـدر» أو غرفـة المؤونـة المنزلية. وبقــي هذا الميل الدفين إلى الاحتفاظ بأي شيء مصنــوع مهمــا كان ناقصــاً أو تالفاً إلى يومنــا هذا وتجده خاصة لدى الناس البسطاء. ويكاد يتحول عند إنسان اليوم إلى نــوع من الغريـزة، تجدهــا أحياناً عنـد الأطفال حيث يخبئــون في صناديق سريــة تحت أسرتهــم أشياء مصنعة مما هبّ ودبّ.



Flickr

«لا تهدر»!

فــي خضــم الحديث عن فكـرة الاستفــادة مــن الأشياء وعـدم التخلص منها بسهولة، تشــاء الصدف أن يعرض متحـف الفن الحديث المعروف في نيويورك (MOMA) مؤخـراً عمــلاً فنيــاً ضخماً يمــلأ بمفرده إحـدى قاعات المتحف الكبيرة، تحت عنوان «لا تهدر» (Waste Not). وهو عبــارة عن تكوين جمــع فيه الفنــان الصيني صونج دونــج آلاف الأدوات والحاجيــات المنزليــة التــي كانــت والــدة الفنان تحتفظ بهــا طوال حوالــي نصف قرن من الزمــن. فلم تكن هذه السيــدة لترضى بأن تتخلى عن أي شــيء مما يتــم استهلاكه في البيت مــن عبوات معاجين الأسنــان أو زجاجــات المرطبات أو الأحذيــة القديمة أو أدوات الحلاقــة، وغيرها من مستلزمــات. وحين وافقت الوالدة بعد سنين علــى طلب ابنها الفنان بأن تتخلى عن «تاريخهــا» مــن الحاجيــات المستهلكة التــي جمعتها في بيتهــا ليكوِّن منها هذا العمل الفني، أخلت البيت وانتقلت إلى شقة في العاصمة.

الاتجاه المعاكس

بالمقابل ومــع بواكير الخمسينيات مــن القرن الماضي كانــت قــد ظهــرت ملامــح مجتمــع الإســراف خاصــة فــي الملبــس والمــأكل ونمــط الحيــاة. ومعــه، بــدأت تظهــر السيارات الأمريكيــة الفارهة تعكــس هذا الميل الاستعراضي الذي انتشر سريعاً ونما معه وحوله مجتمع الاستهــلاك، الــذي أحــدث انقلابــاً كبيــراً فــي سلوك المجتمعــات وشكَّل ضغطاً شديداً علــى البيئة في جميع مواطنها.

وكان قــد تنبــأ بالآثــار السلبية للاستهلاك غيــر المدروس علــى البيئة، أحد كبــار مفكري علم الاجتمــاع في الولايات المتحدة هو ثورستايــن فبلن (Thorstein Veblen) الذي يمكن اعتباره بحــق رائد الفكر البيئي في العصر الحديث. فمنذ بدايات القرن، تحدث فبلن عن الآثار السلبية للنظام الرأسمالــي علــى البيئــة لجهــة استهلاكــه السريــع وغير الحريص للموارد الطبيعية.



أرامكو السعودية

من المهم أن تتعلم الأجيال الجديدة مفاهيم إعادة تدوير النفايات

لاحظ فبلن في ذاك الوقت المبكر محدودية هذه الموارد والهدر الذي أخذت تتعرَّض له مع تقدم الصناعة ونموها وتشعبها حتى قبل انقضاء القرن التاسع عشر، ورأى فيه خطراً محدقاً على البيئة. ومما يعزز قيمة طرح فبلن، أنه ربطه بنظريته الأشهــر وهي «الاستهلاك الاستعراضي» (conspicuous consumption) إذا جــاز التعبيــر. وهي نظريــة يعزو فيها نسبة عالية من الاستهلاك لحب الظهور والتشبه بالأكثر ثراءً. ومنذ ذلك الوقت المبكر، سلــط الضوء علــى هذا الميل في المجتمــع الغربي لنوع مــن الاستهــلاك لا يقوم علــى الحاجة الحقيقيــة وإنما على حب الظهور. استهــلاك يتسِّم بنزوع إلى الإسراف والهــدر، ويتطلب إنتاجاً لتلبيــة مستلزماته بسبل لا تأبه بأن تفتك بالبيئة بلا هوادة.

مــن هنــا يُعــد فبلــن ليس فقــط رائــد الفكر البيئــي، بل رائــد الفكر البيئــي الاجتماعي، وهو قد عــاب على الفكر الاجتماعي إهماله للعلاقة بالبيئة ضمن دراسته للمجتمع الإنساني.

بين احتفاظية وتخلصية

وعلى طرف نقيض من تلك النزعة «الاحتفاظية» المبكرة، بــدأت في هذه الفترة أيضاً -أي في الخمسينيات- تظهر أولــى نمــاذج الأدوات «ديسبوزابــل» (diposable) التي تستخــدم لمــرة واحدة ثــم يتــم التخلص منهــا، وكانت المناديل الورقية في طليعتها. وبسبب ما تمثله هذه

المناديل من سهولة في الاستخدام فقد استمرت في الانتشار على أوسع نطاق. فهل يستطيع أحدنا أن يتخيل كم من الشجر سينقذ من القطع لو توقف استخدام المناديل الورقية اليوم؟

أصبح امتلاك وقيادة سيارة فارهة معروفة بإسرافها في استهلاك الوقود من دلالات قلة حرص صاحبها على البيئة واستهتاره بالصحة العامة

اشتد الحماس لهذه النزعة «التخلصية» لدرجة أنه جاء وقت طُرحت فيه ملابس تُلبس لمرة واحدة ثم تلقى في سلة المهملات. وفي الفترة نفسها بدأت مرحلة الابتكارات البلاستيكية تغزو كل المنتجات، أولها الأكياس ثم انتقلت إلى القوارير ومن ثم عشرات الاستخدامات الأخرى. وحين ظُنَّ في البداية أن الابتكار البلاستيكي، لكونه صناعي المنشأ، أقل ضرراً على البيئة من الورق مثلاً. ولكن مع الوقت، وحين ملأت الملايين من هذه القوارير الحاويات وغطت أماكن النزهات، انتبه المجتمع الإنساني إلى أن هذه المادة هي استنزاف للبيئة باتجاه واحد، إذ إنها عصيَّة على التدوير. فقامت تلك الحملة الواسعة ضد البلاستيك بكافة أشكاله، واستمرت في تصاعد إلى أن استطاعت بحوث علمية أن تجد سبلاً للتخفيف من آثار هذه المنتجات وتسمح باستعادة الطبيعة لبعض مكوناتها إما بشكل كلي أو جزئي. لكن رغم ذلك، فقد استمر الاستهلاك المتزايد كماً ونوعاً في تهديد موارد البيئة الطبيعية بأشكال لا حصر لها حتى يومنا هذا.

بيئة البذخ

وما أن حلت السبعينيات، حتى ظهرت ملامح الآثار المدمرة لمجتمع الاستهلاك هذا على البيئة في نواحٍ عديدة. وقامت حملات ضد التزيُّن بأشياء مصدرها الحيوان، لأن المتاجرة بها يهدد أصناف من الحيوان بالانقراض، منها الفرو على أشكاله والعاج وغيره. وكثيراً ما كانت هذه الحملات تستقطب تأييداً شعبياً خارج المؤسسات الرسمية أو الجمعيات البيئية. لدرجة وصل الحال في عواصم كثيرة أن توقفت النساء من التجرؤ على ارتداء الفرو والعاج خوفاً من اعتداء يتعرضن له من قبل أناس عاديين مستنكرين لهذا التصرف اللامبالي.

وقد حوربت تجارة العاج محاربة فعَّالة، لدرجة أدت إجراءات وقف صيد الفيلة في بعض الدول الإفريقية إلى زيادة أعدادها من جديد بشكل أصبح يهدد البيئة من ناحية أخرى. وذلك بسبب استهلاك الفيل كمية كبيرة من الزرع وأوراق الشجر!.

وفي منتصف السبعينيات، حين ارتفع سعر النفط بشكل كبير لأول مرة في التاريخ المعاصر، بدأ الضغط يشتد على شركات السيارات لإنتاج سيارة أقل استهلاكاً للوقود بسبب ارتفاع تكلفته. لكن مع الوقت، تبين أن هذا الاتجاه له آثار إيجابية على البيئة كذلك حيث يخفف من الانبعاثات المؤذية من جهته، والأهم من ذلك أنه يجاري توجهاً عاماً بخفض استهلاك مصادر الطاقة، التي مهما بلغ توافرها اليوم تظل محدودة على المدى البعيد. وأصبح امتلاك سيارة فارهة معروفة بشراهتها لاستهلاك الوقود من دلالات قلة حرص صاحبها على البيئة واستهتاره بالصحة العامة والمشاعر العامة كذلك.

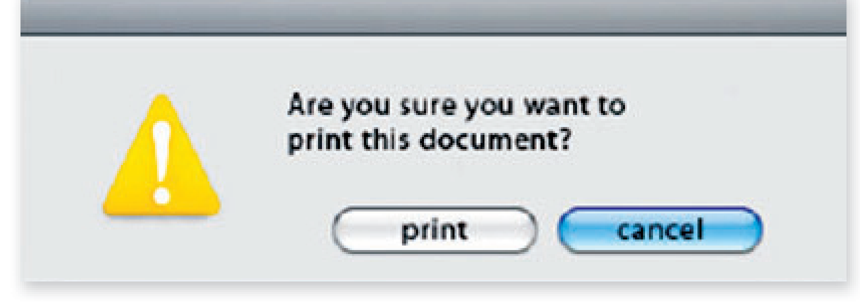
البذخ، الرفاهية، السهولة، أو المنفعة

إذا كان البذخ هو شكل صارخ من أشكال الاستهلاك المُغالية في إحداث أذى للبيئة، فإن المجتمع الإنساني



Magnum Photos

عبوات المياه.. عبء بيئي لم يكن موجوداً قبل نصف قرن



تردد قبل طباعة ورقة!

يمارس ما يؤذي البيئة بغير نية البذخ، وربما يكون أذاه أبعد أثراً من البذخ المترف، بأشكال قد لا تستحق الإدانة الأخلاقية نفسها التي تكال لتلك.

ومن هذا ما له علاقة بالرفاهية وبأشكالها البريئة والمشروعة. وكذلك أحياناً سهولة الاستخدام التي توفرها بعض المنتجات الاستهلاكية. ومن هذه المنتجات ما هو غير ضار بذاته إلا لجهة إهدار الموارد البيئية، مثل المناديل الورقية أو بعض المنتجات التي لا تخلو من الضرر إلا أنها تسهِّل على الناس قضاء حاجاتهم وبأسعار متدنية، مثل مساحيق الغسيل. وتنسحب السهولة على ما لا حصر له من المنتجات الحديثة وفي طليعتها المنتجات البلاستيكية التي تجد العشرات منها في كل بيت ومقهى ومطعم وفندق. وكلما كانت شعبية أكثر، كلما كانت بلاستيكية أكثر. وطبعاً، فإن السهولة والعملية من الصفات التي تجعل مكافحة المنتجات التي تمثل أذى للبيئة أكثر صعوبة. إذ كيف تحرم فقيراً من استخدام وعاء أو كرسي بلاستيكي وهو عملي زهيد الثمن ويدوم إلى فترة طويلة جداً.

إن أشكال الاستعمال لا تُعد ولا تُحصى وتصل إلى نفس أساليب الإنتاج الصناعي أو الزراعي بدءاً بالمستوى القروي البسيط وانتهاءً بالمصانع الكبيرة.. بدءاً بالمُزارع الذي يستخدم أساليب تُنهك التربة بهدف تسريع الموسم المربح، إلى المصانع التي تلقي النفايات السامة في مجاري الأنهار توفيراً للجهد والمال.

ويصل الحال إلى المنفعة المباشرة البسيطة، التي منها ما لم يكن ليخطر ببال. ففي الآونة الأخيرة قامت حكومات أوروبية عديدة بحملة لتحديد صيد السمك للأفراد الذي يتم كهواية بريئة تمارس على شاطئ البحر في أغلب الأحيان، وذلك بحجة أن هذا الصيد يستنفد أنواعاً معينة من الأسماك.

وهل للبحر آخر؟

والحقيقة أن الكثير مما نحن فيه اليوم لم يكن تخيله ممكناً منذ فترة لا تزيد على قرن ونيف وذلك من نواحٍ عديدة. وربما أهم أسباب ذلك أن معرفة الإنسان اليقينية والملموسة بالبيئة الطبيعية في جوانب كثيرة لم تنضج إلا في الأمس القريب.

فمنذ قرنين مثلاً، لم يكن يخطر ببال الإنسان أن صيد الحيتان سوف يؤدي إلى انقراضها لأنه أصلاً لم يكن قد تمكَّن بما يكفي من معرفة البحار والمحيطات، بل لم يكن يظن أن للمحيطات والبحار أعماقاً أو نهايات تحددها بالضبط وتجعل ما بها فعلاً معروفاً ومحدوداً مثل كمية خضار في وعاء. ولا أظن أنه حين كُتبت رواية «موبي ديك» قصة الحوت المشهور، كان يخطر ببال المؤلف شيء من نسخة اليوم مما يهدِّد هذا الحيوان بالانقراض. كان إلمام الإنسان بالبيئة لا يزال على درجة من الغموض والضبابية. والشيء نفسه يصح بالنسبة لصيد الطيور أو الصيد البري. وكأن الطبيعة كيان لا متناهي.



www.allposters.it/-sp

وغالباً، يمكننا تصور علاقة الإنسان بالتربة والزرع على المنوال نفسه. فحتى لو أدرك الأقدمون بعض خصائص الزراعة، إلا أن الإنسان حتى سنين قريبة لم يكن ليتخيل أن بمقدوره إفساد تراب لأن التراب كأي عنصر من عناصر الطبيعة كان يتمتع في نظره بديمومة ما. أما اليوم، فقد أحاط الإنسان بالطبيعة وعرف ما هيتها وحدودها وتكوينها وشروط التعامل معها، ليكتشف فجأة أنه قد بالغ في هدر مواردها وإحداث الأذى بكيانها، فأصبحت قدرتها على توفير حاجاته في تناقص، بل وكأنها بين ليلة وضحاها تضيع من بين يديه!

هل تطبع الورقة؟

الحقيقـة أنه مع نهايـة القـرن الماضي ودخـول الإنسانية الألفيـة الثالثـة، كان قـد حصـل تحـوُّل في سلـوك الناس فـي المجتمعات المعاصـرة عموماً وبنسـب مختلفة. وأهم معالـم هذا التحول أفـول أسلوب الاستهتار فـي التعامل مـع الاستهـلاك والبيئة. فراج الحرص علـى البيئـة والاستعـداد للتحمل والتضحيـة ببعض أوجه الراحـة من أجل ذلك. وأصبح النـاس يراعون الشأن البيئي في حياتهم اليومية حتـى ولو كانوا يدركون أن مـا يقومون به من تصـرف يلتزم حسن التعامل مع البيئة، لن يكون له تأثير إيجابي يذكـر أحيانـاً. فقـد أصبـح هـذا نوعاً من الالتزام الأخلاقي.

من خلال صناديق فرز النفايات يبدو العالم وكأنه يسجِّل لبخلاء الجاحظ مأثرة لم تسجَّل لهم في أي وقت مضى

لم يعـد النـاس يضجرون مـن تكـرار تذكيرهـم بإمكان تفادي الاستهلاك غير المفيد أو الضروري حتى في أبسط تفاصيل الحياة اليومية. وقد أصبحت الأجهزة الإلكترونية واسعـة الاستعمـال، والتي تمثـل «طفرة» في نشـر وسائل الراحة والاقتصاد في الجهد، هي نفسها أداة حاضرة في نشـر الوعي البيئي، رغب أصحابها فـي ذلك أم لا. فأمام شاشـة الكمبيوتر إذا أصدرت أمـراً بطبع وثيقة، يطالبك الجهـاز بالتأكـد من حاجتـك لها لأن فـي استهلاك ورقة تأثيـراً سلبياً على البيئة. وحين ينتهي شحن جوالك وتقوم بفصلـه عن الشاحن تظهـر عليه رسالـة تطالبك بسحب الشاحن من التوصيلة الكهربائيـة توفيراً للطاقة وبالتالي حماية للبيئة.

ألوان البيئة

المشهـد مؤثر: صفٌّ من الصناديق الملونة يفوق عددها الآن عـدد أصابع اليد، وقد خُصِّص كل واحد منها ليعبأ فيـه صنف مـن المـواد المستهلكة ثـم فرزه عـن سواه بهـدف إعادة تدويـره. هذا المشهد بدأنـا نراه، وهو في ازدياد، ويستحق أن يهنـئ المجتمع المعاصر نفسه على التوصـل إليه بلا شـك. وعلينا ألاَّ ننسى أنـه حين وُضع أول صندوقيـن، واحد للزجـاج وآخـر للبلاستيك، منذ عقديـن أو أكثر بقليـل، استُقبل هذا الحـدث بشيء من الاستخفاف.

والحقيقـة أن مرد هذا الاستخفاف هو «حس بذخي» واسع النطـاق كان قد انتشر قبـل ذلك في المجتمـع الإنساني. نستطيـع أن نفترض أن بـوادره بـدأت مـع بدايـة القرن العشريـن ولو أنهـا تعرضـت لانتكاستين أثنـاء الحربين العالميتيـن. نشأ هذا الاستخفاف مـع التطور السريع في



أرامكو السعودية

أسهمت شركات عالمية بينها أرامكو السعودية بنشر ثقافة المسؤولية تجاه البيئة وإعادة تدوير النفايات

القـدرة الإنتاجيــة للصناعة المعاصرة مــن جهة، وتراكم الثـروات والبحبوحة في المجتمعـات الغربية بشكل خاص من جهــة أخرى، وينظر أفـراده إلى الحرص على البيئة وكأنــه يحمل شكاً بقــدرات المجتمع الصناعــي المعاصر غير المحدودة.

كان يمكــن اعتبار هذا الميل طارئاً على المجتمع الإنساني. فهـذه الصناديق المرصوفة ليست في الحقيقة ذروة لتطور جوهري في الحياة الإنسانية، بقدر ما هي بادرة طوارئ تقوم بها الإنسانية تجاه تطورات مفاجئة نتجت عن الاستهلاكية الحديثة وكان لها آثار مدمرة وسريعة على البيئة. أما تاريخ المجتمــع الإنساني فيما سبق هــذه العقود الأخيرة فيختلف عما توحي به هذه الصناديق «الحليفة» للبيئة.

مأثرة البخلاء

إن مــن يتأمل هذه الصناديق كثيــراً، ويفكِّر فيما تعنيه من «وضــع الأمور في مواضعها»، قــد تستيقظ فجأة في ذاكرته بعضــ روايــات الجاحظ عــن البخــلاء، مثل قصــة معاذة العنبريــة التي فصَّلت كيف يستفــاد من كل جزء من أجزاء الأضحية فــلا يضيع منها شيء. وكان شعارها بالفعل وضع الأمــور في مواضعهــا. فقرن الخــروف خطّــاف تعلَّق عليه الأشياء لحفظها، والمصــران لأوتار مندفة الصوف ودسم العظــام للمصباح وأخيراً وجدت في الــدم الحار فائدة أن تُطلى به القدور الجديــدة. واليوم، يبدو المجتمع المعاصر وكأنه يسجِّل عبر هذه الصناديق -والتي واحد منها للزجاج والثاني للبلاستيك والثالث للورق والرابع للمعادن والخامس للمهمــلات العضوية- وسواها مأثرة للبخلاء لم تسجل لهم في أي وقت مضى.

فــلا شــك فــي أن محاولــة الاستفــادة مــن بقايــا الأشياء المستخدمــة أو إعادة استخدامها بأشكال أخرى يصبو إلى الظفر التام التي كانت تصبو إليه معاذة العنبرية في سعيها لإيجاد فائدة من كل مكونات الأضحية!

وخــلال المرحلة التــي سبقت صناديق «غربلــة» المهملات هذه، يمكن تسجيل عدة تطورات في نفس الاتجاه كان أولها هــو ظهور شعار «قابل لإعادة التدويــر» (Recyclable) في الثمانينيــات والذي بــدأ يصبــح شرطاً للمــادة الصناعية بعــد اليقظة «الأنتــي - بلاستيكية». والحقيقــة أن المجتمع الإنسانــي حقق نجاحاً ما حين جعــل الشركات تفرض على نفسها استخدام مــواد قابلة للتدوير، وتعتــز بوضع الشعار الدولي المعروف عليها.

والتطــور الثاني هو انتشار «تجــارة» النفايات، حيث ظهرت شركات تحقق أرباحاً كبيرة من خلال جمع النفايات

سؤال السيّد مالتوس

يتناول مقال «سؤال السيِّد مالتوس» المنشور في مجلة The Economist البريطانية موضوع شح الموارد الطبيعية نتيجة الوتيرة التصاعدية للاستهلاك وللنمو السكاني، تبدأ بتحذير مصدره دجون بدنجتون، وهو المستشار الرئيس للحكومة البريطانية، من «عاصفة مثالية»، قوامها شح الغذاء والمياه والطاقة، تضرب العالم بحلول عام 2030م.

وهذه ليست المرة الأولى في التاريخ التي يدق فيها أحدهم ناقوس الخطر؛ ففي القرن التاسع عشر قام العالم توماس مالتوس بدراسة أفضت إلى أن النمو السكاني سوف يتفوق على الإنتاج الغذائي، وعندها سيقع العالم فريسة مجاعة شاملة. لم تتحقق مقولة مالتوس، ليس لأن النمو السكاني انخفض، بل لأن الإنتاج الغذائي لحق بالوتيرة العالية ذاتها. هذا، وقد بقي سؤال مالتوس في أذهان العلماء، حيث كتب ليستر سي ثورو عام 1986م «لو كان لسكان العالم إنتاجية السويسريين، وإستهلاكية الصينيين، وحس السويديين بالعدالة الإجتماعية، وانضباط اليابانيين الاجتماعي، لكانت الأرض قادرة على أن تستوعب أكثر بكثير ممن تستوعبهم حاليًا، دون حرمان أي من سكانها».

على كل حال، سكان العالم لا يزالون في ازدياد حيث، يتجاوز الـ 9 آلاف نسمة بالساعة، و80 مليونًا بالسنة.

وبالعودة إلى مالتوس، فإن الدراسة التي قام بها انطلقت من ملاحظة بسيطة، هي أن الفصائل الحيوانية في مناطق السهوب تزداد وتقل حسب الفصول ووفرة الموارد الطبيعية معها، فهل يكون الهومو سايبيين، أو البشر، قادرين على تخطي هذا النمط؟ الإجابة عن هذا السؤال حساسة، وهي منوطة أوّلًا وآخرًا بقدرتهم على التعاون والانضباط.



Getty Images


Stock.xchng
Corbis

البلاستيك والورق.. نفايات تنتزع مزيداً من الاعتراف بقيمتها

وإعادة تدويرها، وقد مثل ذلك منعطفاً مهماً في بداية تخفيف الوطأة على البيئة واستعادتها ولو لجزء بسيط مما كانت توفره.

وإذا كان الفنان الصيني قد كوَّن عملاً فنياً ممَّا حفظته والدته عبر السنين، إلا أن استخدام النفايات والمهملات لتكوين عمل فني معروف منذ عدة عقود، ومستمر إلى اليوم، ويُعد من إبداعات الفن الحديث وأحد التمارين التي يستمتع طلاب الفن بمزاولتها في كل معاهد العالم.

الربع يكفي الثلاث أرباع

في الأشهر التي سبقت صدور تقرير منظمة الغذاء العالمي الأخير شديد التشاؤم (2009)، ظهر في أوروبا والولايات المتحدة عدد كبير من المقالات والكتب تكاد تكرر نفس المقولة، وهي أن الطعام المهدر في الدول الغربية كل يوم يكفي لإطعام ما يزيد على بليون نسمة من الجياع في العالم! وهذا هو رقم الجياع الذي ورد في تقرير الصحة العالمية والذي يواكب ازدياد أعدادهم مع تفاقم أزمة الاقتصاد العالمي.

المواد الغذائية من حيث المبدأ زهيدة الثمن بمقاييس الدخل في الدول الصناعية الغربية. وهذا من العوامل التي تشجِّع على الهدر والتصرف بلا مبالاة تجاه هذه الكميات الكبيرة من الطعام التي تُلقى في سلال المهملات. إلا أن هذه الظاهرة ذاتها بما تتضمنه من استهلاك فائض للمواد الغذائية الأساسية مثل القمح والذرة وغيرها، ترفع قيمة هذه المواد في الدول الفقيرة النامية وتجعلها بعيدة عن متناول الطبقات المعدومة. فهي من ناحية تزيد من نسبة المجاعة، وتزيد من استهلاك الموارد البيئية من ناحية أخرى، بما في ذلك استنفاد التربة الزراعية وقطع الأشجار لتوفير مساحات أكبر للزراعة المطلوبة في المجتمعات المرفهة.

ويسلّط كتاب «الهدر» (Waste)، الذي صدر مؤخراً، الضوء على ما يعتبره فضيحة عادات هدر الطعام في المجتمع الغربي المعاصر. وذلك من المزرعة وحتى السندويتشات الملفوفة في نايلون السوبرماركت. ويحصي الكتاب أن محلات السندوتشات، بما فيها محال السوبرماركت، تتلف يومياً ربع مقدار ما تبيعه من هذه الوجبات السريعة. وكل ما يتم هدره تقريباً يكون صالحاً للأكل، لكنه لا يُعطى للفقراء أو الجياع لأسباب مختلفة منها المحافظة على سمعة المنتج.

الاستدامة فن للبقاء

كان الحرص على عدم الهدر نتيجةً لغياب الوفرة في المواد الغذائية أولاً وقبل كل شيء، لا سيما أن المجتمعات البشرية عبر التاريخ كانت عرضة لضروب مختلفة من العوز والمجاعة. وخلال معظم الحقب الزمنية لم تكن الأسر تعرف نوع الوفرة التي تشهدها اليوم، رغم وجود هذه النسبة المرتفعة والمخجلة من الجياع التي ترافق هذه الظاهرة. أما تاريخياً، فلم يعرف الناس سابقاً هذا التنوع في المأكل والمشرب إلا في روايات السلاطين والأثرياء.

وبسبب ارتباط وفرة الطعام بمواسم معيَّنة فقد ابتكرت المجتمعات أساليب مختلفة كي تحافظ على عناصر الغذاء الأساسية لفصول السنة الأخرى، سواء أكانت العائلة فقيرة أم ميسورة فلا شك أن المؤونة المنزلية وما قد تشمله من مختلف أنواع مواد الأكل أو الطبخ المحفوظة كانت سمة معروفة في كل بيت من البيوت. وكان حرص أهل البيت على

«ترشيد استهلاك» هذه المؤونة عبر أشهر القحط أمراً مهماً تحمي من خلاله العائلة نفسها من العوز والاضطرار إلى اقتراض الحاجيات.

ويُسوَّق لفكرة الاستدامة -بما هي حرص على حُسن الاستفادة من الموارد وعدم المغالاة في استهلاكها حفاظاً عليها- وكأنها طرحٌ جديد، إلا أن من يتعمق في تاريخ المجتمعات البشرية في مجال الغذاء يكتشف أن فكرة «الاستدامة» لم تكن غريبة عن المجتمعات القديمة وحتى عصرنا الحاضر. والحق يُقال، إن جوانب الاستهلاك غابت عن بعضها بسبب قلة درايتها وعدم توافر معطيات علمية كافية لديها، كالتي توفرها علوم اليوم. إلا أن ذلك لا ينفي أن أرباب المنازل والزوجات وكذلك المجتمعات الصغيرة، كانوا يمارسون هذه النزعة «الاستدامية»، إذا جاز التعبير، في جوانب مختلفة من ممارساتهم في الزرع أو الحصاد والتعامل مع الأشجار المثمرة أو الماشية والدواجن وغيرها، كمصادر للأكل، ثم علاقة كل هذا بالطعام المجفف والمحفوظات المختلفة.

كم من الأهل في العقود الأخيرة وبّخوا أولادهم على ما تركوه في صحنهم من أكل بتذكيرهم بمشاهد المجاعات

أكمل صحنك!

لا شك أن تفادي الهدر، خاصة بما يضمن توفر الحد الأدنى من الغذاء على مدار العام، كان من أولويات البيوت في كل مكان ومن دون استثناء تقريباً. إنه هاجس يومي لدى الأب والأم اللذين يتصرفان بشكل عام على أساس مبدأ توفير أكثر وأفضل ما يمكن للأولاد، ولكن مع التأكد من خفض الهدر إلى مستواه الأدنى. ولا شك في أن كل أطفال الأرض سمعوا عشرات المرات على سفرة الطعام أمر «أكمل صحنك» والذي وإن كان في شكله يعبِّر عن حرص على أن يتناول الابن المزيد، إلا أنه في أساسه يمثل تدريباً يومياً على ألا يضع في صحنه ما يزيد على حاجته الفعلية، وبالتالي يصبح أكلاً يُلقى في سلة المهملات. وكم من الأهل في العقود الأخيرة وبَّخوا أولادهم على ما تركوه في صحنهم من أكل بتذكيرهم بمشاهد المجاعات التي يتعرض لها أقرانهم من الأطفال في مختلف أنحاء الأرض. وهناك مثل إيرلندي معروف يُقال للولد الجشع الذي يملأ صحنه أكثر مما يستطيع أن يأكله: «إن عينيك أكبر من معدتك!».

والعلاقة بين المستهلك والمنتج عموماً لا تختلف عن تلك بين الولد وصحنه. ذلك أن المنفعة مزدوجة في كل الأحوال. فكما أن الولد ينتفع على المدى القصير من إكمال صحنه، وعلى المدى الطويل من تعلُّمه حساب المقدار الذي يحتاج إليه، كذلك يستفيد المستهلك من ترشيد نفسه بطريقتين؛ فهو يوفِّر على نفسه أولاً تكاليف ليس بحاجتها، وسيستفيد منها إما في شكل مدَّخرات أو عبر صرفها على مقتنيات أخرى، وهو يضمن لذريته ثانياً بيئةً سليمة. من هنا، يبدو أن بخلاء الجاحظ كانوا أيضاً حكماء.





Reuters

الطعام المهدور في الدول الغربية يومياً يكفي لإطعام بليون نسمة!!

قول في مقال

ياهو مكتوب
انطلاقة جديدة للإنترنت العربي

أثار استحواذ شركة «ياهو» العالمية على الموقع العربي «مكتوب» الكثير من التعليقات، وقدَّم الكثيرون قراءاتهم لهذه الصفقة، كلٌ من الزاوية التي تثير اهتمامه. أما محمد الساحلي*، وانطلاقاً من عرض جوانب المسألة، فإنه يجد فيها انطلاقة جديدة للإنترنت العربي، ستؤدي إلى خطوات أخرى يكون المستخدم العربي أبرز المستفيدين منها.

بعد أشهر، وربما سنوات، من التكهنات والشائعات المختلفة، جاءتنا جهينة بالخبر اليقين، فأعلن رسمياً في دبي في أغسطس الماضي عن توصل «مكتوب» و«ياهو» إلى اتفاق تستحوذ بموجبه شركة «ياهو» على موقع مكتوب. وقد جاء هذا الاتفاق تتويجاً لقصة نجاح بدأت خطواتها الأولى قبل سنوات عشر في مدينة عمَّان الأردنية.

فقد بدأت الإنترنت بالانتشار في أغلب الدول العربية خلال النصف الثاني من تسعينيات القرن الماضي، غير أن التعامل باللغة العربية على الشبكة لم يكن بالأمر الشائع آنذاك، لصعوبات تقنية محضة.

ودفعت تلك الصعوبات، مع الحاجة إلى استخدام اللغة الأم في التواصل على الإنترنت، الثنائي سميح طوقان وحسام خوري، يدعمهما فادي غندور (صاحب شركة أرامكس)، إلى ابتكار أول خدمة بريد إلكتروني عربي، أريد لها أن تكون خدمة عربية توفر للمستخدمين التواصل بالعربية عبر البريد، حتى إن لم يكن جهاز الكمبيوتر للمستخدم يعمل باللغة العربية. تلك كانت إحدى اللفتات العبقرية التي أتت بها «مكتوب».

كانت البداية محفزة جداً، إذ بعد إطلاق خدمة البريد بشكل تجريبي (أبريل 1999م) حصلت الخدمة على 5 آلاف مشترك. هي بداية قوية أظهرت أن للمشروع قيمة استثمارية، فبدأت تحركات سميح طوقان للحصول على تمويلات للمشروع. وكان له ما أراد سنة 2000م، بحصوله على تمويل بقيمة 2.5 مليون دولار.

الانسياق لرغبات الجمهور.. عامل نجاح أم فشل؟

عاب البعض على «مكتوب» أنها بعد بدايتها القوية لم تقدِّم الكثير من الفائدة للمستخدم العربي قدر ما انساقت مع رغبات الجمهور، وعرفت فترة انطلاق «مكتوب»، ما سمي بانفجار فقاعة الدوت كوم. وهي مرحلة شهدت إفلاس عدد من شركات التقنية و«الويب» على المستوى العالمي. وربما كان هذا ما دفع شركة «مكتوب» إلى مراقبة نموها بحذر، والتركيز على التخصص في خدمة البريد الإلكتروني، عوض الدخول في مغامرة تنفيذ مشاريع ضخمة.

يفترض أن يكون الأمر طبيعياً. غير أن «مكتوب» حصلت لاحقاً على تمويل إضافي من «أبراج كابيتال» بقيمة 5 ملايين دولار. وهو ما كان يعني إمكانات نمو جيدة في منطقة عطشى لأي جديد. لكن للأسف لم تسر الأمور كما تسير الأماني.

بدأت «مكتوب» في التحول إلى بوابة إلكترونية، تكاد تشبه خارجياً بوابة «ياهو»، مع اختلاف في مستوى المحتوى. فقدمت آنذاك خدمتها «كاش يو»، كلفتة عبقرية أخيرة، ثم اكتفت

* مستشار في الإعلام الاجتماعي وتطوير المواقع من المغرب

بتقديم نسخ من خدمات عالمية ناجحة، وشراء عدد من المنتديات العربية الشعبية.

وحتى نكون منصفين ينبغي أن نشير إلى أن موقع «مكتوب» جماهيري جداً في الدول العربية وأن ثمة الكثير من المحتوى الجيد كان متناثراً في أرجاء بوابته. لكنك ستكون محظوظاً جداً لو استطعت إيجاده والوصول إليه!

الدوافع إلى الصفقة

قبل الصفقة وبعدها، كان الكثيرون يبدون استغرابهم: ما الذي يجذب «ياهو» لشراء موقع مثل «مكتوب»؟

كعادة «مكتوب» التي لا تفصح عن قيمة صفقاتها، لا يعرف حتى الآن بشكل رسمي قيمة استحواذ «ياهو» على بوابة «مكتوب». غير أن مصادر إخبارية قريبة من «ياهو» تشير بأن قيمة الصفقة بلغت 85 مليون دولار أمريكي!

فرحة لا يحاول أحد إخفاءها من إتمام هذه الصفقة الأولى من نوعها عربياً، وكذلك لا يحاول البعض إخفاء دهشتهم: هل تستحق «مكتوب» هذا المبلغ؟ ماذا ستفعل «ياهو» بالمواقع التابعة لبوابة «مكتوب» والتي يطغى على بعضها طابع التكرار؟

هذا هو السؤال المحوري: ماذا ستفعل «ياهو» بمواقع «مكتوب»؟

أولاً هناك ملاحظة: صفقة ضم «مكتوب» إلى «ياهو» شملت فقط البوابة «مكتوب.كوم»، والخدمات الفرعية التابعة لها على نفس النطاق، إضافة إلى خدمة أبحاث مكتوب. أما الخدمات الأخرى المستقلة، مثل: سوق، كاش يو، عربي، خدمة الإعلانات، الألعاب، فهي خارج الصفقة.

بعبارة أخرى، لم تشتر «ياهو» سوى الفتات. أما الخدمات الأفضل لدى «مكتوب»، فقد احتفظ بها المؤسسان وباقي الشركاء، وجمعت في شركة جديدة رأسمالها 20 مليون دولار، اسمها «مجموعة جبار للإنترنت».

وحسب النشرة الصحفية، فإن الهدف من الصفقة هو دخول «ياهو» السوق العربية، وتوفير نسخ عربية من خدماتها (البداية ستكون بخدمتي البريد والماسنجر). أي إن هدف «ياهو» من الصفقة هو أقرب إلى شراء فريق «مكتوب» لتنفيذ عمليات تعريب خدمات «ياهو».

لكن كان بإمكان «ياهو» تكوين فريق خاص في الشرق الأوسط لتعريب خدماتها عوض صرف سيولتها في مثل هذه الصفقة. فلماذا اهتمت بـ «مكتوب»؟

نعم، كان بإمكان «ياهو» تكوين فريق جديد وجيد. لكن أحياناً تكون العلامة التجارية أهم من ذلك. وهذا ما صرح به كيث نيلسون، نائب الرئيس المسؤول للأسواق الصاعدة لدى «ياهو»، بقوله: «تقوم «ياهو» بشراء «مكتوب.كوم» لعلامته التجارية القوية وجمهور المستخدمين الذي جمعه، والذي باعتقادنا هو الأكبر في المنطقة».

إذ ما الحاجة إلى مشكلات تكوين فريق وخوض منافسة مع «مكتوب»، طالما أن بالإمكان شراء «مكتوب» نفسها، بمبلغ معقول جداً؟.

مستقبل الويب العربي

قد لا نتفق جميعاً حول مدى الفائدة التي قدمتها شركة «مكتوب» للمستخدم العربي، وقد لا نصل إلى اتفاق واحد حول ما ستفعله «ياهو» بالمواقع التابعة لبوابة مكتوب. لكن بكل تأكيد، لن تجد من يختلف حول قيمة هذه الصفقة وأهميتها للويب العربي.

فقد بات لدينا الآن نموذج لشركة تقنية عربية ناجحة. وهذا ما سيفك عقدة المستثمرين العرب غير المتحمسين للاستثمارات ذات الصلة بمواقع الإنترنت من جهة، ومن جهة أخرى سيفتح شهية مستثمرين أجانب لدخول السوق العربية.

كذلك، كما نعلم كلنا، تعتبر «ياهو» إلى جانب ميكروسوفت منافساً كبيراً لجوجل. والآن بهذا الدخول القوي لـ «ياهو» إلى المنطقة العربية، سوف تزداد حدة المنافسة بين «جوجل» و«ياهو» للسيطرة على نصيب أكبر في المنطقة، وهو ما سيعود، بشكل أو بآخر، بالنفع على المستخدم.

وستسهم المنافسة أيضاً في إثراء المحتوى العربي على الويب، وهي بالتالي فرصة للشركات التجارية في دخول سوق التنافس على المساحات الإعلانية على المواقع العربية.

لن يحدث التغيير بين ليلة وضحاها، لكن من المؤكد أن صفقة استحواذ «ياهو» على «مكتوب» ستفتح الباب على مصراعيه أمام التغيير والتحديث، ما لم تخلف الشركات العربية موعدها مع التاريخ مرة أخرى!

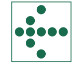
كيف يستكشف علماء الجيولوجيا الزيت والغاز

خريطة النفط ترسمها الصخور





يشكِّل استخـراج النفط الفصل الأخير من حكايـة هذا المورد التي بـدأت فـي باطن الأرض قبـل نحو 400 مليون سنـة. وكما هو الحال بالنسبـة لكافـة العلـوم وحقول المعرفـة، يشهد البحـث عن النفط واستخراجه تطوراً مستمراً يأخذنا اليوم بعيداً عن الوسائل والجهود التـي بذلت قبل ثمانية عقود من الزمـن لاستكشاف مواضع النفط في المملكة ورسم خريطته. لاري سيجل عرض في موضوع نشرته مجلـة دايمنشنـز «Dimensions» التـي تصدرهـا أرامكـو السعودية باللغـة الإنجليزية، التطورات التي شهدها عالم التنقيب عن الزيت والغـاز، والوسائـل المعتمدة لرسم خريطة المكامـن القابعة عميقاً تحـت سطح الأرض، حيث لا تراها عين، ولا يصل إليها إنسان. وهنا ترجمة لأبرز ما جاء في الموضوع.



النفط مـورد شبه سحري، وعلمـاء الأرض هم الذيـن يدلُّوننا على مخبئه تحت طبقـات سميكة من الرمال والصخور. هـذا النفط، ما إن يخرج من باطن الأرض حتى يحقق للإنسان الكثير من الأمنيات.

فالنفط، فـوق أنه مصدر بنزين السيـارات والديزل ووقود الطائرات النفاثـة والنفثا والبتروكيميائيـات، يوفر المادة الأولـى لعـدد كبيـر مـن المنتجـات المشتقة منـه، ومنها المخصبـات والمـواد الصيدليـة والبلاستيـك والمطـاط الصناعـي والمئات من مـواد البناء الأساسيـة والمنتجات الاستهلاكية الأخرى.

ولا تكف أرامكو السعودية عن التنقيب عن مزيد من النفط. فمنـذ أشهـر عقـد مركـز البحـوث والتطوير فـي الشركة ما سمـي «مصنع أفـكار»، وطلب مـن العلمـاء المجتمعين أن يبحثـوا عـن أوجـه استخـدام غيـر تقليديـة للمنتجات الهيدروكربونيـة. فخرجـوا بحصيلـة وافـرة مـن الأفكار، تراوح بين تطوير ألياف كربونية وتصنيع مركّبات كيميائية للأدويـة. ولأن طبيعـة تركيب النفـط بالغة التنـوع، يبدو مستقبـل أرامكو السعوديـة في صناعـة الهيدروكربونيات، مشرقاً للغاية.

ويستنـد هـذا المستقبـل إلـى أساس متين مـن التقنيات والأساليـب التي طورتهـا الشركة، على مـدى عمرها البالغ اليـوم 76 سنـة، لاستخلاص أفضل ما يمكـن استخلاصه مـن النفط وأبـواب استخدامه. فشبكة البنيـة التحتية التي أنشأتهـا تمتد على مساحـة شاسعة في البر والبحر، وتشمل المنشـآت وخطوط الأنابيـب ومعامل هائلة لفـرز الغاز من الزيـت والمصافـي الضخمـة والناقـلات العملاقـة. وهي جميعـاً مظهـر صـادق يُبيِّـن طريقة عمـل أرامكـو، إنتاجاً ومعالجة وتحويلاً ونقلاً لجميـع المنتجات الهيدروكربونية. لكن..

يخطـئ مـن يظـن أن صناعـة الهيدروكربونيـات ثابتة في مكانهـا، ففي كل يـوم أفق جديـد ينفتـح، إذ إن العلوم في أحـدث مكتشفاتها هي المحرك الأول لهـذه الصناعة. ولا تتخلف أرامكو السعودية فـي هذا عن الطليعة يوماً. وتتولى هـذه المهمة الحيوية في وضع الشركـة ومستقبلها، إدارات وأقسـامٌ عـدة، ولا يمكـن للمـرء إلا أن يقف مندهشـاً أما شاشـات العرض الهائلة في إدارة تخطيـط وتنظيم توريد الزيـت وطريقـة إدارتها للعمليات في الشركـة، إضافة إلى البحـوث التي تقـوم بها الشركـة من خلال الأبحـاث التي تنفذهـا فـي مراكز البحـوث والتطوير في الشركـة، والتي تخطو خطوات مثيرة في علم تقنية النانو، وإدارة الكربون، وحتى في التقنية البيولوجية.

مـا كان كل هذا الجهد ممكناً، لو لـم يُبدِ «صيادو الصخر» براعتهـم فـي سبـر أعمـاق التربـة والطبقـات الأرضية، لتعييـن مواضع الحفر والاستكشـاف التي يُحتمل أن يجدوا فيها حقـولاً تحتوي على النفـط بكميات تجاريـة. وصيادو الصخر هـؤلاء اسمهم العلمـي: «الجيولوجيون». وقد كانوا في المملكـة أوائل الذين يمكن أن نصفهـم بأبطال ملحمة النفـط السعودية. ولا نبالغ إذا قلنا إنهم أحدثوا أثراً بالغاً، ليـس في المملكـة وحدها، بل في العالم أجمـع. فقد تمكّن هـؤلاء بمثابرتهم وعلمهم الواسع بطبقـات الأرض، من أن يضعوا المملكة في مقدمة دول العالم باحتياطها النفطي.


صور المقال: أرامكو السعودية

فكيف حدث هذا، وكيف يسبر هؤلاء باطن الأرض؟

«تكوين» الزيت والغاز

إنهـا قصـة طويلة، بـدأت منذ ما يقـارب 400 مليون سنة. ويـكاد ظهور النفط والغاز في باطن الأرض أن يكون مسألة صدفـة أو حظ. ذلك أن الظـروف الضرورية لتشكّل المواد الهيدروكربونيـة، لا بد من أن تكون ظروفاً «مثالية»، لا نفط ولا غـاز من دونها. وهـي إذن ظروف «صعبـة» الاتفاق. ولا بـد من اجتماع المواد العضويـة المناسبة مع أنواع الصخر المؤاتيـة، في هامشـ حرارة ضيق، لا تزيـد درجته ولا تقل عن نطاق معيّن، يـراوح بين 80 و140 درجة مئوية، أي بين 176 و284 درجة فهرنهايت.

ومن حسن حظ المملكة أن تاريخها الجيولوجي كان «مثالياً» لترسّب مقاديـر هائلة نسبياً من المـواد العضوية، ولا سيما الطحالب التي تُسهّل كثيراً «الطبخة النفطية». وخلافاً لبعض المعتقـدات الشعبية الشائعـة، لم تكن بقايـا الديناصورات والكائنات الحية الكبيرة من مستلزمات هذه الطبخة.

لقـد حـدث هـذا التكوُّن حيـن كانت البـلاد في موقـع آخر تماماً علـى الكرة الأرضية، إذ كانت جـزءاً من قارة قديمة للغايـة، يسميهـا العلمـاء: «جوندوانـا» (Gondwana). كانت المملكـة آنذاك في مكان القطـب المتجمد الجنوبي، وقد تحركت صفائـح القشرة الأرضية فنقلتهـا إلى موقعها الذي نعرفـه اليوم. وكانـت كل المكوِّنات اللازمـة متوافرة لها. فمع المقاديـر الهائلة نسبياً من المواد العضوية، كانت التركيبة الجيولوجيـة المناسبة أفضل مطبخ وأنسب مرجل لإنتاج الهيدروكربون، فيمـا كان الضغط الباطني والحرارة مناسبيـن تماماً لتحضير «الحسـاء» النفطي، تحت طبقات أرضية محكمة الغلق، حفظته ملايين السنين، وكأنه في قِدر مقفلة. لقد كانت الأرض السعودية في ذلك الزمن، حلم كل «طباخ» ينوي إعـداد طبخة نفطية. ومع طهو بطيء استغرق ملايين السنين، ها هو الطبق الآن أصبح جاهزاً: النفط.


معاينة الصخور..
مجرد مرحلة

التكنولوجيا المتطوِّرة في الخدمة

بعدما اعتمد المستكشفون الأوائل على أدوات معدودة وفي غاية البساطة لإنجاز ما أنجزوه، يستخدم المستكشفون اليوم عدداً كبيراً من التقنيات المتطورة لجمع المعلومات عن المنطقة التي يبحثون فيها عن النفط والغاز.
وتشمل هذه الوسائل على سبيل المثال لا الحصر الصور الملتقطة بالأقمار الصناعية، ومن الطائرات لتحديد الخريطة الجيولوجية السطحية، وأجهزة المسح الزلزالي الخاصة بكل بيئة على حدة (إذ تختلف ما بين البر والبحر) لرسم خرائط ثنائية وثلاثية الأبعاد لمكامن النفط والغاز، وأجهزة مسح زلزالي رباعية الأبعاد لإدارة المكامن وتعزيز الإنتاج حتى أقصى حد ممكن، وأجهزة مسح زلزالي محمولة على السفن للتنقيب البحري .. وغير ذلك الكثير إضافة إلى تطور العلوم المخبرية التي تخدم دراسة لب الصخر التقليدية الهادفة إلى تحديد نوعية الصخور ومدى مساميتها، وغناها بالنفط من خلال كثافة البقايا الأحفورية فيها.

بعض الاختصاصات المطلوب تضافرها

تضم فرق التنقيب عن النفط والغاز اليوم عدداً من أصحاب الاختصاصات المختلفة، يفوق إلى حد بعيد العدد الذي كان متوافراً في العقود الأولى من القرن العشرين.
ومن الاختصاصيين في هذا المجال، نذكر:

- **اختصاصي إجراء المسح الزلزالي: الذي يخطط ويشرف على فرق المسح الثنائي والثلاثي الأبعاد.**
- **معالج المسح الزلزالي: الذي يعتمد على الرياضيات والكمبيوتر لمعالجة المسوحات الزلزالية والثلاثية الأبعاد.**
- **عالم الأرض: الذي يحلل معطيات المسح الزلزالي لرسم صورة ثلاثية الأبعاد للموقع.**
- **اختصاصي الجاذبية والمغناطيسية: يعتمد على دراسة الجاذبية والمغناطيسية الكهربائية للتعرف إلى خصائص الصخور تحت سطح الأرض.**
- **محلل معلومات الآبار: يدرس ويقيس الخصائص الفيزيائية للصخور في الآبار الاختبارية.**
- **جيولوجي نفط: ذو دور عام في كل أوجه الاستكشاف والإنتاج.**
- **جيولوجي موقع الآبار: يدرس عينات الصخور من الآبار.**
- **الحفار: مسؤول عن عمليات الحفر، ويتمتع بأهلية التصدي لأية مشكلة قد تواجهه.**
- **متخصص ومدرِّب برامج الكمبيوتر: متخصص في برامج الكمبيوتر الخاصة بالاستكشاف، ويدرِّب الآخرين على استخدامها.**
- **مطوِّر برامج علوم الأرض: ينتج برامج تساعد على استكشاف المواد الهيدروكربونية.**
- **مساح: يحدد المواقع السطحية والمسافات والزوايا، لرسم خريطة دقيقة للآبار ومواقعها.**
- **رسام خرائط: ينتج خرائط تمثل الأرض على مساحات مسطحة.**

ومثلما يحتاج الكعك إلى ثلاثين دقيقة، والديك الرومي إلى ساعات أربع من أجل بلوغ النضج، كذلك تختلف أنواع الهيدروكربونات حتى تصبح جاهزة. وتختلف أيضاً طبخات كانت في الأصل متشابهة، إذا كانت ظروف الضغط والحرارة والحاضن الصخري مختلفة. فحينئذ تتباين جودة النتاج، وربما طبيعته أيضاً. ويستطيع علماء الجيولوجيا أن يتكهنوا بطبيعة الهيدروكربون الذي يتوقعون العثور عليه، من دراستهم لطبيعة الصخر وعمره. وقد كان سر مهنتهم على الدوام، أن يتوصلوا إلى معرفة طبيعة الصخر وعمره، ليأمروا بالحفر أو يُشيحوا عن المكان، إلى غيره.

يستطيع علماء الجيولوجيا أن يتكهنوا بطبيعة الهيدروكربون الذي يتوقعون العثور عليه.. ومن دراستهم للصخر، يأمرون بالحفر، أو بإشاحة النظر عن المكان إلى غيره

كيف بدأت القصة؟

قصة اكتشاف النفط في المملكة معروفة الآن. كان الجيولوجيون قد اكتشفوا حقولاً في مصر وإيران والعراق والبحرين، واستطاع أحدهم، وهو ينظر من البحرين صوب السواحل الشرقية في المملكة، أن يتكهن بثقة، بأن هناك احتمالاً قوياً للعثور على النفط هنا. كان ذلك في ثلاثينيّات القرن العشرين. لقد علموا بالأمر من تشابه التكوين الجيولوجي في كل من البحرين وسواحل المنطقة الشرقية في المملكة. إنهم يسمونه في علم الجيولوجيا: الطية أو التكوين المحدب، وهو عبارة عن طبقات مقوسة من الصخور، ناتئة تحت سطح الأرض وأحياناً فوق السطح، يكثر وجوده في الخليج العربي وسواحله. وهو مثالي لتجمع الهيدروكربونات، ففيه صخور مسامية تشبه الإسفنج يمكن أن تختزن الزيت أو الغاز. وكان اكتشاف هذه التكوينات أو التركيبات البنائية، بمثابة بشير أنبأ الخبراء بإمكانية وجود الزيت. وقد أصاب حدسهم، وأيما إصابة.

لكن الأشهر الأولى كانت مضجرة للغاية ومتعبة جداً للجيولوجي الأول ماكس ستاينكي وفريقه. كانوا يحفرون بئراً بعد بئر من دون نتيجة تُذكر. وعندما حفروا البئر السابعة، بدا الأمر للوهلة الأولى وكأنه لا طائل تحته، لكنه سرعان ما تحوّل إلى إعلان حقيقي لولادة الملحمة النفطية السعودية.

لقد كان ستاينكي وفريقه الجيولوجي من الرجال الأشداء المغامرين الذين واجهوا الصعاب وخاطروا أحياناً بحياتهم في مراحل الاستكشاف الأولى. فالمنطقة التي عملوا فيها آنذاك كانت في معظمها مساحات شاسعة غير مأهولة، يصعب العيش فيها، فما بالك بالعمل الشاق والتجوال والتنقيب تحت الشمس. لقد كانت الحرارة شديدة والعواصف الرملية تلفح الوجوه والأبصار في صحارى قفر بعيدة عن العمران. وكان عليهم في هذه الظروف أن يعثروا على دلائل تبعث على الأمل، وتكوينات صخرية وطيات محدبة تشير إلى إمكانية وجود الزيت، ليجرِّبوا حظهم بالحفر، لعل بعض الزيت يتدفق إلى السطح، من عمق ألوف الأقدام. ولم يكن غريباً عليهم أن يسمّوا باطن الأرض: مطبخاً، لأن

البحر الأحمر: الأفق الجديد لأرامكو السعودية

تختلف المنطقة الغربية المطلة على البحر الأحمر في المملكة العربية السعودية، من الناحية الجيولوجية كثيراً عن المنطقة الشرقية.

فهي تنطوي على تحديات فريدة، منها عمق المياه البالغ (أعمق من كيلومترين في بعض الأماكن)، والحرارة المرتفعة، والبراكين في قاع البحر، وصفائح البازالت الحديثة التكون، في بعض المناطق الوسطى في البحر، والجيولوجيا الشديدة التنوع، وطبقات الملح التي قد تبلغ سماكتها 7000 قدم، تحت قاع البحر، وتشكِّل نوعاً من عدسة تشوه صورة المسح الزلزالي، إضافة إلى تشكُّل جيولوجي فريد (في الصفائح التكتونية).

كذلك في البحر الأحمر ما يزيد على 180 ألف كيلومتر مربع، لا توجد بها آبار محفورة، لذلك لا يستطيع فريق الاستكشاف فيها أن يعيّروا قياسهم للمعلومات.

لقد أنشئ فريق الاستكشاف في البحر الأحمر سنة 2006م، ولديه الآن معلومات زلزالية عن أكثر من 22 ألف كيلومتر مربع هناك. ولدى الفريق أيضاً، معلومات عن قوى الجاذبية والمغناطيسية لمساحة تبلغ 220 ألف كيلومتر مربع. وهو يستخدم صور الأقمار الصناعية. وبتشبيك كل هذه المعلومات، يستطيع الفريق أن يكوّن صورة عن جيولوجيا قاع البحر.

والخطة هي حفر آبار في البحر الأحمر، لكن هذا يقتضي أولاً كثيراً من العمل. والهدف الأول هو وضع خريطة زلزالية دقيقة ثلاثية الأبعاد، في منطقة أو أكثر، تحظى بالأولوية.

ومع هاتين الوسيلتين، بدأ استخدام وسائل تكنولوجية حديثة للغاية، أو بدأ التقييم من أجل استخدامها. ومنها دراسات قياس الانبعاث الحراري في قاع البحر، واستخراج عينات أسطوانية بالمسابر، من تربة القاع، لتحليلها من الناحيتين الجيولوجية والكيميائية. كذلك هناك وسائل كهرومغناطيسية بحرية قيد الاستخدام. وسيحصل فريق الاستكشاف على خريطة جرف البحر الأحمر من الجانب السعودي، لفهم تركيبة الصفائح التكتونية في البحر الأحمر.

يُعد البحر الأحمر مخاطرة كبيرة وينطوي على احتمال مكافأة كبيرة أيضاً، في جهود الاستكشاف. وقد رصدت أرامكو السعودية موازنة كبيرة، لدراسة هذا الجزء المثير والصعب من المملكة العربية السعودية.





وسائل التنقيب البسيطة في البدايات

النفـط يتكون من الكائنات الحية المدفونة في باطن الأرض والتي تحللت إلى زيت وغاز بفعل الضغط والحرارة.

كان يمكنهـم، أن يتكهنـوا باحتمـال وجـود النفـط، أثنـاء الحفـر، من خلال معرفـة درجة خشونـة الصخر. ولكنهم كانـوا كذلـك يستدلـون على وجـود النفط بلـون الصخر وبرائحته. وقـد مضوا شهراً بعد آخـر، يمسحون المناطق، ويسجّلون كل شاردة وواردة، فأنشـأوا خرائط جيولوجية دقيقة لهـذه السواحل، ووضعوا سجلاً كاملاً لكل صخور المنطقـة وتضاريسها. وجمعوا نمـاذج الصخـر والأحافير. وفـي النهاية، كانـت خبرتهم العظيمة بالشروط الملائمة لتكوُّن النفـط، هي التـي أهدتهم، مع طول العنـاء والمسعـى، إلـى أفضـل المواقـع الواعدة. وهناك حفروا، ولم يكن حفرهم مثمراً لولا الدأب والإصـرار والمحاولـة تارة بعـد أخرى، والمعـاودة بعد كل فشل.

نسبة الإصابة الموفقة في الحفر والعثور على نفط أو غاز تفوق اليوم 50%، وهي نسبة مدهشة حين تقارن بالأداء في الماضي

لقد حفروا كثيراً من الآبار الجافة، لكن القليل الذي وجدوه من الآبـار المشجعة كان كافياً ليبعـث فيهم روح التصميم على المتابعة.

أين أصبح التنقيب؟

فـارق كبير بين التنقيب في الزمـن الأول، والتنقيب اليوم، فعلـى الصعيـد البشـري، يعمل فـي جيش التنقيـب اليوم، طيف واسـع من الخبراء، مـن أبواب اختصاص متنوعة. فالذين نسميهـم اليوم علماء الأرض (Geo Scientists) يؤدون العمل الذي كان يؤديه الجيولوجيون (Geologists) والجيوفيزيائيـون (Geophysists) في الماضي. وهو جمع المعلومـات وتصنيفهـا وتقويمهـا. لكن مقارنـة المهنتين تنتهي هنا. فوسائل جمع المعلومات اليوم، وأساليب تحليلها وصرامـة المراحل المتّبعة في هذا، بعيدة بعداً شاسعاً عما كانت من قبل.

لا تـزال ثمـة حاجـة إلـى معرفـة دقيقـة لتكوُّن الصخور والتغيـرات التـي تطـرأ عليهـا فيما بعـد. لكـن المعلومات التـي تتوافـر بالوسائـل الحديثـة عـن الصخـور اليوم، لا يستطيـع أن يحيط بهـا بشر لولا النظـم الرقمية والبرامج الإلكترونية التي كثيراً ما تطوّرها أرامكو السعودية بنفسها، لحاجـة معيَّنة. وهي برامج بالغـة السرعة شديدة التعقيد. وعلـى علماء الجيولوجيـا أن يتداولوا فـي أبحاثهم مقادير هائلـة من المعلومـات في آن. في هـذا المحيط الهائل من المعلومـات، لا يمكنهم العثور بسهولة على آبار مشجِّعة، إلا باستخدام تلك الوسائل الحديثة، من الحواسيب والبرامج. أمـا المرحلـة التاليـة في التنقيب عـن النفـط فتنتقل إلى علمـاء في تخصصـات مختلفة لتبادل المعلومـات ولإبداء الآراء. وهذه المرحلة حيوية للغاية، فعند تطوير ملف يضم الفرص الواعـدة، فإنه يتحتـم أن يمر هـذا الملف بعملية تقييـم دقيقة، ليتمكن المنقبون من اختيـار أفضل المواقع التـي تحتوي على أقـوى احتمال للعثور علـى النفط.وبذلك تصل عملية البحث إلى الخطوة الأخيرة، وهي الحفر.

وفـي أعلى مراحـل اتخاذ القـرار التقني، تصـل المعلومات إلـى فريـق التخطيـط الاستراتيجـي، ويسمـى بالإنجليزيـة «SPOT»، وهي تعني بالعربية: النقطة، لكنها اختصار العبارة الإنجليزية التي تعني: فريق التخطيط الاستراتيجي والترشيد (Strategic Planning and Optimization Team).

ينظـر الفريق في المعلومات مدققاً، ومقـدراً السبيل الذي اتبعـه الخبراء للوصـول إليها، فيُفتون فيمـا إذا كانت هذه المعلومـات كافيـة أم لا. وبنـاء عليه يأمـرون بمتابعة جمع المزيد مـن المعلومات ، ويعينون مجـال النقص المطلوب سـده. ثم ينسقون كل المعلومات معاً، ليروا صورة متكاملة، ويزنـون الاحتمـالات والمخاطر والتكاليف التـي قد تترتب على الحفر.

إن غرض هـذا التمحيص الدقيـق هو تجنـب الحفر غير



..والاعتماد على أحدث البرامج والأنظمة اليوم

المجـدي، أو تقليل حدوثه، يقول علي الحـواج، مدير إدارة التنقيب فـي منطقة الظهران، إن نسبـة النجاح في الحفر والعثـور على نفـط أو غاز، تفـوق اليـوم 50%. وهي نسبة مدهشـة، حيـن تقارَن بـالأداء فـي الماضي، بـل انها تثير دهشـة خبـراء التنقيب أنفسهـم. ويضيف الحـواج قائلاً: «يعـزى هذا إلـى تضافر خبـرة علمائنا وضخامـة الموارد السعودية غير المكتشفة بعد».

صناعة التنقيب

حتـى وقت قريـب، كانـت أرامكـو السعوديـة تستكشف في مناطق معيَّنـة داخل المملكة. أما اليوم فيشمل الاستكشاف كل أراضـي المملكـة، ويمتـد إلـى الخليج والبحـر الأحمر. ويـرى الحواج أن أرامكو السعودية: «بلغت الآن أعلى مستوى استكشاف على الإطلاق، إذ يشمل التنقيب أراضي أوسع من أي وقت مضى». ويضيـف قائلاً: «المثير للاهتمام أن بعض المناطق المستكشفة اليوم، تختلف اختلافاً تاماً من الناحية الجيولوجيـة، عـن مناطق التنقيـب التقليدية فـي المملكة. فالاستكشـاف فـي البحـر الأحمر يبـدو في الحقيقـة كأنه استكشاف في بلد آخر. فهو من الناحية الجيولوجية مختلف تمامـاً». ولا يزال العثور على حقول جديـدة مستمراً، ويؤكد الحواج: «أن الشركة وضعت خطة لإضافة سنوية جديدة إلى إنتاج النفط والغاز، وفي كل مرة نتخطى المقدار المنشود». وقد نجحت الشركة كذلـك في تخطي الزيادة التي تنشدها في احتياط النفط والغاز. ولا تزال تعثر على المزيد منهما، لكنها تتحفظ في تقدير مجموع احتياطها.

المسألة هي: نحفر أو لا نحفر؟

يوفر فريق التخطيط الاستراتيجي مستوى عالياً من الأمان لمشاريع الحفر. ولكن كيف تقرِّر الشركة أن تحفر بئراً جديدة؟ فكل مشروع حفر قد يكلّف أكثر من 10 ملايين دولار، وقد يستغرق سنوات عشر ليصبح مجدياً، من الناحية التجارية. إن الضغوط لاتخاذ القرار السليم هائلة. ولهذا تستهلك جهود الاستكشاف مقداراً ضخماً من المعلومات، بوسائل شديدة التطور في البحث عن النفط والغاز. وأخيرا، تُحول فرق الاستكشاف الموزعة على عدد من المناطق، المعلومات المتوافرة لديها إلى معلومات مفيدة يمكن استخدامها في التنقيب. ويضع محللو هذه المعلومات مواقع على الخريطة، يرشحونها للحفر، ويقيسون احتمالات وجود النفط فيها بكميات تجارية. ثم يعدون مقترحاً يشرحون فيه حيثيات توصيتهم بالحفر.

يتكون فريق التخطيط الاستراتيجي للحفر، من خمسة خبراء جيولوجيين من ذوي الخبرة، التي لا تقل عن عقدين في الاستكشاف حول العالم. ومهمتهم مراجعة توصية كل مشروع حفر.

يقول أحد هؤلاء الخبراء: «لا نراجع من أجل محاسبة المحلل في مهنته، بل نزن فقط رجاحة حججه من أجل بلوغ قرار صائب للعثور على ما يكفي من الهيدروكربون، لتعويض ما استُخرج وإضافة مخزون، تنفيذاً لخطة الشركة وأهدافها. ومهمتنا كذلك أن نسهِّل عمل المحلل ونحن نراجع توصيته. وكثيراً ما نوصي بتبديل أو بطلب مزيد من المعلومات، من أجل تحسين الاحتمال. لا تنسوا أننا نعمل من أجل العثور على نفط جديد، ولذا لا نود أن نرفض التوصيات الصحيحة. وننظر إلى التوصيات بعين التفاؤل»، ويضيف قائلاً: «علينا أن نقتنع بدقة القياس للاحتمالات والمخاطر مع كل توصية بالحفر. وننظر إذن في نسبة النجاح في العثور على النفط أو الغاز، وما هي سعة الحقل المستكشف، وذلك كجزء من مهمة الفريق كي تكون لدى المملكة أوفى المعلومات قبل البدء بالحفر».

بعدئذ توضَع كل التوصيات في برنامج طورته أرامكو السعودية، اسمه: «بال»، يزن كل عنصر من عناصر المعلومات في كل توصية، وتحال النتيجة على معيار محاكاة يعطينا حساب المخاطرة، في شأن وجود النفط وفي شأن حجم المخزون المتوقع. ويرتبط برنامج بال بمجدول للحفر. فمثلاً حين يكون لدينا مشروع حفر ينبغي استبداله، يعمل البرنامج الحاسوبي لتحديث ميزان الاحتمالات والمخاطر، من أجل اتخاذ القرار السليم بالحفر في الوقت المناسب، بناءً على المعلومات المخزونة في شأن كل المواقع التي استُكشفت. ويطلع مديرو التنقيب كل يوم على هذا التحديث، في اجتماعهم لاتخاذ قرارات الحفر.

لكن مع كل المعلومات التي تُجمَع قبل الحفر، إلا أن المناطق الجديدة تظل عالية المخاطر، يقول خبير آخر: «البحر الأحمر منطقة عالية المخاطر، بطبيعتها، لأننا لم نبدأ بعد الحفر هناك. أما الحفر في منطقة منتجة، فمخاطره تكون أقل. لكن المخاطر العالية ليست سيئة بالضرورة، فقد تحتوي بعض المناطق المصنفة ذات مخاطر عالية، على احتياطي نفطي ضخم. وقد نحفر آباراً جافة في البدء، ثم نحرز نجاحاً كبيراً بعدئذ».

إن سر نجاح أرامكو السعودية في جهود الاستكشاف، هي جمعها ذوي الخبرة، مع أحدث المعدات، وأوسع قاعدة معلومات ممكنة، من أجل العثور على القرار السليم، في كومة هائلة من المعلومات.



الإعلان الإلكتروني

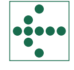
كيف يُعمل وكيف يَعمَل؟

Stock.xchng



بخلاف الإعلان المطبوع، وحتى الإعلان الإذاعي أو التلفزيوني، يبدو الإعلان الإلكتروني على شبكة الإنترنت صناعة مختلفة جملة وتفصيلاً. وهذه الصناعة الفتية جداً، عمرها من عمر الإنترنت إن لم تكن أصغر ولو بأسابيع معدودة فقط، أضحت اليوم تجارة عالمية تقودها «غوغل» -كبرى آليات البحث الإلكتروني- وتجني معظم أرباحها.

وجواباً عن السؤال حول حقيقة هذا الإعلان الذي يقفز أمامنا على شاشة الكمبيوتر عندما نروح نبحث عن موقع معيَّن، والسياسة التي تقود إنتاجه ونشره وحتى جدواه، يعرض فادي خوري* آلية العمل الخاصة بالإعلان الإلكتروني، المزعج حيناً والمثير للاهتمام حيناً آخر، وأنواعه المختلفة وأهم التحديات التي تواجه صناعته حالياً.



يكاد يكون الاختلاف ما بين الإعلان الإلكتروني والإعلان المطبوع أن يكون في حجمه، وليس نوعه.

فالشروط التي تتحكم بصناعة الإعلان الإلكتروني تختلف تماماً عن تلك التي تتحكم في غيره من وسائل الإعلان. ولكي نفهم هذه الشروط والظروف من الضروري أن نتعرف أولاً على أطراف هذه التجارة، وما تكون جردة البضاعة فيها. وعلى مستوى إجمالي، يمكن وصف هذه الأخيرة على النحو التالي:

إن كل التجارات التي تبيع أشياءً (عدا تلك التي «تبيع» خدمات) لديها جردة، أو قائمة ببضاعتها. في حال المواقع الإلكترونية، تختلف جردة البضاعة عن تلك الخاصة بباقي التجارات (جردة بضاعة السوبرماركت مثلًا)، لا سيما في كيفية احتسابها. ولنأخذ مثالاً مبسطاً عن صفحة إلكترونية على موقع تقليدي، ونفترض أن هناك رقعتين ممكن وضع الإعلانات فيهما (في الأعلى وعلى اليمين مثلاً)، وأن هناك 10 آلاف زائر يدخلون الموقع يومياً. سوف يحتسب ناشر الموقع جردة البضاعة على الشكل التالي: 2 × 10000 = 20000 يومياً.

* أخصائي تصميم برامج كمبيوتر

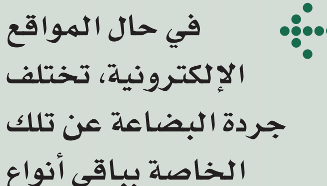
هناك أنماط مختلفة يمكن اتباعها للاستفادة من هذا الرقم، والأكثر شيوعاً بينها يُدعى بانطباع الإعلان. ويمثِّل الانطباع الفرصة المتاحة لوضع الإعلان في مرأى المتصفح. من دون أن يضمن أن المتصفح قد رأى الإعلان بالفعل، ولكنه يعني أن الفرصة سنحت ليحصل هذا الأمر. في مثالنا الوارد أعلاه، يمكن القول إن مالك الموقع الإلكتروني لديه 20 ألف انطباع ليبيعه، أما وحدة البيع فتكون عادةً الألف، ومن هنا تكون التسعيرة هي «السعر بالألف»، أو الـ CPM بالإنجليزية (CPM هي Cost Per Thousand، وقد اختُصرت كلمة thousand بحرف الـ M لأنه يرمز للرقم ألف في الأعداد الرومانية).

ووحدة الـ «CPM» هي الوحدة المعتمدة للانطباعات، وهي الوحدة الأكثر رواجاً، إلا أن هناك أيضاً «التسعير بالنقرة» و«التسعير بالعملية»، وهاتان التسعيرتان تأتيان منطقياً بعد الانطباع؛ «النقرة» تعني أن الإعلان قد أثار اهتمام المتصفح بما فيه الكفاية لينقر على الرابط (وهذا يأخذه بدوره إلى الموقع الإلكتروني المعلَن عنه، حيث سوف يجد مزيداً من المعلومات)، بينما «العملية» تعني أن المتصفح قد ابتاع بالفعل المنتج الخاص بالموقع الإلكتروني.

فيما يلي تعريفات مختصرة بأهم اللاعبين على ساحة الإعلان.

الناشر هو مالـك الموقع الذي يحتوي مساحةً ما للإعلان. قـد يكون الموقع هـذا موقعـاً إلكترونياً، أو خدمـةً إضافية تؤمنهـا الهواتـف الجوالـة، أو لعبة فيديو، المهـم أن يكون موصـولاً بباقـي الشبكـة العنكبوتية. فموقع جريـدة يومية معيَّنـة هـو مثـالٌ عن ناشـر، وذلـك لأننـا نجد فيـه رقعاً مخصصـة للإعلانـات. كذلـك الحال مع خدمـات هاتف الــ iPhone الإضافية، ومع لعبة الفيديـو بروجكت غوتهام (Project Gotham).. يجـدر بالذكـر أيضـاً أن مواقـع البحـث الإلكترونـي -كتلك التـي تملكها «غوغـل» و«ياهو» و«مايكروسوفـت» وغيرهـا- هـي جميعهـا مواقـع ناشرة، بمعنى أنها موجـودة على الشبكة العنكبوتيـة وتحتوي رقعاً مخصصة للإعلانات.

المعلـن هو أية جهة لديها بضاعة ترغب في بيعها، وبالتالي فـي عرضهـا علـى ملاييـن المستخدميـن علـى الشبكـة العنكبوتية. فشركات محركات السيارات مثلها مثل شركات المرطبـات وغيرهـا الكثير مـن الشركات الكبيـرة والصغيـرة، تنـدرج جميعها تحت عنوان المعلنين.



أما شركة الإعلانات فهي تلك التي تتواصل مـع المعلـن، والتـي تعمـل علـى توظيـف الميزانيـة الموضوعـة للإعـلان بأفضـل شكل ممكن، بحيـث يلقى أكبر نسبة ممكنة من الإقبـال. وتقوم شركة الإعـلان بشراء المساحات من النـاشر -أكان ذلك مباشرةً أو عبر الوسيط الإعلاني- وعادةً تأخذ حصة من الميزانية الموضوعة للإعلان.

والوسيـط الإعلاني هو جهة مسؤولة عـن شراء المساحات بأسعـار رخيصة مـن النـاشر، ومن ثم بيعهـا بأغلى للمعلن أو شركـة الإعلان. فيقوم هذا الوسيط بعقد صفقات شراء مـع عدد كبير من النـاشريـن، مكوناً بذلك جردةً كبيرة من الرقـع الإعلانيـة المختلفة الممكن بيعها بعـد ذلك. ويقوم الوسطـاء بدور وكلاء البيع لزبائنهم، ولذا غالباً ما يستفيد مـن خدماتهـم النـاشرون الأصغر حجمـاً، الذين لا يملكون ميزانيـة لتوظيـف وكلاء بيـع خاصين بهم. وهنـاك مئات الوسطـاء في السـوق الإلكتروني، منهـم «آد سنس» التابعة لـ «غوغل»، و«آد سنتر» التابعة لـ «مايكروسوفت» وغيرهما.

وشبكة الوساطة هي ببساطة جهة مسؤولة عن وصل الوسطاء الإعلانييـن مـع بعضهم البعض، فتسهل عمليـة بيع وشراء الرقع فيما بينهم، وبعض شبـكات الوساطة الموجودة حالياً تشمـل «آد إي سي أن» التابعة لمايكروسوفت، و«رايت ميديا» التابعة لياهو، و«دابل كلك إكستشاينج» التابعة لغوغل.

BUILT FOR THE
EVOLUTION OF
EQUITIES TRADING.
BUILT FOR THE
EXCHANGING WORLD.
Learn more about Equities
in the Exchanging World

حتى ضمن الإعلانات الإلكترونية يلاحظ المرء تفاوتًا طبقيًا، كمثل هذا الإعلان المصمم ليخاطب نخبة المجتمع الأميريكي

ولتبسيـط الأمور، يمكننـا القول إن المعلـن يخلق العرض، وأن النـاشـر يخلق الطلـب، فيما شركة الإعـلان والوسيط الإعلاني وشبكة الوساطة هم جميعاً وسطاء بشكل أو بآخر.

الأنواع المختلفة للإعلانات الإلكترونية

إن الإعلانـات الإلكترونيـة في حال تطور دائـم منذ انفتاح الشبكـة العنكبوتية على التجـارة، وفيما يلي بعض الأشكال المختلفة التي اتخذتها الإعلانات حتى الآن:

• الإعـلان الأفقي: والأرجح أنكم قد نلتـم حصتكم -وأكثر- مـن هـذه الإعلانـات أثنـاء تصفحكـم اليومي عبـر الشبكة العنكبوتيـة. النوع هـذا متواجد فـي كل المواقـع الإلكترونية تقريبـاً، وتنـدرج ضمنـه العديـد مـن التنويعات فـي الشكل والمضمون، إلا أن جميعها يتشارك وظيفة أساسية: إن نقرتم عليهـا، ينفتـح أمامكم الموقـع الإلكتروني المعلَـن عنه. هذا النـوع من الإعلانات هـو أول نوع ظهر بين الأنـواع الموجودة حالياً.

• الإعلان الجانبـي: ويُعرف أيضاً بالإعلان ناطح السحاب، ويمتـاز عن النوع الأول بعموديته، حيث قد يصل طوله إلى الـ 600 بكسـل وأكثر، فيما يقارب عرضه الــ 120 بكسل. تأثير هذا النوع أقـوى، وكذلك فاعليته في إيصـال رسالة المعلن إلـى المتصفح، ذلك لأنه لا يختفي حالمـا ينزل هذا الأخير إلى أسفل الصفحة الإلكترونية، بل يبقى إلى الجانب، أي في مرأى المتصفح، وهذا يزيد من فرص النقر عليه.

من أنماطه التي تزعجنا

• الإعلانـات القافـز والمتسلـل: الإعلان القافـز، كما يدل عليـه اسمه، يقفز فـي صفحـة إلكترونية خاصـة به حالما تدخلـون موقعاً مـا. وهو يخبئ الموقع الـذي تكونون بصدد تصفحـه، ما يجبركم علـى إغلاق الإعـلان أو إزاحته على

الأقـل، ما يجعلـه مزعجاً. الإعلان المتسلِّل مشابه لنظيره القافـز، إلا أنـه يتسلَّـل أسفل المـواد التي تكونـون بصدد قراءتها، ما يجعله أقل إزعاجاً بعض الشيء. هذا، والنوعان معتمـدان رغم إزعاجهما، حيث إنهما فـي نهاية الأمر أكثر فاعليـة من الإعلان الأفقي مثـلاً، ويزيدان من فرص النقر عليهما.

• الإعلان الطائر: لو كنتم في موقعٍ إلكتروني يستخدمه، سـوف تعرفون حتماً عمـا نتكلم. فمـا أن تفتحوا الموقع الـذي تنشدونه حتى يظهر معه الإعلان، ويبدأ بالطيران فـوق الصفحة لمدة تتراوح بين الـ 5 و الـ 30 ثانية. أثناء رحلتـه هذه، يعوق الإعلان رؤيتكـم لما تحاولون قراءته، وغالبـاً ما يعوق قدرتكم على تحريك الفأرة أيضاً، إلا أن العديد من الإعلانات الطائرة مزوَّد بزرٍّ يغلقها إن شئتم أن تعـودوا فـوراً إلـى الصفحـة الأصلية. هـذا النوع هو أقـرب الأنواع للإعلانات التلفزيونيـة، بمعنى أنه يقاطع ما كان المستخـدم بصدد فعله في سبيل عرض الإعلان.

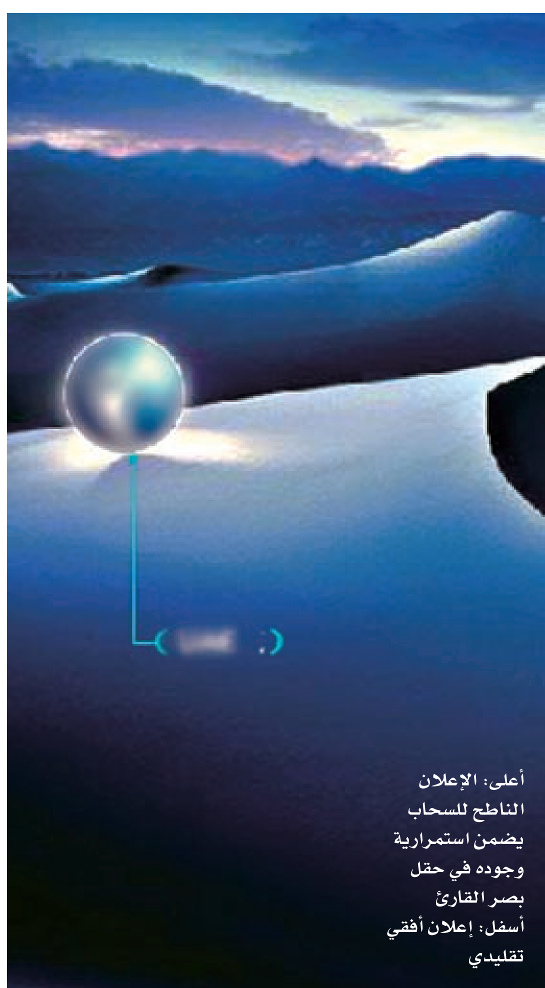
تتعدّد الإعلانات الإلكترونية بتعدّد الميزانية الموضوعة لها، والمساحة المتوافرة أمامها، والوظيفة التي يُفترض أن تؤديها

• الإعلانات-النصوص: وتظهـر هـذه الإعلانـات عادةً في صفحـة النتائج، بعدما يكـون المستخـدم قـد قـام بإجـراء بحـث إلكتروني على موقع أبحاث مثل غوغل وياهو وبينـغ. ويظهر الإعـلان على أنه مـن نتائج البحـث -جانبـاً أو فـي الأعلـى- ويكون في أغلب الأحيـان ذو صلة بمـا تكونون تبحثون عنـه؛ مثـلاً، لـو أدخلتـم كلمـات «سيارات التحريـك عن بعد» إلى «غوغل»، سـوف تحصلون على نتائج هـي في الوقـت نفسه إعلانات عـن مواقع متعلِّقـة بسيارات التحريك عن بعد.

• أنـواع أخرى: ليست الإعلانات الواردة أعلاه سوى نماذج ممـا قد يطالع المتصفِّح يومياً. بعض الأنواع الأخرى تشمل أفـلام فيديو قصيرة ضمن الرقعـة التقليدية (أفقيةً كانت أو عموديـة)، وإعلانـات شرائيـة يحتفظ بهـا المستخدم ويستخدمهـا لدى نقطة البيع (الإلكترونيـة طبعاً)، وألعاباً مصغـرة تأتي ضمن الرقعـة، وغيرها من الأشكال. مجتمع الإعـلان الإلكترونـي هـذا فـي سعي دائـم لإيجـاد وسائل جديـدة لجعـل المتصفح ينقر علـى الإعلان، وفـي أفضل الأحوال، لجعله يشتري السلعة المعلن عنها.

التحديات

غالبـاً، لا يكفـي وضع إعلان علـى صفحـة إلكترونية لحث المتصفـح على الشراء. لا سيمـا وأن المتصفحين اعتادوا الإعلانات وقد أصبحوا ماهرين في تجاهلها. من هنا يمكن القـول إن التحدي الرئيس فـي هذه التجارة اليوم يكمن في جذب اهتمام المستخدم من دون الأخذ من تجربة التصفح نفسهـا. فواحـدة مـن الطـرق المتبعـة تكمـن فـي توجيه الإعلانات أكثر فأكثر نحـو المتصفحين، بمعنى الإعراض عن توزيع الإعلانات على المواقع الإلكترونية كيفما اتفق،



أعلى: الإعلان الناطح للسحاب يضمن استمرارية وجوده في حقل بصر القارئ
أسفل: إعلان أفقي تقليدي

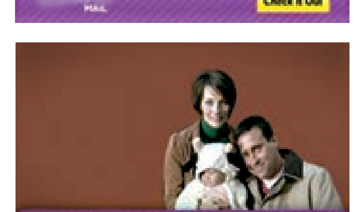


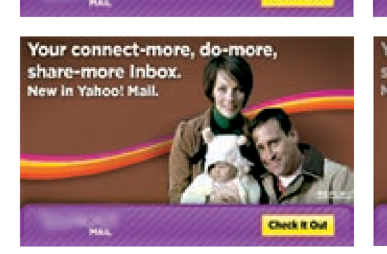












بعض إعلانات الفيديو قد يتَّخذ شكلًا مفصَّلًا جدًا، مثلما يلاحظ القارئ في هذا الإعلان المصوَّر عن موقع ياهو! العنكبوتي

والتحول بدل ذلك نحو أنظمة متطوِّرة تجمع المعلومات عن المتصفحين قبل إظهار الإعلان. المعلومات المجموعة تُستخدم لتعديل وإعادة صياغة الإعلان، وذلك لجعله أكثر ملاءمةً لشخصية ومعطيات

وعلى الهاتف الجوال.. قضية

يؤكد غزو الإعلان لشبكة الإنترنت، أن صناعته مستعدة للانقضاض على أية تقنية اتصالات جديدة مهما كان نوعها، ولأن تكيِّف فن الإعلانات مع قدرات هذه التقنية وميزاتها. ومن ضمن هذه التقنيات: الهاتف الجوال. والإعلان على الهاتف الجوال مختلف تماماً في الشكل والمضمون عنه في باقي وسائل الاتصال والنشر، وبالتالي، فهو مختلف أيضاً على صعيد وقعه وأثره في نفس المتلقي.

يأخذ هذا الإعلان الذي نعرفه جميعاً شكل الرسائل القصيرة التي نتلقاها فجأة على هواتفنا الجوالة، وفي أي وقت يشاءه المرسل، لتخبرنا أن المتجر الفلاني يعرض تنزيلات على الأسعار، أو أن الشركة الفلانية أطلقت خدمة جديدة، وما إلى ذلك.. وتسمح تقنية الهواتف الجوالة بتجاوز شركات الإعلان والوسطاء ومنهجهم التقليدي في هذه الصناعة، إذ يكفي أن يكون المعلن قد جمع في قاعدة بياناته مجموعة من أرقام الهواتف، وعندما يريد أن يعلن عن بضاعته، ما عليه إلا أن يكتب رسالة قصيرة، وبكبسة زر واحدة على «إرسال إلى الجميع»، تصل رسالته إلى الآلاف.

اختلافه الشكلي وقسريته

في الشكل، يفتقر الإعلان على الهاتف الجوال إلى أبسط اللمسات الفنية أو الجمالية بخلاف كل أنماط الإعلان الأخرى.

إن كل الإعلانات التقليدية المطبوعة والمرئية والمسموعة من الراديو إلى الإنترنت مروراً بالتلفزيون بشكل خاص، تعتمد على «الفن»، أي على الصوت الجميل والصورة الجميلة والخطوط المدروسة بدقة، والعبارات المنتقاة بعناية، لكي تصيب المتلقي وتتغلغل إلى ذهنه ووجدانه. وهناك إعلانات تثير اهتمامنا حقاً فنمتدحها ونتحدث عنها (نطيل سلسلة الترويج لبضاعتها) بفعل جمالها وإتقانها اللافت للنظر، أو بفعل ذكائها. أما الإعلان على الهاتف الجوال فهو مجرد خبر بالمختصر المفيد.. مفيد حقاً؟

يقول المدافعون عن هذه الوسيلة الإعلانية إنها مجدية أكثر من غيرها، لأن قائمة البيانات الخاصة بمتلقي هذه الرسالة الإعلانية، تقتصر على أناس سبق أن أبدوا اهتماماً بهذه السلعة، وبالتالي، فإنهم على الأرجح سيهتمون بسلعة مماثلة أو مشابهة، أو بما طرأ على سلعتهم المفضلة من تطورات (تنزيلات في الأسعار، تشكيلة جديدة، تطوير خدمة معينة، ...الخ). ولكن السؤال هو: كيف تشكَّل قائمة البيانات هذه؟

يروي أحدهم أن ظرفاً طارئاً اضطره إلى شراء قميص من أحد المتاجر الفاخرة في شارع العليا بالرياض، خلال زيارة كانت الأولى والأخيرة إلى العاصمة. وعند إتمام عملية الشراء، سأله البائع عن رقم هاتفه الجوال، وبسذاجة، أعطاه المشتري رقمه من دون أن يعرف سبب السؤال. وما هي إلا أسابيع قليلة حتى راحت الرسائل الإعلانية تتدفق على هاتفه الجوال من عشرات المتاجر المنتشرة على طول شارع العليا في الرياض، التي لم يسبق أن زارها أو سمع بها. الأمر الذي يؤكد أن هناك اتفاقاً بين هذه المتاجر على تبادل أرقام زبائنها، على أساس أنهم

وسلوك المرء الشرائـي. ويفيد هذا الأمر في جعل الإعلان أكثر قدرة على إثارة اهتمام المتصفِّح وحثه على التجاوب، ويعني هـذا مبدئياً الإعلان المناسـب للشخص المناسب، وهو السيناريو المثالي لأي معلن.

هذا في المبدأ، أما في الواقع فإن تعديل الإعلان حسب الشخـص يتطلَّـب مـن الشـركات أن تخـزِّن معلومات خاصـة بالمستخـدم، كعمـره وجنسه ومعاشـه وموقعه وباقـي الأبحـاث الإلكترونيـة التـي يكون قد قـام بها، والعديـد من هـذه المعلومـات شخصي، فيمـا شبكات الوساطـة الكبيـرة (مثل غوغل) مغضـوب عليها أصلاً نتيجـة تخزينها لهـذه المعلومات الحساسـة. يبقى إذاً أن تنجـح شبـكات الوساطـة فـي التوفيق مـا بين جمع معلومـات كافية لابتكار إعلانات فعالـة من جهة، وبين عـدم انتهاك حرمة المستخدميـن الشخصية من جهة أخرى.

هنـاك تحـدٍّ آخـر طـرأ علـى تجـارة الإعـلان الإلكتروني مؤخـراً، وهو المناخ الاقتصادي المتعثِّر؛ حيث تفيد شركتا الأبحـاث «إنترآكتـف آدفرتايزنـغ بـورو» (Interactive Advertising Bureau) و«برايـس ووترهاوس كوبـرز» (PricewaterhouseCoopers) أن الإعـلان الإلكترونـي قـد انخفض مؤخـراً بنسبة 50%. وهذا الرقـم قد لا يزيد إلا قليـلاً عن تراجع صناعة الإعـلان بشكل عام. ولكن كما هو الحال بالنسبة لصناعة الإعلان عموماً، لا يغيب التفاؤل عن أذهان العاملين في الإعلان الإلكتروني، حتى في خضم الأزمـة الاقتصادية العالمية، إذ يرون أن قطاعهم قد يكون سبَّاقاً إلـى النهوض، بمجرد عودة شيء مـن الانتعاش إلى الأسـواق العالميـة، لأن قلة السيولـة ستزيـد المنافسة ما بيـن الشركات للاستحواذ عليهـا.. وما من وسيلة لذلك إلا الإعلان، والإعلان الإلكتروني.

سيكونون مهتمين بأية بضاعة من المستوى أو النوعية التي أقدموا على استهلاكها ولو لمرة واحدة.

وتوخيـاً للإنصاف، نشير إلى أن بعض المتاجر التي تحترم مكانتهـا تسأل الزبـون بصراحة إذا مـا كان يوافق على أن يعطيهـا رقم جواله لترسل إليه رسائل قصيرة عندما يكون عندها شيء جديد. ولكـن هذا لا يشكِّل القاعدة التي تبقى قائمـة على «اختلاس» رقم الهاتف، وتمريره، أو بيعه لتجار آخرين.

جدواه.. هل دُرست حقاً؟

لا نعـرف إن كانـت هنـاك دراسـات للجـدوى الاقتصادية للإعـلان على الهاتـف الجوال. ولكن المؤكـد أنها لم تعلن ولم تصل إلينـا. وقد يرى البعض أن لا ضرورة لإجراء مثل هذه الدراسة لأنها قد تكون أكثر تكلفة من النتائج المتوخاة منهـا، خاصـة وأن كلفـة الإعلان علـى الهاتـف الجوال لا تستحق الذكر (يمكـن للمعلن أن يرسل نحو 40 ألف رسالة بكلفة الإعـلان على صفحة واحدة ولمـرة واحدة في مجلة مطبوعة). وبالتالـي، فقد يكون التفكير السائد أن الإعلان على الجوال لا يضر إن لم ينفع صاحبه. ولكن..

بحكـم العادة، أصبحـت الإعلانات «متوقعـة» سلفاً عندما نشاهد التلفزيون، أو نفتـح الكمبيوتر على شبكة الإنترنت، أو عندمـا نتصفح مجلة. ولأنها «متوقعـة» فنحن مستعدون نفسيـاً للتعامـل معهـا، سـواء أكان هـذا التعامـل تأمـلاً باهتمـام أم تجاهـلاً. (علماً بـأن هناك قنـوات تلفزيونية فضائية صـارت تعلن عن أفلام لا تتخللها فواصل إعلانية، استقطابـاً للمشاهديـن الذيـن لا يحبذون قطـع بث الفلم لعرضـ الإعلانـات، وهو الأمر الذي يكشـف عن إقرار مثل هذه المؤسسات بوجود أنـاس ينفرون من قسرية الإعلان، وفرض مشاهدته عندما يريد المُعلن.

هذه القسرية المنفرَّة تتجلى بأوضح صورها بالإعلان على الهاتـف الجـوال. إذ يمكن لصاحـب الهاتـف أن يكون في دوامـة من القلق منتظراً خروج ابنه من غرفة العمليات في المستشفـى، عندمـا يتلقَّى رسالة تخبـره أن محل الأحذية الفلاني يجري تخفيضات على الأسعار.

ولأن تقنيـة الهواتف تجعلهـا تبث إشـارات صوتية متكررة تخبـر صاحبـه أنـه تلقَّـى رسالـة، ولا تتوقف عـن ذلك إلا بعدمـا يفتح هذه الرسالة، فكثيـراً ما تنطلق هذه الإشارات ليـلاً، فتوقظ صاحب الهاتف من نومه وتجبره على إخراس الهاتف، حتى ولو كان يترقب مكالمة مهمة قد تصله في أي وقـت.. فهل من المستغرب في مثل هـذه الحالات أن تصل ردة الفعـل عند صاحب الهاتف إلى اتخـاذ قراره بمقاطعة كل المتاجر التي تنغِّص عليه حياته بإعلاناتها؟ أم أن الحل هـو بتغييـر رقم الهاتف والحفـاظ على سريتـه؟ أم بشراء هاتـف آخر نخصصه للمكالمات التـي يهمنا تلقيها في أي وقت، ونحتفظ بهاتفنـا الموبوء إعلانيـاً للأوقات النهارية التي يمكننا أن نتلقى خلالها أي شيء.

الحلـول المعتمـدة حالياً مـن قبل الكثيرين هـي خليط من كل مـا تقدَّم، وهذه الحلول مربكـة ومكلفة أكثر مما تتطلبه معالجة تسلل فيروس إلى جهاز الكمبيوتر.. نعم، فيروس.

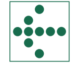
عبود عطية 

أثر التكنولوجيا الاجتماعية على عالم الأعمال

الـمـوجـات الـمـتـعـاقـبـة



«الموجات المتعاقبة» مصطلح يطلق على الحركة الاجتماعية الهائلة القائمة بفعل بعض المواقع الإلكترونية. ولأن هذه الحركة هي ذات تأثير كبير على أعمال الشركات، كان لا بد من دراستها. ليلى أمل تعرض واحدة من طليعة هذه الدراسات التي صدرت مؤخراً بعنوان «الموجات المتعاقبة، النجاح في عالم غيرته التكنولوجيا الاجتماعية».



عندما نشرت شركة « فورستر» المرموقة للأبحاث تقريرها عن الحوسبة الاجتماعية عام 2006م، تنفس الآلاف من قادة الشركات الكبرى الصعداء. وكأنما كان التقرير جواز المرور الذي سمح لكثير من الهواجس الخجولة حول النشاطات التي تجري على صفحات الإنترنت بالظهور. وبدلاً من أن يُكتم الجهل ظهرت الأسئلة، وتوافد عملاء الشركة على محلليها طلباً للنصح والمساعدة. من بين هؤلاء كان ريك كلانسي، المدير التنفيذي لقسم العلاقات العامة في شركة «سوني» العملاقة للإلكترونيات.

اعتاد كلانسي على التعامل بسهولة مع شكاوى العملاء، والتقارير المالية المعقدة، وتحديات المنافسين. ما لم يتعود عليه، هو تلك القوى التي لا يعرف لها كنهاً: مدونات، منتديات، يوتيوب، فيس بوك وماي سبيس.. أسماء كلما ظن أنه قد فك شيفرة إحداها، ظهرت ساحة أخرى جديدة. وكلها تتيح لمن يود الحديث عن أي من منتجات الشركة وكفاءتها وخبرته كمستهلك معها أن يفعل ذلك دون أن يكون لكلانسي، أو حتى لرؤسائه، أدنى سلطة لتغيير أو تعديل ما قد قيل.

قرر كلانسي أنه لا يفل الحديد إلا الحديد، ولذلك لجأ إلى شركة «فورستر» طالباً المساعدة في التخطيط لإنشاء مدونة إلكترونية يواجه فيها الموجات الجارفة لما يُعرف بالتكنولوجيا الاجتماعية.

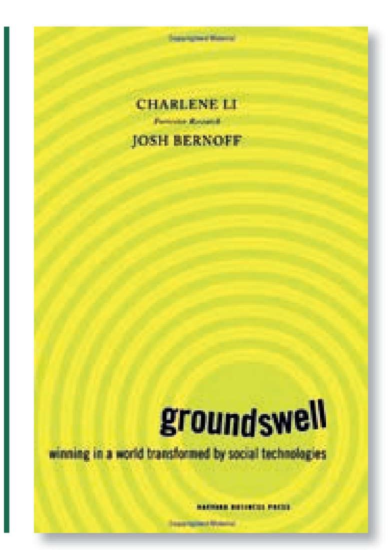
كلانسي هو المثال الذي اختاره الباحثان في «فورستر»، شارلين لي وجوش بيرنوف، ليبدءا به كتابهما المعنون «الموجات المتعاقبة: النجاح في عالم غيرته التكنولوجيا الاجتماعية»، حيث يستكملان ويفصِّلان فيه الحديث الذي بدأه تقريرهما حول الحوسبة الاجتماعية.

أولاً: المد

ظاهرة الموجات المتعاقبة كما سماها الكتاب، هي تلك الحركة التلقائية المندفعة لجماهير غفيرة دونما اتفاق أو تنظيم، ويستخدم فيها العامة الإنترنت للتواصل والحصول على ما يريدون من بعضهم البعض سواءً أكانت فكرة، معلومة، دعم، أو حتى منتج، دون انتظار الإذن من الشركات. هذه الظاهرة هي عالمٌ متكاملٌ نما على حين غفلة من الشركات الكبرى وقياداتها، لتفاجئهم بسطوتها وتحكمها بمقادير الأمور، فتسهم في نجاح شركة، وفي فشل أخرى.

لقد شكَّلت الإنترنت بتطبيقاتها الاجتماعية جماهير ووحدتها وأعطتها الصوت والحرية. والآن تشكِّل هذه الجماهير فيضاً لا يمكن مقاومته، يهدد بأن يأتي على الأخضر واليابس! فهذه الساحات الخالية تمتلئ اليوم بأناس يجدون القوة في حضور بعضهم البعض. والأمر، كما يثبت الكتاب مثالاً بعد مثال، أصبح واقعاً امتد ليؤثر على استقرار الشركات وسمعتها في السوق، بل وأرباحها.

عبر فصوله الإثني عشر، يقدِّم الكتاب شرحاً لهذه الظاهرة وبيان مدى تأثيرها أولاً، ثم يوضح كيف يمكن للشركات أن تجد لنفسها موطئ قدم في زحامها. وأخيراً كيف يمكن توظيف الموجات المتعاقبة لتحسين أداء موظفي الشركة داخلياً.



غلاف الكتاب

فـي مراجعتهما لما كُتب عن هـذه الظاهرة، وجـد الباحثـان أن أغلب ما كتـب كان يتناول جزءاً منها: مقالة عـن المدونات الإلكترونية وأخـرى عـن «الفيس بـوك»، كتـاب عـن «اليوتيـوب» وآخر عن المنتديات الإلكترونية، وكلما صدر كتاب من هذا القبيل، تزايد ذعر القـارئ مـن التفاصيل التي عليـه أن يلم بها إن أراد أن يفهـم كل واحـدة منها على حدة. وليزيـد الطيـن بلـة، لا تتوقـف التكنولوجيا عـن الإتيان بشـيء جديد بين فتـرة وأخرى، والمهلة بين هذا وذاك لا تسمح باستيعاب أيٍ منهما.

فبعـد أن تحـدِّد الشركة طبيعـة جمهورها، تستطيـع باستخدام الأداة التي قدَّمها الكتاب (الوصـف الاجتماعي التكنوجرافي)، أن تحـدِّد النشاطات التي تروق لهذه الشريحة من الجمهور. فإن كانـوا ممن يقرأون فقـط، فالمدونة الإلكترونيـة ملائمة لتتوجه بها إليهـم. أما إن كانوا ممـن يناقشون وينتقـدون، فالمنتديات الإلكترونيـة أولى. ثم، ينتقل الكتاب إلى الحديث عن الأهداف.. مـا هي أهـداف الشركة مـن انخراطها في حـراك الإنترنت إن جـاز لنا وصفه بذلك؟ بعد ذلك يأتـي دور الاستراتيجيات، وهي الخطط التفصيليـة طويلة الأمد التي ترسمها الشركة كي تحقق أهدافهـا. أمـا المرحلـة الأخيـرة فهـي تحديد نـوع التطبيقات الإلكترونية التي تتماشى مـع الاستراتيجيات والأهداف، والجهة المسؤولة عن تنفيذها.

تأتـي مساهمة الكتاب من إقراره لقاعدة جوهرية، هي التعامل مع مختلف أنـواع هذه التكنولوجيا الاجتماعية، قديمها وجديدها وما لـم يزل منها في عالم الغيب، على أساس أنها جسد واحد. أدوات مختلفة تـؤدي أغراضاً مختلفة لكنها في النهاية تصب في مجرىً واحـد. هذا الكتاب هو «دليل التشغيل» لهذه الأشكال المختلفة من التطبيقـات. يشرح بكثير من الصبر ما هي هذه التطبيقات، كيف تعمل، ومن يشارك فيها، وكيـف تنشأ عبرها العلاقات الإنسانية، وكيف تهدد القـوى المؤسساتية، وكيف يمكـن للقارئ أن يطوعها لصالحه. الشرح يفترض فعلاً أن بعض قرَّائه لم يرَ شيئاً من هذه الوسائل، والتفصيل في شرحها، مفيد ويحترم ذكاء هؤلاء القراء.

ويقـدِّم الكتاب أداةً محورية للتعامل مع هذه الظاهرة ببصيرة قد تغيب ضمن حماسة الشركات لاعتناقها، وهي الوصف الاجتماعي التكنوجرافـي (Social Technographics Profile). تتعامـل هـذه الأداة مع شرائح المجتمع الواسعـة (الأطفال، المراهقين، الشباب، الراشديـن...) وغيرها من الشرائح الفرعية (الفتيات المراهقـات، الصبية، الأمهات في منتصـف العمر...) وتربطها بنوعيـة تعاملهـا مـع الإنترنـت بوسائلهـا المختلفة. علـى سبيل المثـال، يذكر الكتـاب أن غالبيـة نشاط الأمهات علـى الإنترنت يتركز على كرسي المتفرج، قراءةً ومشاهدة واستماعاً إلى المواد المنشـورة، من دون المساهمـة في صناعتهـا إلا بنسبة بسيطة، بينمـا الآباء مـن متسوقي الألعاب على الإنترنـت هم على العكس مـن ذلـك، ويسهمون بشـكل كبير فـي الكتابة عن الألعـاب التي يبتاعونها لأطفالهم.

ثانياً: الجزر

صمـم الباحثـان في كتابهما خطـة عمل منظمة تسمـح للشركات وقياداتهـا بتولي زمـام الأمور، رغـم أنها لا تعد مطلقـاً بترويض الوحش. هي فقط تقـدِّم طريقة لقيادة انطلاقته لمـا فيه صالح الشركـة. وتعتمـد هـذه الخطـة علـى أربعـة محـاور: الجمهور، والأهداف، والاستراتيجيات، والتكنولوجيا.

ولأهميـة المحـور الثانـي المتضمن للأهـداف، يفرد لـه الكتاب خمسة فصول متتالية، يتناول كل منها كل هدف على حدة، فيشرح بالتفصيـل المراحـل التي تمـر بها الشركـة لتحقيقه، مـع إيراد أمثلة تطبيقيـة لشركات أدرجت، أو اضطـرت إلى إدراج، ظاهرة الموجات المتعاقبة ضمن خططهـا الاستراتيجية. الأمثلة تناولت شركات عالمية كبرى مثل «بروكتر آند جامبل» و«دِلّ» و«يونيليفر»، وصغرى مثـل «إي لجج» لبيـع حقائب السفـر و«كونستانت إيميل» للتسويق الإلكتروني.

ثالثاً: وما بينهما

في النهاية، يتناول الكتاب كيف يمكن استخدام ظاهرة «الموجات المتعاقبـة» لتعزيـز أواصر التعاون والعمـل المشترك بين موظفي الشركة الواحدة، مع تفاصيل أكثر حول الفروق بين استراتيجيات توظيـف الظاهـرة لخدمة عمـلاء الشركة وبيـن تطويعها لخدمة موظفيها.

يحمـل الكتـاب نبـرة صوت متحـدث مسترخ، مـن دون أن تشك للحظـة في يقظته الحادة. هو أيضـاً يفاجئك بتوقعه لسؤالك قبل أن تطرحـه، فبالرغم من أن ترتيب الكتاب متوازن وواضح، إلا أن المؤلفيـن لا يجدا حرجاً في مقاطعـة الأفكار المنسقة بعناية، كي يجيبـا عن تسـاؤلٍ يطرحه سيـاق الحديث. وبعـد أن يزيحا عقبة الحيـرة من طريق القـارئ، يعودان إلـى طرحهمـا السابق بيسر وثقة. الكتاب في مجمله موجَّه إلى الشركات القائمة أصلاً، إلا أنه أيضـاً موردٌ غني لكل من بدأ للتـو في إدارة عمله الخاص، أو حتى لا يزال في مرحلة التخطيط لذلك.

أعظم ما يمكن أن يقدِّمه الكتاب، ليس الاستراتيجيات التي تضمن النجـاح والوقوف فـي وجه الطوفـان أو حتى الطفو علـى أمواجه لتصل الشركة إلى الوجهة التي تريد، بل وضع الأمور في نصابها، فلا تعود هذه الظاهـرة بأجزائها المختلفة مجهولاً لا تملك إلا أن تتوجس منه. أنت الآن في النور.



تضاعف أربع مرات منذ العصر الحجري..

معدَّل الأعمار وقضايا ارتفاعه الصاروخي

عبدالعزيز البقشي

مع كل تحسن يطرأ على الحياة اليومية للناس، ومع كل ارتفاع في وعيهم بشؤون الصحة العامة، ومع كل تطور يطرأ على علم الطب، يزداد معدل عمر الإنسان. لقد تضاعف معدل الأعمار نحو مرتين خلال القرن العشرين على مستوى العالم. وفي البلاد العربية إجمالاً تحقَّق ذلك خلال النصف الثاني من ذاك القرن فقط. وإذا أخذنا بعين الاعتبار وعود العلم، وخاصة الطب والهندسة الجينية والصيدلة، إضافة إلى جهود الإنسانية في مجالات شتَّى تبدأ بالتعاون على مواجهة الكوارث وتحسين نوعية الحياة، يصبح «التفاؤل» بزيادة معدل العمر أمراً منطقياً، حتى ولو خرجت بعض التوقعات بأرقامها عمَّا نراه اليوم معقولاً. أمين نجيب* يعرض الارتفاعات التي شهدها معدل الأعمار على مستويات الدول والمجتمعات، تمهيداً لإضفاء الصدقية على توقعات تبدو غير قابلة للتصديق، مع كل ما يمكن أن يثيره ذلك من قضايا.



لمعدَّل العمر والأعمار المتوقعة بعد سن معيَّنة، أثر بالغ في نواحي الحياة الاجتماعية والحضارية كافة. وللدلالة على هذا، فلنتصور لحظة كيف كان المجتمع في حقبة معيَّنة من التاريخ ونقارنه بما هو اليوم.

فمعدَّل العمر في العصر الحجري الحديث مثلاً، أي منذ نحو 8 آلاف عام، وقد وُجِدت أقدم آثاره في أريحا في فلسطين، كان 20 عاماً فقط. ولذا كانت الأسر التي تستطيع أن ترى أولادها بالغين نادرة جداً. وبلغ معدَّل العمر في القرن الخامس عشر في أوروبا 33 عاماً. وفي هذه الحال، كان قليل من الناس يستطيع أن يرى له حفدة. أما اليوم وقد امتد معدَّل العمر في كثير من البلدان ليبلغ نحو 80 عاماً، فيبدو المجتمع مختلفاً تماماً عما كان. إذ يتمتع معظم الناس اليوم بالعيش مع حفدتهم وأحياناً أبناء الحفدة. كذلك تصبح الذاكرة الاجتماعية والمعرفية أنضج مع وجود شريحة كبيرة من المسنّين.

وتُعَدّ طريقة الإحصاء التي يُحتسب على أساسها معدَّل الأعمار مهمة. فإذا أخذنا مثلاً معدَّل العمر عند الولادة (أو عند الوفاة، وهما سيَّان) فالمعدَّل يختلف كثيراً عن المعدل المحتسب بعد سن معيَّنة. فنسبة وَفَيَات الأطفال تؤثر في النتيجة تأثيراً كبيراً. في أنغولا مثلاً، تبلغ نسبة وفيات الأطفال 184.4 لكل ألف طفل، أي طفلاً من كل خمسة أطفال تقريباً، ولذا يبلغ معدَّل العمر المتوقع عند الولادة 37.6 عاماً. أما في اليابان، حيث نسبة وفيات الأطفال 3.2 من كل ألف طفل، فمعدَّل العمر المتوقع 81.4 عاماً. وفي حالة أنغولا، إذا احتسبنا معدَّل العمر بعد سن العاشرة، فسيزيد معدل العمر على 60 عاماً. أما في اليابان فلا تختلف النتيجة كثيراً.

حقائق ثابتة في ظاهرة عامة

على الرغم مما تقدَّم، هناك حقائق شبه ثابتة، مع العلم أن عوامل التأثير في معدل الأعمار كثيرة:

1 - إن معدَّل عمر النساء في كل البلدان أعلى من معدَّل عمر الرجال.

2 - إن معدَّل الأعمار في كل البلدان ازداد في العصر الحديث، بوتيرة سريعة، وتخطت الزيادة أحياناً مئة في المئة. ففي أواخر القرن التاسع عشر، كان معدَّل عمر الأوروبي 37 عاماً. وقد بلغ اليوم نحو 80 عاماً. وفي الصين كان معدَّل العمر سنة 1950م، 35 عاماً،

---

* باحث في الجامعة الأمريكية في بيروت

أما اليوم فيبلغ 71 عاماً.

3 - يعيش الأغنياء أكثر من الفقراء. ففي بريطانيا مثلاً يعيش الأغنياء سنوات عشر أكثر من الفقراء.

4 - تعيش بعض الأعراق أكثر من أعراق أخرى نتيجة بعض العوامل الوراثية وغيرها.

5 - يعيش المتعلمون الذين يعملون في المكاتب أكثر من الأميين.

6 - يعيش معظم الحيوانات الضخمة أكثر من الحيوانات الصغيرة، مع بعض الاستثناء.

معدَّل الأعمار في البلاد العربية سيرتفع بين 5 و 10 سنوات حتى منتصف القرن، ليبلغ في المملكة ودول الخليج 80 سنة

ومن أسباب زيادة معدَّل الأعمار في التاريخ، إنشاء مجاري الصرف الصحي في الأحياء السكنية، إذ قلّت المجاري كثيراً انتشار الأوبئة، لا سيما بعدما صارت مجاري مغطاة. ومعروف أن الإنسان في مرحلة الصيد، كان يتمتع بمعدَّل عمر أعلى من المرحلة الزراعية الأولى التي تبعتها. وكان سبب ذلك قلة احتكاك الإنسان الصياد بالآخرين وقلة احتمال إصابته بعدوى الجراثيم. كذلك كان طعامه متنوعاً وصحياً. وحين استقر في المرحلة الزراعية التي أوجبت تنظيم المدن والتجمعات وتدجين الحيوانات وإنشاء قنوات الري، نشأت من كل هذا بيئة مؤاتية لانتشار الجراثيم والأمراض المعدية. ولكن في القرون الماضية، أدى تقليص نسبة وفيات الأطفال إلى هذه الزيادة الكبيرة في معدَّل الأعمار. إذ صارت النساء يلدن في مراكز صحية متخصصة. ولا تزال نسبة وفيات الأطفال في البلدان التي تفتقر إلى مراكز العناية الصحية، نسبة مرتفعة.

وماذا عن الدول العربية؟

جاء في تقرير اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا (الإسكوا) التابعة للأمم المتحدة، عن الشيخوخة في العالم العربي 2004م، أن نسبة الوفيات كانت بين 1950 و1955م، 24.3 لكل 1000 شخص، وانخفضت إلى 7.3 الآن، فزاد معدَّل العمر من 42.7 سنة إلى 66.5 سنة الآن، وهذا معدل عام لكل الدول العربية. وظلت الصومال وجيبوتي عند أدنى معدل، فمن 33 عاماً بين 1950 و1955م زاد المعدل إلى 40.6 سنة لجيبوتي و48.9 للصومال الآن. لكن التقرير نفسه توقَّع زيادة نسبة الوفيات خلال الخمسين سنة القادمة لا سيما في أربع دول عربية هي البحرين والكويت وقطر والإمارات العربية، حيث ستبلغ نسبة الوفيات ثلاثة أضعاف ما هي عليه اليوم. وعزا التقرير هذا الأمر إلى شيخوخة المجتمع المتوقعة في السنوات القادمة، نتيجة انخفاض نسبة الوفيات والولادة معاً. ويتوقع التقرير كذلك أن يزداد معدَّل العمر في الدول العربية بين 2045 و2050م، بين 5 و10 سنوات، وأن يبلغ في كل من السعودية ودول الخليج نحو 80 عاماً، مع بلوغ المعدَّل العام في كل الدول العربية 77 عاماً.

وفي إحصاء لنسبة الأعمار فوق سن 60 عاماً، تبيَّن أن الكويت حظيت في سنة 2000م بأعلى نسبة بلغت 8.5% من مجموع السكان. وتوقع التقرير أن تزيد هذه النسبة إلى 25.8% سنة 2050م. أما أدنى نسبة فهي في قطر، إذ تبلغ 3.1% لكنها ستزيد إلى 20.7% سنة 2050م. ويتوقع التقرير أن تكون نسبة الذين فوق 60 عاماً ربع السكان تقريباً في 5 دول عربية هي البحرين 24%، والكويت 25.8%، ولبنان 25.4%، وتونس 24.6%، والإمارات العربية 26.7% وهي العليا.

أما نسبة الذين تفوق أعمارهم 80 عاماً فستزيد في كل دول العربية بحلول سنة 2050م. وفي سنة 2000م، كانت هذه النسبة عند أدناها في قطر (5.1%) من مجموع السكان، وأعلاها 8.0% في تونس، وستزيد وتبلغ في سنة 2050م أعلى نسبة في الإمارات العربية (6.4%) وأدناها (0.5%) في الصومال. وستزداد النسبة إلى 3% في كل من الجزائر

معدَّلات الأعمار خلال التاريخ

إنسان نينتدرتال (وهو فصيل إنسان مختلف عن فصيلنا، انقرض منذ 30000 عام	20 عاماً
إنسان العصر الحجري الحديث	20 عاماً
إنسان العصر البرونزي	18 عاماً
إنسان اليونان القديمة (أي منذ 2500 سنة)	28 عاماً
إنسان روما القديمة	28 عاماً
إنسان بريطانيا العصور الوسطى	33 عاماً
إنسان أوروبا نهاية القرن التاسع عشر	37 عاماً
معدَّل الأعمار العالمي اليوم	66 عاماً
معدَّل أعمار شعوب تعيش اليوم على هامش الحضارة الحديثة	34 عاماً

الدول ذات معدَّل الأعمار الأعلى 2006

أندورا (غرب أوروبا)	83.5
سنغافورة	81.7
اليابان	81.2
أستراليا	80.5
السويد	80.5
سويسرا	80.5
أيسلندا	80.3
كندا	80.2
إيطاليا	79.8


Corbis

والبحريـن والكويت ولبنـان وقطر وتونـس. ويتوقع التقرير أن تطـرح هـذه النسـب وبلوغ عـدد أكبر من السـكان سن الشيخوخـة مشـكلات صعبة على المجتمـع العربي، إذا لم يتهيـأ لمعالجتها. أما عن جنس الذين سيتخطون 80 عاماً، فـإن قطر والإمارات تخالفان القاعـدة العامة، إذ ان نسبة الرجـال تفوق نسبة النسـاء. أما في باقي الـدول فتتساوى النسبتان عند 80٪.

أطول المسنين عمراً

إلـى زمن قريب جـداً، كان الاعتقاد السائـد أن أقدم شيء حي هو إحدى الأشجار في «الجبال البيض» في كاليفورنيا، وعمرها 4789 عاماً، وسميت «ميتوسيلاه»، وهي من فصيلة الصنوبريـات. ولكن اكتشفت بعض الجراثيم سنة 1999م، وتبيـن أن عمرهـا نحو 40 مليـون سنة. بعد ذلـك تبين أن إحدى البكتيريات وهي موجوده في نوع من الأملاح القديمة جـداً، تحت مدينـة كارلسباد في نيومكسيكـو، عمرها نحو 250 مليون سنة. ومن الطير، تعد الببغاء الأمازونية الأطول عمراً إذ يمكن أن تبلغ 80 عاماً. ومن الزواحف بلغت إحدى السلاحـف 193 عامـاً. امـا الحشـرات فملكـة النحل هي الأطول عمراً، إذ قد تعيش حتى 5 سنوات. أما في الثدييات فالإنسان هو الأطول عمراً.

إن أطـول المعمّريـن مـن النـاس عمـراً، وفـق السجـلات الرسمية، هي الفرنسية جين كالمان التي ولدت سنة 1875م في آرل، وتوفيت سنة 1997م عن 122 سنة. وقد تأكدت هذه المعلومـات مرات بطرق علمية وإحصائيـة. إذ كان عمرها 14 عامـاً عندما بني بـرج إيفل. وتزوجـت سنة 1896م من قريب ثـري سمح لها أن تعيـش دون أن تعمل. وعاشت حياة رفـاه متفرغـة لرياضة كـرة المضـرب والسباحـة والبيانو والأوبرا. وعندما توفيت ابنتها الوحيدة عن 36 سنة، عاشت

معدّل أعمار الحيوانات

الثور: 28
الهرة: 25
النمر: 22
الفأر: 4
الثعلب: 14
الكلب الصغير: 17
الماعز: 15
البقرة: 22
الكلب الكبير: 10
الحمار: 45
الأرنب: 10
الذئب: 18
الجمل: 50
الغزال: 35
الفيل: 70
الحصان: 40
25

الدول ذات معدَّل الأعمار الأدنى 2006

سوازيلند (في جنوب إفريقيا)	32.6
بوتسوانا	33.7
أنغولا	38.6
ليبيريا	39.4
موزمبيق	39.8

وحيدة حتى سن 115. واشتهرت كالمان سنة 1988م في الذكرى المئوية للفنان الشهير فينسنت فان غوخ، عند زيارته مقاطعة آرل حيث تسكن كالمان. حينذاك التقاها كثير من الصحافيين وغيرهم لتحدثهم عن ذكرياتها عنه. إذ إنها عندما كانت في الرابعة عشرة، قابلت فان غوخ في محل أبيها واصفة إياه بأنه متسخ جداً، وذو لباس سيّء، ورائحته كريهة. وقالت إنها حضرت جنازة فكتور هيغو سنة 1885م. ولما بلغت 100 عام، كانت لا تزال تركب الدراجة.



أثر العلم غداً

لكن ما سيكون أثر العلم والتكنولوجيا في معدل الأعمار في المستقبل؟

يقول غراهام لوتن في مقال له في نيو ساينتست: «إن أناساً ذوي حواس معززة تكنولوجياً وأجسام متفوقة وعقول مشحوذة صناعياً سيبدأون في الظهور. إن أول إنسان سيحظى بالسعادة والصحة في سن 150 عاماً ربما قد ولد الآن». أما جويل جارو، وهو مؤلف كتاب «التطور الجذري»، فيقول في صحيفة «واشنطن بوست»:



Corbis

السيدة كالمان التي قابلت فان غوخ في القرن التاسع عشر

انتعاش الإنجاب في الدول الغنية

نشرة مجلة «إكونومست» البريطانية، في عددها الذي صدر في 6 آب/أغسطس 2009م، مقالة علمية إحصائية، أشارت إلى حدوث تحوّل في اتجاه الإنجاب في الدول الصناعية الغنية، ولاحظ كاتب المقال، أن ما يبدو من هذه الظاهرة أن خصوبة المرأة في هذه الدول تصل إلى القاع، عند معدل 1.3 طفل لكل امرأة، ثم يعود هذا المعدل إلى الارتفاع. ويعني هذا ما يعنيه عند الدول الغنية وقلقها الوجودي، وما يمكن أن يترتب على هذا الأمر في مسألة «الهجرة إلى الشمال»، التي صارت مشكلة بين الدول الفقيرة والدول الغنية.

وجاء في المقالة، إن من المفارقات الغريبة في البيولوجيا البشرية أن العالم الثري يميل إلى إقلال الإنجاب، فيما القاعدة في الطبيعة أن الفصائل التي تنعم بالوفرة تتكاثر.

ويحتسب علماء الإحصاء معدَّل خصوبة المرأة في بلد ما، بجمع ما أنجبت نساء ذلك البلد من أولاد، وقسمة المجموع على عدد النساء فيه. لقد انخفض هذا المعدل كثيراً في القرن العشرين لدى الدول الصناعية الغنية، ولولا انخفاض نسبة وفيات الأطفال فيها، لحق افتراض أن أمماً كان يمكن أن تنقرض، أو تتقلص إلى ما يقترب من حدود الانقراض. وقد ابتكر علماء الإحصاء لا سيما في الأمم المتحدة وسيلة لاحتساب العلاقة بين تطور المجتمعات وبين الخصوبة. فاعتمدوا لهذا الاحتساب مؤشر التطور البشري. وهو رقم يقاس بمعدَّل العمر ومعدَّل دخل الفرد ومستوى التعلم. وحده الأقصى 1.

لقد عمل في مراقبة هذا الأمر البروفيسور ميكو مرسكيلا، من جامعة بنسلفانيا الأمريكية، ووجد أن ما من دولة في السبعينيات في القرن العشرين اقتربت من الرقم 1، في هذا الاحتساب. وحلت كندا بين 107 دول، في المركز الأول ونالت 0.89. وفي سنة 2005م، ومن أصل 240 دولة، تخطت 24 دولة الرقم 0.9. ولاحظ مرسكيلا



معدَّلات الأعمار في الدول العربية 2004

البلد	الرجال	النساء
المملكة العربية السعودية	70.3	74.2
مصر	68	72.4
لبنان	70.1	74.4
الأردن	70.2	73.2
فلسطين	71.1	74.2
جيبوتي	51.8	54.1
الصومال	45.4	47.4

«ظلت تكنولوجيا البشر مئات ألوف السنين مكرسة للعالم الخارجي من أجل تحويل بيئتنا. أما اليوم فبدأت هذه التكنولوجيا تتجه نحو داخلنا لتحويل العقول وتعديل الأيض (Metabolism) والشخصية والأولاد الذين سوف ننجبهم. إن ما أحرزه الإنسان حتى اليوم، يبدو تافهاً إذا قورن بما يوشك على الحدوث. إننا على أبواب منعطف تاريخي فريد». ويقول: «إن ثمة تقدماً سريعاً في صنع الآلات الشبيهة بالدماغ وزرع القرنيات الصناعية في العين وآلات الاتصال لمرضى الشلل وحتى أجهزة تقوية الذاكرة، وتشير الأبحاث إلى إمكان زرع خلايا عصبية لتقوية وظائف الجسد كافة. وثمة قفزات في الهندسة الجينية والعلاج الجيني واحتمال تمكننا من تغيير خريطتنا الجينية، لنزيل الجينات المشوهة وتصحيح الأخطاء الجينية وحتى إدخال جينات جديدة تقضي على الأمراض المحتملة وتجدد شباب الخلايا، فنستطيع بذلك مد العمر، بإذن الله. إن ذلك كله لن يحدث في المستقبل البعيد، بل سنراه يحدث تحت أنظارنا».

لكن أوبري دو جراي الباحث في علم الشيخوخة في جامعة كمبردج يذهب بعيداً ليقول: «إن تقدم علم إصلاح الخلايا والجزيئات في جسم الإنسان، سيجعل بعض الأشخاص الذين يعيشون اليوم يتخطون سنة 2150م».

وفي واقع الأمر لم يكن بالإمكان قبل سنوات قليلة، تخيل التقدم العلمي الذي حدث في زمن قصير. فإذا أخذنا مثلاً عدد «الترانزستور» الموجودة في فرن «مايكرويف» فإنه يساوي مجموع ما كان موجوداً سنة 1950م، في كل العالم. وفي هذا الإطار، يقول جيمس هيوز، وهو من معهد هارتفورد في كونكتكت: «سينظر حفدتنا إلى حياتنا اليوم ويشفقون علينا كما نشفق نحن اليوم على أجدادنا في العصر الحجري الأول». وفي المقابل، ينبري كثير من الباحثين لينتقدوا بشدة التطور القادم، بالسؤال: ماذا يبقى من كوننا بشر؟ أين ستذهب مشاعرنا وأحاسيسنا الحميمة، خلال تاريخنا الطويل، الناتجة من نجاحنا وفشلنا في الوقت نفسه؟

أن دولاً متقدِّمة زاد مؤشرها على 0.95، أخذ معدَّل الخصوبة فيها يقترب الآن من ولدين لكل امرأة. وليس من تفسير إلى الآن لهذه الظاهرة التي تعني أن القاع الأدنى في الخصوبة يستقر عند 1.3 ولد، قبل أن يعود المعدل في الزيادة.

الآراء المختلفة في تفسير انخفاض الخصوبة معروفة في خطوطها العامة. فالمرأة في الدول الغنية تتحكم في حياتها الزوجية الآن أكثر مما كانت حتى أوائل القرن العشرين. وهي فوق هذا دخلت ميدان العمل مع الرجل، وانصرف كثير من اهتمامها عن شؤون العائلة والإنجاب. كذلك كان تقلص نسبة وفيات الأطفال من أسباب إقلال الإنجاب أيضاً.

ولكن على الصعيد النفسي، يرى العلماء أن في لا وعي البشر أسلوبين في التفكير حيال مسألة الإنجاب، أولهما الإكثار من الإنجاب في مجتمع لا يوفر ضمانة جيدة لبقاء الأطفال على قيد الحياة، على أمل أن يبقى من هؤلاء عدد ما. والثاني هو الإقلال من الإنجاب، ما دامت فرص هؤلاء الأطفال في المجتمع المتقدِّم جيدة للبقاء على قيد الحياة، مع تقدم الطب والخدمات.

والأسلوب الأول في الطبيعة (ومنها مجتمع الحيوان) هو أسلوب المجتمعات البشرية والحيوانية التي تتسم بعدم القدرة على حماية الحياة حماية مقبولة. أما الأسلوب الثاني فهو سمة المجتمعات التي تحسّن هذه الحماية بمختلف الوسائل.

أما عودة المجتمعات المتقدِّمة إلى الإكثار من الإنجاب، فقد فسرها البروفيسور مرسكيلا، على أن المجتمع حين يبلغ من التقدم مستوى عالياً جداً يجعله لا يخشى أن تكون الكثرة معوقة للاهتمام بالذرية، يعود إلى زيادة معدل الخصوبة، زيادة لا تضر بمدى العناية المنشودة بهذه الذرية.

1 الإنصاف.. مسألة وراثية

ربما التقينا ببعضهم في المدرسة أو الجامعة أو العمل .. أو حتى في المرآة. هؤلاء الأشخاص الأذكياء، المتفوقون في الدراسة والعمل، والمتميزون في مهاراتهم وأدائهم، لكنهم لا يعرفون جيداً أنهم كذلك. ما الذي يجعل بعض الناس منصفين في نظرتهم لأنفسهم، وبعضهم ليس كذلك؟

يخبرنا علم النفس بالكثير عن الدور الذي يلعبه تقدير الذات



http://media.photobucket.com

والثقة في الطريقة التي نرى بها أنفسنا، لكن يبقى سؤال مهم هو من أين تأتي هذه الثقة بالتحديد؟

هذا السؤال هو ما حاول فريق من الباحثين بكلية «كينجز» البريطانية تقديم إجابة دقيقة له. وقد قام الفريق، بقيادة عالمة الوراثة كورينا جريفين، بدراسة 3700 زوج من التوائم من سن السابعة وحتى العاشرة، لدراسة مدى تأثير العامل الوراثي على الثقة بالنفس، أو بمعنى آخر على الطريقة التي يرى بها هؤلاء الصغار أنفسهم. ثم قام الفريق بمقارنة النتائج التي حصلوا عليها من دراسة التوائم، بتلك التي سجلوها بدراسة أخوة أشقاء لكن ليسوا توائم. وقد أتاحت هذه المقارنة للباحثين أن يحسبوا بدقة مقدار التأثير الذي يملكه كل من العامل الوراثي من جهة، وطريقة التربية والبيئة المحيطة من جهة أخرى، على ثقة الصغار بأنفسهم.

وعلى عكس الظن السائد، أثبتت الدراسة أن العامل الوراثي يلعب الدور الأكبر في اكتساب هذه الصفة. وعلى الرغم من كون التربية عاملاً مؤثراً، إلا أن الجانب الوراثي يفوقها في قدر التأثير. فكل إنسان يولد بقدر من الميل للنظر إلى نفسه نظرة منصفة، أو نظرة «محفوفة» بالحكم القاسي والمطالبة بمعايير عالية تكون في أغلب الأحيان غير واقعية.

2 أنظمة جديدة بالجملة

قامت شركة «آبل» مؤخراً بإطلاق نظام تشغيلها الجديد، والذي يحمل اسم «سنو ليبرد». وذكر مسؤولو «آبل» أنهم ركّزوا اهتمامهم على تطوير مكونات النظام الداخلية والبعيدة عن عين المستخدم، وكانت النتيجة هي نظام أسرع وأكثر ثباتاً وملاءمة لأجهزة الكمبيوتر الحديثة. وقد طرحت الشركة نظامها الجديد بسعر يثير الحماس لشرائه. ولكن نظام «آبل» لن يكون وحده الجديد على الساحة. فقد أعلنت «ميكروسوفت» أنها ستقوم بإطلاق نظامها الجديد «ويندوز 7» قبل نهاية العام الحالي. وتصف «ميكروسوفت» نظامها الجديد بأنه سيكون تطويراً لأنظمتها السابقة أكثر من كونه ثورة عليها، لكنه سيكون نظاماً مثيراً للاهتمام ويقدّم لمستخدمه استخداماً مريحاً وشخصياً أكثر من السابق.

وفي الوقت نفسه تستعد «جوجل» لإطلاق نظام تشغيل جديد، سيكون متاحاً للمستخدمين في عام 2010م. النظام الجديد والذي يحمل اسم «كروم» سيتم تسويقه مبدئياً من خلال أجهزة تصفح الإنترنت المحمولة (نت بوك)، تمهيداً لطرحه بعد ذلك على أجهزة الكمبيوتر الشخصية. وتقول الشركة إن نظامها الجديد يرتكز على ثلاثية أساسية هي: السرعة والبساطة والأمان. وينتظر المراقبون التأثير الذي سيحدثه نظام «جوجل» الجديد على سوق أنظمة التشغيل في العالم. وهو السوق الذي تحتكره «ميكروسوفت» بنسبة 95%، تاركة نسبة الخمسة بالمئة الباقية لتشغلها أنظمة الماك واللينكس.



3 البطارية.. اقرأ التحذير

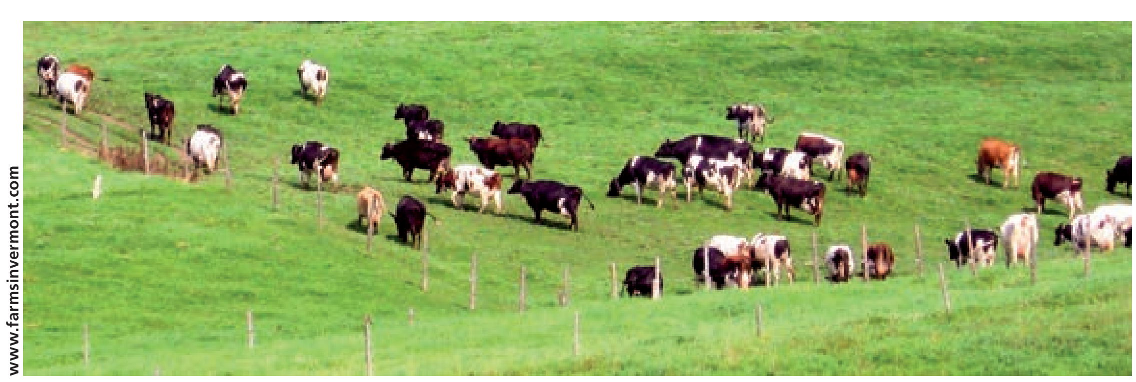
أصبحت بطارية الليثيوم جزءاً أساسياً من حياتنا اليومية. فهناك عشرات الأجهزة التي نستخدمها بصورة يومية تعمل كلها عن طريق هذه البطارية .. الهواتف والحواسيب المحمولة ومشغلات الموسيقى. ومع اتجاه كل شركات الإلكترونيات لإنتاج الجهاز الأقوى، أصبح الضغط على هذه البطارية شديداً. بطاريات اليوم أصبحت محملة بقدر من الطاقة يوازي ثلاثة أضعاف القدر الذي صممت في الأصل لتحمله. كما أن المساحة الصغيرة التي يتركها مصنعو الأجهزة للبطارية، لا تترك لها مساحة كافية كي «تتنفس»، أو بمعنى آخر لا تسمح للحرارة المتولدة من عملها بالانتشار في الهواء المحيط. وتؤدي هذه العوامل بالإضافة إلى طبيعة المادة المستخدمة في تصنيعها إلى ما يعرف باسم «حرائق البطاريات».

في الولايات المتحدة أصدر مجلس حماية المستهلك تقريراً عن 15 حادث حريق تفاوتت في أحجامها، تسببت فيها أجهزة إلكترونية شخصية. وفي السويد اندلع مؤخراً حريق داخل سيارة مغلقة، وكشف التحقيق عن كون الحادث قد نتج عن انفجار جهاز مشغل موسيقى تركه صاحبه في داخل السيارة. حرائق البطاريات سببها الرئيس تعرض البطارية لدرجة حرارة عالية، والأجواء سيئة التهوية كتلك التي نجدها في السيارات المغلقة. كذلك فإن تعرُّض البطارية للحرارة أثناء عملية شحنها، يزيد من سرعة وحدة التفاعلات التي تجري بداخلها مما قد يعرضها للانفجار.

بطاريات الليثيوم في حياتنا اليوم شيء لا يمكننا الاستغناء عنه، لكن للمستخدم دوراً كبيراً في الحد من أخطارها. وللشركات أيضاً .. فنحن قد نرضى بالأكبر (الأكبر بعض الشيء فقط!) إذا كان آمناً أكثر.

http://mobilearsenal.com

4 الألبان لأصحاب الماشية فقط

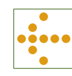


www.farmsinvermont.com

كشفت الدراسات التي أجراها فريق من الباحثين بجامعة «ماينس» الألمانية أن الأوروبيين الأوائل لم يكن باستطاعتهم هضم الألبان ومنتجاتها. وقد توصل الباحثون إلى هذه النتيجة عن طريق قيامهم بدراسة بقايا عظام يعود تاريخ وجودها إلى الفترة ما بين العامين 5840 و5000 قبل الميلاد. وتعود قدرة الإنسان البالغ على هضم الألبان ومنتجاتها إلى إنزيم «اللكتيز» الذي يقوم بهضم مادة «اللاكتوز» الموجودة باللبن. ويؤدي غياب هذا الإنزيم إلى الإصابة بمتاعب في الجهاز الهضمي عند تعرضه للألبان. وقد وجد الباحثون أن الجين المنتج لإنزيم «اللكتيز» كان نادر الوجود في المادة الوراثية التي تعود إلى الأوروبيين الأوائل. وتوصلت الدراسات إلى أن القدرة على هضم اللبن قد نشأت نتيجة لتعلم الإنسان الأوروبي رعي الماشية وتربيتها والحصول على ألبانها، وهو الأمر الذي بدأ منذ ما يقرب من 9 آلاف عام. وفي ذلك الوقت، شكلت القيمة الغذائية العالية للألبان والفائدة الصحية التي تمد بها من يتناولها، قوة طبيعية شديدة الجذب لصالح المادة الوراثية التي تحتوي على الجين المنتج لإنزيم «اللكتيز». وهذا ما تؤيده الأبحاث الحديثة التي أجريت على سكان أوروبا الحاليين. فقد وُجد أن الجين المنتج لهذا الإنزيم موجود في 90% من السكان في الوقت الحالي. ويؤكد عالم الأحياء بول شيرمان بجامعة «كورنيل» الأمريكية في دراسة أخرى، أن الأشخاص الذين عاش أجدادهم الأوائل في بيئات سمحت لهم بتربية الماشية والحصول على ألبانها، هم من يملكون في وقتنا الحالي الجين المنتج لإنزيم «اللكتيز» في مادتهم الوراثية. أما هؤلاء الذين تعودُ أصولهم إلى بيئات لم تسمح بتربية الماشية، فإنهم لا يملكون هذا الجين، وبالتالي لا يستطيعون هضم الألبان أو منتجاتها.

قصة ابتكار

ساعة المعصم



ما من ابتكار حظي بإجماع وتطبيق عالمي مثل ما حظي به نقل الساعة من الجيب إلى المعصم، وربطها به بواسطة سوار من المعدن أو الجلد أو غير ذلك. وهناك خلاف حول صاحب هذا الابتكار.

فعلى الموقع الإلكتروني «أجوبة ياهو»، نجد زعماً أن مبتكر ساعة المعصم هو باتيك فيليب في أواخر القرن التاسع عشر. ولكن، وصلنا من ضمن جواهر الإمبراطورة جوزفين (زوجة نابليون) التي عاشت في أوائل ذلك القرن ساعة يد مصنوعة من الذهب، صاغها لها الفرنسي «نيتو». وهذا ما يعزِّز صدقية المصادر التي تنسب صناعة أول ساعة معصم للسويسريَين جاكي-دروز وليشيه في العام 1790م.

والمؤكد أنه طوال القرن التاسع عشر، ظلّت ساعة اليد في إطار الحلي النسائية، وغالباً ما كانت عبارة عن سوار من الذهب والحجارة الكريمة، مرصّع بساعة صغيرة. أما الرجال فقد ظلوا يعتمدون ساعات الجيب المربوطة إلى الحزام بسلاسل، حتى بدايات القرن العشرين.

ويروى أن المخترع البرازيلي، ألبرتو سانتوس دومون، كان وهو يحلّق بطائرته الأولى، يعاني من صعوبة من التطلع إلى الساعة في جيبه من حين إلى آخر، فطلب إلى صديقه صانع الجواهر الفرنسي لويس كارتيه أن يصمم له ساعة يسهل التطلع إليها من دون عناء إخراجها من الجيب. فما كان من كارتيه إلا أن أعطاه بعد وقت قصير ساعة ذات حزام من الجلد لربطها إلى معصمه.

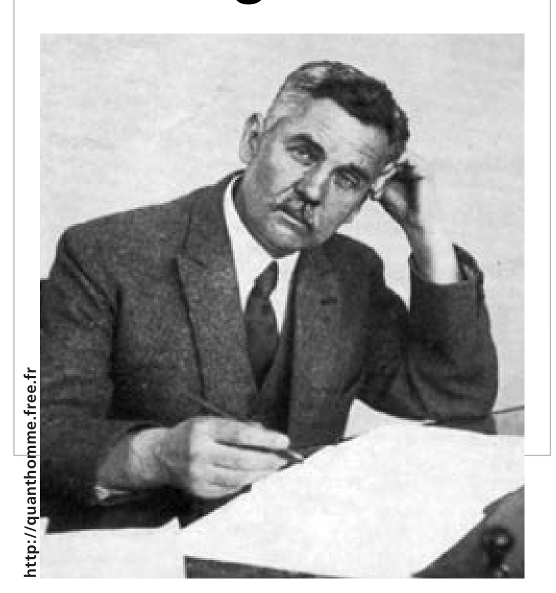
بعد ذلك بسنوات قليلة، وخلال الحرب العالمية، واجه الضباط في الميادين المشكلة نفسها التي واجهها دومون، فأرادوا ساعات يمكن التطلع إليها بلمح البصر، خاصة لضبط العمليات الدقيقة مثل الاستخدام المتزامن للمدفعية. فسارع المقاولون المتعاقدون مع الجيوش لإنتاج ساعات المعصم بالجملة. وبعد انتهاء الحرب، سمحت قيادات الجيوش الأوروبية والأمريكية للضباط بالاحتفاظ بهذه الساعات، الأمر الذي أسهم في الترويج لها في صفوف الطبقة المتوسطة وعاداتها.


www.highlandsfineartandestatejewelry.com

وما هي إلا سنوات معدودة، حتى شارفت ساعات الجيب التي عاشت لنحو ثلاثة قرون على الانقراض دفعة واحدة، وراحت صناعة ساعات المعصم تتطور لتتوجه إلى مختلف الشرائح الاجتماعية من دون استثناء. بحيث باتت تتوافر في أسواق اليوم ساعات لا يزيد ثمنها على ثلاثة دولارات، ذات سوار من المطاط الصناعي، وصولاً إلى ساعات تتجاوز أسعارها عشرات آلاف الدولارات مصنوعة من الذهب أو البلاتين ومرصّعة بالماس.

قصة مبتكر

جـــورج كلـــــود
مبتكر مصباح «النيون»


http://quanthomme.free.fr

مصابيح النيون، سواء أكانت بيضاء للإنارة الداخلية، أم ملوَّنة للاستخدام في الإعلانات عن المتاجر، هي واحدة من ابتكارات العالم الفرنسي جورج كلود، الذي سجَّل باسمه عدداً ضخماً من الابتكارات والاختراعات، غير أن مصابيح النيون هي التي صنعت ثروته.

ولد جورة كلود في باريس عام 1870م، وكان في السادسة عشرة من عمره عندما تخرَّج في معهد الفيزياء والكيمياء. ليبدأ العمل في شركة كهرباء البلدية في العاصمة الفرنسية، حيث تعرَّض لحادث كاد أن يودي بحياته.

في العام 1897م، ابتكر كلود طريقة جديدة لتخزين ونقل الأساثيلين السريع الاشتعال، وذلك من خلال إذابته بمادة الأسيتون، الأمر الذي سهَّل الاستخدامات الصناعية لهذه المادة. وفي العام 1902م، طوَّر هذا المبتكر طريقة جديدة لتسييل الهواء، ليستنبط لاحقاً طريقة أخرى لتوليد الكهرباء من الطاقة الناجمة عن الأكسجين المسال عندما يعود إلى حالته الغازية.

في العام 1910م، اكتشف جورج كلود أن تفريغ شحنة كهربائية في جو عابق بغاز النيون ينتج ضوءاً ملوَّناً. وبسرعة، اكتشف طريقة لتنقية هذا الغاز وحبسه في أنبوب زجاجي، وفي العام نفسه عرض أول مصباح كهربائي يعمل بغاز النيون في «المعرض الفني» في باريس.

النجاح الذي حظي به هذا الابتكار خلال المعرض، دفع مبتكره إلى التفكير في طي الأنبوب الزجاجي ليتخذ شكل حرف أو رسم معيَّن. وخلال سنوات قليلة راحت تظهر أسماء المتاجر مكتوبة بالضوء في ليالي باريس، ووصل هذا الابتكار إلى أمريكا في العام 1922م، لينتشر بعد ذلك في كافة أنحاء العالم.

ولكن إلى جانب هذا الابتكار الجميل، ابتكر كلود أشياءً مثيرة للجدل، ومنها الكلورين السائل الذي استخدم كسلاح كيميائي خلال الحرب العالمية الأولى. وفي فترة ما بين الحربين عمل على دراسة احتمال استخراج الطاقة الكهربائية المتولدة من احتكاك المياه الباردة بالدافئة في المحيطات.

ولأنه خلال الحرب العالمية الثانية تعاون مع حكومة فيشي المهادنة لألمانيا النازية، واجه بعد تحرير بلاده عام 1954م المحاكمة، وسجن لمدة سنوات أربع. وبعد خروجه من السجن، لم يعرف أحد طبيعة الأبحاث التي كان يجريها هذا المبتكر، حتى وفاته بصمت في العام 1960م.

عقب ارتفاع أسعار النفط في السنوات الأخيرة، وربما لأسباب أخرى، لجأت بعض الدول المتقدِّمة إلى التفكير بتطوير مصادر بديلة للطاقة، ومنها إنتاج الوقود الحيوي، الإيثانول، الذي يعتمد على بعض المحاصيل الزراعية، كالذرة وقصب السكر، بهدف تقليل الاعتماد المطلق على المصادر التقليدية من الطاقة والحد من التلوث البيئي الذي يتسبب به الوقود الأحفوري.

أول غيث الوقود الحيوي.. 30 مليون فقير!

م. أمجد قاسم*

هذه السياسة الصديقة للبيئة كما تدَّعي بعض الدول الصناعية المتقدِّمة، كانت أحد الأسباب التي أسهمت في ارتفاع أسعار المواد الغذائية مؤخراً، والتي كان ضحيتها الفقراء في العديد من دول العالم. وفي هذا الصدد، يقول جين زيكلير المقرر الخاص للأمم المتحدة: «إن الاستخدام المتنامي للمحاصيل الزراعية لإنتاج الوقود الحيوي كبديل عن الوقود الأحفوري، هو جريمة ضد الإنسانية». كما أكدت المنظمة الخيرية البريطانية «أوكسفام» في تقرير خاص صدر مؤخراً، أن زيادة إنتاج الوقود الحيوي قد أدى إلى زيادة عدد الفقراء في العالم بنحو 30 مليون شخص. وجاء في تفاصيل التقرير، أن الوقود الحيوي لن يسهم في الحد من الاحتباس الحراري، بل سيزداد تركيز غازات الكربون في الغلاف الجوي، بسبب استغلال مزيد من الأراضي الزراعية والقضاء على مساحات شاسعة من الغابات، لزراعة نباتات مخصصة لإنتاج الوقود الحيوي، بالإضافة إلى زيادة استخدام الأسمدة والمبيدات الحشرية والعشبية والتي تنجم عنها مواد كيميائية سامة.

وفي السياق ذاته، انتقد روب بيلي، مستشار المنظمة الخيرية البريطانية في مجال سياسات البيئة، الدول الغنية، بسبب دعمها المالي والقانوني لسياسة إنتاج الوقود الحيوي، والذي كان على حساب قوت الفقراء في الكثير من دول العالم، وخصوصاً في أمريكا الجنوبية وبعض مناطق إفريقيا وآسيا. ويوضح بيلي ذلك قائلاً: «إذا كانت قيمة الوقود المستخرج من المنتج الزراعي أعلى من قيمته في السوق كمادة غذائية، فسيتم استخدام المنتج مصدراً للوقود وليس كسلعة غذائية. وبذلك فهم يدمِّرون مصدر معيشة الملايين حول العالم».

لقد قدَّرت العديد من الدراسات، أن إنتاج الوقود الحيوي لعام 2008م ابتلع ثلث إنتاج الذُرة الأمريكية، وأن ملء خزَّان سيارة دفع رباعية بهذا النوع من الوقود، يكفي لإطعام إنسان من الذُرة سنة كاملة، وأن استخدام الذرة لإنتاج الوقود لن يكون فقط على حساب قوت الإنسان، بل سيطال المواشي التي تعلف بالذرة في العديد من مناطق العالم.

إن سياسة تشجيع إنتاج الوقود الحيوي، وما رافقها من دعم وصل في أمريكا وحدها إلى سبعة مليارات دولار لزراعة الذُرة، أدى إلى تقليص مساحة الأراضي المزروعة أرزاً أو حبوباً أخرى، مما نجم عنه ارتفاع حاد في أسعار تلك المحاصيل المهمة لغذاء الإنسان وندرتها.

من جانبهم، زعم أنصار الوقود الحيوي، في عام 2006م، بأن الارتفاع في أسعار الحبوب المستخدمة لإنتاج الوقود الحيوي، سيتوقف بعد أن تتبلور هيكلية هذا القطاع الجديد من الطاقة. لكن هذه التوقعات فشلت، وازدادت الأسعار عالمياً خلال السنتين اللاحقتين، مما نجم عنه زيادة في تحويل الأراضي الزراعية والغابات، لإنتاج محاصيل الوقود الحيوي.

إن تلك التحولات العالمية في قطاع الطاقة والغذاء، أدت إلى انضمام العديد من الدول والتجمعات السكنية في مناطق مختلفة من العالم إلى نادي الفقراء والمعدمين. وإذا كان هناك من يبشر بعصر النفط الأخضر، فإن ذلك سيكون على حساب قوت الملايين في بعض دول العالم الفقيرة.

* كاتب وباحث علمي من الأردن



عامر الهلابي

- مصوِّر سعودي من مواليد جدة.
- خريج المعهد المهني قسم التصوير الفوتوغرافي 1420هـ.
- بدأ التصوير الصحافي عام 1999م
- مصوِّر صحافي في صحيفة الحياة.

وهذا العام..
كما في كل عام..
تتجه نحوك العيون
كما القلوب..
يا مكرّمة بين
القرى..
وأنت في بهائك
الكامل..
عروسة الإيمان.
يكسوها البياض
ويغمرها برداً
وسلاماً..
هنيئاً لك وهنيئاً
لمن سعى إليك..
فكان سعياً مباركاً.









زمن الهوائي الهانئ

حزامة حبايب*

كأنه وُجد في حياتنا منذ أمس فقط، عاش وعاش وكم عاش، ثم غاب؛ فكأنه غاب منذ مليون أمس، كأنه تداعى من وجوده العالي: مُعلَّقاً في الهواء، رانياً إلى السماء، متشوِّفاً موجات الفضاء، ثم انهال وتهشَّم مرة واحدة، لتظل أصواتٌ وصورٌ بعيدةٌ، مرتبكةٌ، مهتزّةٌ، واهنةٌ لوقائعه وحكاياته مرتاحةً في الذاكرة، هانئةً في بال العمر الفائت، ساندةً «لا يقين» العمر المتبقّي.

إنه هوائي التلفزيون، الذي رافقنا فصولاً يانعةً وشغوفةً من حياتنا، يوم كانت الحياةُ حياةً، بتفاصيل أقل اكتظاظاً، أكثر استرخاءً، أوسع مدى، أرحب أملاً، زاخرة باحتمالات أوفر للاكتشاف. في زمن الهوائي السحيق، صنع الهوائي –ذاك الهيكل المعدني الهزيل المنصوب على الأسطح كفزاعات في حقول برية– فُرجتنا. كانت الفرجة الغابرة محصورة بقناتين تلفزيونيتين، وربما استلفنا شيئاً من صور مشوّشة من محطات الدول التي تحتكّ حدودها بحدودنا، المجاورة لفرجتنا، وذلك حسب قدرة الهوائي –هذا الاختراع السحري وفق تصنيف أزمنة طفولة المعرفة– على التقاط حياة تحاذي حيواتنا دون أن تشبهها بالضرورة؛ كذلك حسب مزاج الطقس النّزق، فإذا ما شحبت الفُرجة، فتشتّت الصورة وشتّ الصوت وضاعت الحكاية وسط سحابة من الغبش، عهدنا بأحد كائنات البيت، مشهودٌ له بالرشاقة والخفّة والبداهة، كي يصعد إلى السطح ليحرّك الهوائي المتمنّع ويضبط مزاجه المتقلقل.

ثم يبدأ ذاك المشهد الحياتي المتواتر. يتدلّى أحدنا من نافذة غرفة المعيشة، بالجسم معلّق نصفه –على الأقل– في الهواء، يمط رأسه إلى أقصى ما يتيحه العنق المشرئب نحو الأعلى، مُعطياً تعليماته لكائن الهوائي على سطح المبنى محدود الطوابق، صائحاً: «حرِّكه في الاتجاه الآخر!» ثم يهبط صوت كائن الهوائي من فوق متسائلاً: «هل جاءت الصورة؟»، فيرد نصف الجسم المعلَّق: «ليس بعد. حرِّكه إلى اليمين»، فيحركه كائن الهوائي إلى اليمين. «والآن؟!» يستفسر. فيأتيه الجواب: «هكذا أفضل، حرِّكه أكثر.. توقفْ. لقد جاءت الصورة!» ولا يبدو أننا نشعر بالحرج أو نظن للحظة أننا نسبب الإزعاج لغيرنا، ذلك أن كائناً هوائياً آخر قد يتقاسم وكائننا السطح والصياح، متبادلاً التعليمات مع جسم معلَّق آخر. ففي كل البيوت ثمَّة فرجة عالقة في الجو لم تصل لسبب أو لآخر على شاشة التلفزيون، وكائنات هوائية تضبط الهوائيات الشبيهة بفزاعات حائرة، ونوافذ مفتوحة على أنصاف أجسام مشرئبة، مستسلمة لقدر البحث عن صورة مراوغة.

رحل الهوائي. لم نعد نذكر هذا الذي كنا نسميه «الأنتين» أو «الإيريال»، ملحّنين تسميته الإنجليزية. برحيله كأن خيالنا الشخصي تقلّص، مكتفين بخيال جماعي شبه مكتمل. برحيله كأن حياتنا انكمشت هناءتها. ففي زمن الصورة المحدودة أو المهدّدة بالغبش الفجائي وربما الزوال، كنا نعانق الشاشة بعيون عطشى، وآذان لا تحيد عن الإصغاء، ومن ثم نصوغ مخيالنا بالحد المتاح من صور وأصوات نقبض عليها بجمر التوق. علّمتنا تلفزيونات الهوائي طقس الفرجة الأصيلة، الفرجة التي تبدأ بوقت محدد في اليوم وتنتهي في ساعة تتخطى انتصاف الليل بقليل، تعقبها موسيقى الوداع، والـ «الشششش» المميزة لانقطاع البثّ المقنَّن، وبالتالي كان علينا إذن أن نَعُبَّ منها قدر ما نستطيع، بقدر ما تقدِّمه لنا.

في زمن الهوائي، كان الخيال الآتي من الشاشة محدوداً، يسيراً، لكنه كان معقولاً لتحفيز خيالاتنا الفردية التي تجتهد كي تكون وتتكوّن بطريقتها. لم يكن الخيال الذي يطالعنا من الشاشة فذاً وخارقاً، وفي أحيان كثيرة لم يكن مدهشاً وفاتناً وآسراً، لكنه كان ينخز خاصرة الشعور علّنا نلتجئ إلى تخيّل ما قد يكونه خيال آخر غير مُتاح.

اندثر الهوائي وتناءى زمانه النائي، والصورة التلفزيونية أضحت اليوم نقية في زمن الفضاء المعبّأ بقنوات محسّنة، متدفقة، لا يعترض موجاتها مزاج الطبيعة المتقلّب. ومن قناتين يتيمتيّن في ماضينا، إلى جانب قناة أو قناتين مستلَفتيّن بصعوبة من جغرافيا مجاورة، نفتح التلفزيون في زماننا الراهن بقدر قليل من التماس –وبقدر أقل من التوق– على مئات القنوات، التي لا تنام، وملايين الصور السريعة والأصوات الهادرة التي نبترها إذ ننتقل بقلة صبر وكثير ضجر من قناة لأخرى، في فرجة متلعثمة، متعثِّرة، تُسفح فيها خيالات كثيرة متشظّية، لا مجال لجمعها، كما لا تترك وراءها رغبة في استكمالها، لا تثير تحدياً، لا تخلف تساؤلاً من نوع ماذا لو، ولا تترك حنيناً من نوع يا ليت.

كائنات الهوائي الرشيقة استقرت على الكنبات بثقل. وزمن الهوائي حزم الصور القديمة وغادر، والمخيال الذي كنا نفصّله ونحيكه من فرجتنا الضئيلة بات جاهزاً، مقاسه يناسب الجميع.

مضى الهوائي. استرخت كائنات الهوائي. والحياة لم تعد هانئة. 

* روائية فلسطينية



المصرف، المحامي، المدرسة، النادي الرياضي..

ماذا يخبِّئون عنك؟

هل تشعر في بعض الأحيان أنه تم استغلالك من جهات تتعامل معها، أو أن محدِّثك في تلك الجهات أخفى، أو يخفي، عنك أموراً، لو كنت تعلم حقيقتها لتجنبت الوقوع في مشكلة؟ أحياناً نشك، وأحياناً نكتشف ما كان مخبأ ولكن بعد فوات الأوان. ولذا، تأخذنا مهى قمر الدين* في جولة على بعض القطاعات التي يمكن للكثيرين أن يتعاملوا معها في حياتهم اليومية، وتطلعنا على ما يمكن للعاملين فيها أن يخبئوه عنا، خاصة خلال إقناعنا بتأسيس علاقة معهم، أو بالاستفادة من خدماتهم.. وطبعاً من دون أن يعني ذلك تعميماً على كل العاملين في هذه القطاعات. ولكن تجارب الكثيرين منا تؤكد أنهم عانوا من إخفاء الحقائق عنهم في بعض هذه المجالات، ولعل في الآتي ما يساعدهم على عدم الوقوع في الخطأ نفسه مرتين.

رسوم المقال: المحترف السعودي - دينا خليفة

* باحثة اجتماعية من لبنان



1 ـ المصرف

خلال ذروة أزمة الرهن العقاري في أمريكا، عقدت مقدمة البرنامج الحواري الشهير أوبرا وينفري حلقة استضافت فيها عدداً ممن سبق أن اقترضوا أموالاً من المصارف لشراء مساكنهم، والأمر المدهش الذي ظهر خلال هذه الحلقة أن المقترضين كانوا يجهلون الكثير من شروط المصارف التي وقَّعوا عليها، ولم يقرأوا بنود العقود بدقة. الأمر نفسه تكشَّف في حلقة أخرى خاصة بمشكلات حملة بطاقات الائتمان، حيث أجمع كل الذين يعانون من مشكلات مع المصارف أنهم لم يقرأوا لائحة الشروط الطويلة التي تضمنتها الصفحات العديدة التي وقَّعوا عليها قبيل حصولهم على البطاقات، فدفعوا لاحقاً ثمن ثقتهم العمياء بالمصرف.

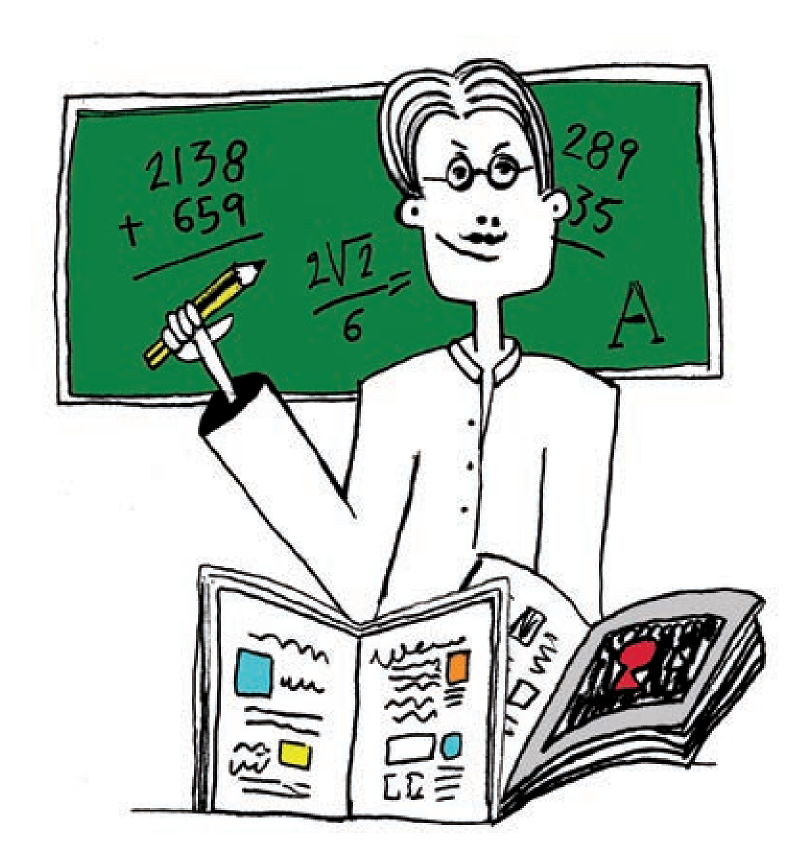
ونحن.. هل قرأ أحدنا هذه الأوراق المطبوعة بأحرف صغيرة قبل حصوله على بطاقة الائتمان أو بطاقة الصراف الآلي لحسابه الجاري؟

من الأمور التي تخفيها المصارف ولا تصرِّح بها، هي أن الرسوم التي تفرضها على عملائها في ارتفاع مستمر. فالرسوم الجزائية على سحب كمية من الأموال تفوق حسابك، أو على استخدام الصراف الآلي التابع لمصارف منافسة، تضاعفت بين عامي 1998 و2007م. ومما لا يعرفه الزبائن، هو أنه مهما كانت النسبة المئوية المشار إليها في الاتفاقية التي تعقد بين الزبون والمصرف فيما يتعلق ببطاقات الائتمان، لا يمكن التأكد من النسبة التي يأخذها المصرف فعلياً. فمثلاً، تنص معظم لوائح المصارف على نسبة مئوية تدفع في حال التخلف عن إيفاء الاستحقاقات المالية المتوجبة وهي نسبة تبلغ 30% عندما يتأخر الزبون عن التسديد مرتين خلال 12 شهراً. ولكن بعض المصارف خفضت عدد المرات إلى مرة واحدة فقط خلال نفس الفترة من دون أن تعلم الزبائن بذلك.

والأمر الآخر الذي لا تعرفه عن المصارف هو أن معظمها، ومنذ التسعينيات من القرن الماضي، صار يفرض اتفاقات التحكيم في كثير من العقود التي يبرمها بالنسبة لقروض شراء السيارات وبطاقات الائتمان والحسابات الجارية وغيرها. ومثل هذه الاتفاقات تمنع المقاضاة القضائية وتفرض اللجوء إلى محكِّم أو وسيط، وهو شخص يتم اختياره من قبل شركة تحكيم تكون مذكورة في العقد. وهناك دعوة أقامها محامي دولة ضد شركة تحكيم في سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة أظهرت أن الوسطاء أو المحكمين الذين يعملون لديها حكموا لصالح المصارف في 100% من الـ 18045 قضية التي رفعها الزبائن. وهذا يشكل كابوساً حقيقياً بالنسبة لهؤلاء.

الأمر الآخر، هو أنه عندما يتعلَّق الأمر بالمصارف، فإن الأصغر قد يعني الأفضل. وهذا ما لا يقوله لك العاملون في المصارف الكبرى. وفي الآونة الأخيرة سمعنا عن اندماج عدد من المصارف مع بعضها مما يوفر للزبائن خدمات أوسع في عدد آلات سحب الأموال الأوتوماتيكية، وسهولة وجود فروع عديدة منتشرة على مساحة أكبر. ولكن هذا الأمر ليس بالضرورة بالأمر الجيد للزبائن. إذ يقول آرثر ولمارث، وهو أستاذ القانون في جامعة جورج واشنطن، إنه «وبالرغم من التسهيلات التي تقدِّمها تلك المصارف الأكبر، فإن ذلك يأتي مع ثمن تدفعه أنت. وهذا الثمن هو الرسوم العالية. فهذه الرسوم تشكِّل أكثر من نصف مدخول المصارف الكبرى بينما تشكِّل أقل من 30% من مدخول المصارف الصغرى».

المصرف: يخبئ الكثير من التفاصيل الواردة في الأوراق الكثيرة التي يُطلب منك أن توقِّعها عند فتح حساب أو طلبك بطاقة ائتمان



2 - المحامي

مـن النـادر جـداً أن تسمع من المحامي قولـه: «إن قضيتك خاسـرة، ولا أمل لـك بكسبهـا». فأمام مثل هـذه القضايا الخاسرة، يمكن لبعض المحامين أن يحدثوك عن «صعوبة القضية التي لا تخلو من الأمل». ولماذا؟ لأن هذا يُهيئُك لأن تكون مستعداً لدفع مبلغ أكبر.

ومن الأمـور التي يخفيها المحامي هـو نجاحه في مجالات قانونيـة محددة مقابـل ضعف خبرته في مجـالات أخرى. ولذا، مـن الضروري السـؤال والبحث في تاريـخ المحامي على المسـتوى المهني لمعرفة نوعية القضايا التي نجح في المرافعة عنها أكثر من غيرها.

ومـن الأمور التي لا يقولها لك مديـر مكتب المحاماة الكبير، هـو أنه وإن استقبلك في المرة الأولى للاطلاع على قضيتك، فإنه إذا كان يتابع قضايا أهم من قضيتك، سيحيل ملفك إلى أحد المحامين المتدربين في مكتبه الذين تخرجوا حديثاً في كليات الحقوق، ولا خبرات مهمة لهم في متابعة القضايا التي تحتاج إلى تحقيق معمّق ومرافعة معقدة أمام القضاء.

ومـاذا عندمـا يسعى المحامـي إلى عقد الاتفـاق معك في شقه المالي وبدل أتعابه؟

مـا لا يمكـن أن تسمعه مـن المحامي هو قولـه: «يمكنك أن تكسـب القضية. ولكنك لن تجني فـي النهاية أي شيء على المسـتوى المادي». ولمـاذا؟ لأنه في معظـم البلدان هناك ضرائب تفرض على المكاسب من الدعاوى القضائية، وعلى انتقـال الملكية مـن شخص إلى آخر وغيـر ذلك.. وبالتالي مـن المحتمل في بعض الحـالات أن تطيح الضرائب وأتعاب المحامي بكل ما يمكن أن يطمح إلى جنيه صاحب القضية.

3 - المدرسة

إذا مـا نظرنـا إلـى المدارس الخاصة في معظـم البلدان العربيـة، فسنجـد أن بعضها يخفـي عن الأهـل حقيقة أن مـا يدفعونه من أقسـاط وتوابعهـا يمكن أن يكـون البداية فقـط. فبعدما يظـن الأهالي أنهم دفعوا مـا توجب عليهم، تظهـر خـلال السنة الدراسية مصاريـف كبرى لم تكن في الحسبـان. وفي واحدة من أرقـى المدارس الخاصة في بلد عربي، على سبيل المثال، وصل إجمالي ما توجب على ذوي تلميذ في المرحلة الإعدادية أن يدفعوه على شكل متفرقات خلال السنة الدراسية إلى نحو 40% من القسط السنوي.

المدرسة: تبلغك بقيمة القسط السنوي، وليس بما ستطلبه منك خلال السنة الدراسية

فالمدارس الخاصة تفخـر بوجود أوجه نشـاط «لا صفية» (أي خارجـة عن الصفـوف الدراسية)، وتتجهـز بالأندية الثقافية والرياضيـة والترفيهية التي تعزِّز موقعها التعليمي وتكمل صورتها النخبوية والأكاديمية. وبعض هذه المدارس يتقاضـى بدل الاشتـراكات الشهرية في هـذا النشاط على مسـتوى الفصل الدراسي، أو دفعة واحدة. ولكن ما لا تقوله المدرسة، هو أنها ستوقف هذا النشاط لمدة شهرين خلال العـام الدراسي بسبـب الامتحانات، أو انشغـال المشرفين عليهـا بأمـور أكاديمية أخرى. ومـن النـادر جـداً أن تكلِّف المدرسة خاطرها للكشف عن كفاءات المشرفين على هذه الأنديـة. وعندمـا يغيب حديثهـا عن هذه الكفـاءات، فهذا يعنـي أنهـا غير موجودة. وفـي هذه الحالة، علـى الأهل ألاّ يتوقعوا الكثير من النتائج الإيجابية من إشراك أبنائهم في مثل هذا النشاط اللاصفي.

والواقـع أن صمـت المدرسـة في هـذا المجـال ليس وحده المسـؤول عن الخيبـات التي سيواجههـا ذوو التلامذة، ولا المشـكلات المادية التي ستبرز فجـأة أمامهم خلال العام الدراسـي. فمـن الملاحـظ أن الأهالي غالباً مـا يواجهون صمـت المدرسـة وتخبئـة بعـض الحقائق عنهـم، بصمت مقابـل وتخبئة بعض الحقائق من جهتهم أيضاً. فهناك من يستخف، عن سوء تقدير، بما يمكن أن تبلغه تكلفة النشاط اللاصفي والرحلات المدرسية والكتب غير المقررة منذ



مطلـع العـام الدراسـي. وبعض الأهالـي، يعتبـر أن سمعة المدرسـة لا توجب فتح تحقيق أو استطلاع ما تخبئه.. «لأن المدرسـة الجيدة لا تخبـئ شيئاً». كمـا أن هناك الكثيرين ممـن يشعرون بحرج مـن استطلاع التكاليـف المستقبلية، تلافيـاً للإفصاح عن قدراته الماليـة المحدودة أمام إدارة المدرسـة، فيكتفي بتأجيل مواجهـة المشكلة المتوقعة حتى وقت ظهورها.

4 – طبيب الأسنان

من الأمور التي لا يقولها لك طبيب الأسنان هو أنه «ليس من الضروري أن تزورني كل ستة أشهر».

فـي السنـوات الأخيرة، أخذ أطبـاء الأسنـان يؤكدون على مرضاهـم بوجوب زيارتهـم كل ستة أشهـر. ولكن من أين نشـأت هذه القاعدة؟ نشأت من كتاب كوميدي كان قد ألَّفه الكاتـب الإنجليزي جورج غروكشانك بعنوان «ألم الأسنان» منذ 150 عاماً. ومنذ ذلك الوقت، أصبح الكشف الطبي عن الأسنان كل ستة أشهر قاعدة عامة. ولكن الأمر ليس مفيداً في جميع الأحوال. لأن ذلك يعني أن جميع النـاس معرضون لأمراض الأسنان واللثة بنفس الدرجة، وهذا ليس منطقياً.

جرَّاح التجميل: لا يبلِّغك أن كل جراحة تجميلية ذات مدة صلاحية محدودة، ولا أن المشكلة التي تشكو منها لا تستدعي الجراحة

يقول أحد أطباء الأسنان «إذا ما نظرنا إلى الطبقة الوسطى فنجد أن نسبة قليلة منهـا معرَّضة لأمراض الأسنان واللثة لذلـك هي ليسـت بحاجـة لزيارة طبيـب الأسنـان مرتين سنوياً».

ومـا لا يمكـن أن يقولـه طبيـب الأسنـان هـو أن حشـوات الأسنـان المعدنية قد تسرِّب بعض السموم. معظم حشوات الأسنـان المستخدمة اليوم هي مزيج مـن الزئبق والفضة والقصدير. وكان الاعتقاد السائد بأنها ثابتة إلى حد بعيد. ولكـن تم الاكتشـاف، فيما بعد، بأن تلـك الحشوات تسرِّب بخـار الزئبق الذي يمكن أن يدخل فـي مجرى الدم بمعدل 10 ميكروغرامـات يوميـاً. وهذه نسبة تبلـغ أربعة أضعاف الكميـة التي تدخل جسم الإنسان الطبيعي بواسطة الغذاء. وقد أثبتـت دراسات حديثة تشير إلـى أن الخراف والقردة التـي تم حشـو أسنانها بهذا المزيج أظهـرت بعد فترة من الزمـن تراجعاً في عمل الكلى، كمـا وُجدت آثار من الزئبق فـي أماكن مختلفة من الجسم. فمـا الحل؟ من أجل تجنب هـذا المزيج يمكـن طلب حشـي الأسنـان بمـادة الريسن (Resin)، بالرغم من كون تكلفتها أغلى.

ومع رواج جراحـة الأسنان التجميلية، ومع وجود التوصيات بأن تكون زيارة طبيب الأسنان خالية من الألم، وبما أن تلك العمليـات تأخذ وقتاً طويلاً، راح أطباء الأسنان يستخدمون مختلـف أنـواع التخديـر لتجنيـب مرضاهم الأوجـاع. أما المشكلـة فتكمـن فـي أن الزيادة فـي استخـدام التخدير والمهدئـات يزيـد من مخاطـر حصول مضاعفـات سلبية عديـدة بعـد العملية، ولكنه مـن وجهة نظـر الطبيب يريح المريض ويجعله مرتاحاً إلى طبيبه.

5 – جرَّاح التجميل

تستحـق جراحـة التجميـل استطلاعـاً خاصـاً بهـا، نظراً لمـا يعتـري «صناعتها» مـن مشكلات. فهي مـن جهة ذات تكلفـة عاليـة، ومن جهـة أخرى، فـإن شـركات التأمين لا تغطي تكاليف هـذه العمليات، مما دفع بالعديد من الأطباء المتخصصيـن وغيـر المتخصصيـن إلى افتتـاح عيادات تجميل، كثر بعضها بشكل لافت في بعض البلدان العربية.

مـا لا يقوله لك جـرَّاح التجميل أن منظر هـذا الجانب من وجهك أو ذاك مقبـول ولا يشكِّل تشوهاً يستدعي الجراحة. ومـا لا يقوله لـك جرَّاح التجميـل أن واحدة مـن كل خمس

عمليات جراحيــة لتجميل الأنف على مستوى العالم، تُجرى لإصــلاح تشوه حصل في جراحة فاشلة سابقة، وأن إصلاح الجراحة في حال فشلها هو أغلى تكلفة من الأولى.

ومــا لا يقوله لك جــرَّاح التجميــل، إلا إذا سألته، هو أن كل جراحة تجميلية مهما كانت ناجحة، هي ذات مدة صلاحية معينــة، وتستدعي إعادة ترميم وتصليح بعد مدة معينة، إذ إن الوضــع يأخذ بالتدهور بسرعــة وبشكل أسوأ من السابق عنــد انقضاء مدة فاعلية الجراحة، خاصة في مجالات شد البشــرة وشفط الدهــون، والحقن بالمــواد المختلفة لإزالة التجاعيد وما شابه ذلك.

ولأن المنافســة الشرسة قائمة بين الأعــداد المتزايدة من الجراحين التجميلييــن، يسعى بعضهم إلى التزود بآخر ما توصلت إليه التكنولوجيا والمختبرات من اكتشافات وأدوات تخــدم هذه الصناعة، والأمر بحــد ذاته لا يتضمن مشكلة، لا بــل إنــه محبــذ.. ولكن بعضــ جراحــي التجميــل الذين يسعــون إلــى استقطــاب زبائنهم مــن خلال هــذه الوسائل الحديثــة والبرَّاقة (وصولاً إلى الحديث عنها في الإعلانات علــى اختلاف أنواعها)، لا يرفقــون حديثهم هذا بإشارات واضحــة إلى مــدى نجاح التجــارب التي خضعــت لها هذه الوسائــل، ولا إلــى نسبهــا المئوية، حتى أن بعضــ الوسائل والتقنيات الشهيرة في عالم التجميل لا تزال مجهولة الآثار على المدى الطويل. والكل يعرف قصة السيليكون الذي كان يبــدو آمناً حيث يُحقــن تحت الجلد، وتبين بعــد سنوات أن آثــاره السلبية واحتمــالات تسببه ببعض أنــواع السرطانات هي أكبر مما كان يعتقد في البداية.

والأمر الآخر وليس الأخيــر، الذي يتوجب على بعض أطباء التجميل قولــه، ولا يفصحون عنه إلا نادراً، أنه من الأفضل للزبــون في بعض الحــالات أن ينفق ماله على معالج نفسي. لأنــه في حالات كثيرة تكون المشكلة نفسية وليست جمالية. لذلــك تجد أشخاصــاً كثيرين لا يكتفــون بعملية واحدة، بل تكــرُّ السبحــة، فيتنقلون مــن عملية إلى أخــرى من دون أن يشعــروا بالرضى. وهنــاك دراسة تشير إلــى أن 15% من الأشخاصــ الذيــن يلجأون إلــى تلك العمليــات يعانون مما يسمَّــى (BDD)، أو (Body dysmorphic disorder) وهو خلل فــي النظرة التي يتطلعون بها إلى أنفسهم، فيضخِّمون الأمــور، ويرون أشياءً لا يراها أحــد غيرهم على أنها معيبة المظهر. وهذا مرض لا تعالجه الجراحات التجميلية، بل إن عيادات الطب النفسي هي المكان الأنسب لذلك.

6 – مهندس الديكور

مــع ازديــاد الاهتمام بالمنــازل وفرشهــا وتزيينها ازداد الطلــب علــى مهندســي الديكــور. ولكــن غالبــاً مــا يتم اختيارهــم مــن خلال أصحــاب ومعــارف، وقلَّمــا يُسأل هــؤلاء عن مؤهلاتهــم العلميــة وشهاداتهــم الأكاديمية. ومع غيــاب الرقابة في هــذه الناحية، نجــد أن الكثيرين يكتفــون بالتمتع بالــذوق الرفيع للعمل في هــذا المجال. ولكــن توكيل مثــل هــؤلاء الأشخاص قد يُنتــج، في بعض الأحيــان، مشــكلات وخراباً على المــدى المنظور أو غير المنظــور. فمهندســ الديكــور لا يقــول لــك إنــه لا يفقه شيئــاً في هندســة الكهرباء وقد يعمد إلــى تركيب أدوات كهربائيــة في المنزل تفوق طاقــة المنزل الكهربائية مما قــد يتسبــب بحريــق أو قد يعمــد إلى تكسير جــدران في المنــزل تؤثــر لاحقاً على أساســ المنزل إلــى ما هنالك مــن أمور. والجملة التــي يتجنب مهندســ الديكور قولها هــي «إنه بالإضافة إلى إعادة تأهيل منزلك سيعيد تأهيل ميزانيتــك». فغالباً ما يعتبر مهندســو الديكور الميزانية المحددة مــن الزبون وكأنها فقط لشراء الأثاث والدهان والبلاط والخشب الخ... وأنها لا تتضمن أتعابه ولا إيجار التوصيل والتركيب وإيجار العمال. لذلك، يجب أن نطلب قائمة كاملة بالمصاريف قبل المباشرة بالعمل.

عبــارة أخرى لا يقولها مهندس الديكــور هي «أن استخدام الأشخاصــ الذين أتعامل معهــم شخصياً قد يكلفك أكثر». فعندمــا يأتي وقت التبليط أو الدهان أو التركيب، قد يقترح عليك مهندس الديكور أشخاصاً يتعامل معهم هو شخصياً، ولكــن القبــول بهذا الاقتراح غالبــاً ما يكون أكثــر كلفة لأن مهندســ الديكور عادة يأخذ عمولــة من المقاولين والعمال الذيــن يتعامل معهم، وهذا بالطبــع يبقى طي الكتمان «لأنه ليس من شأنك».

ومــا لا يحدثك عنه مهندس الديكور هــو الفرق بين اختيار الأثــاث حسب الطلب والأثــاث الجاهز. فــي بعض الأحيان عنــد وصول هذه الكنبــة أو تلــك الستارة إلــى المنزل بعد طلبهــا خصيصــاً من المصنع لا تكون ملائمــة أو قد تشكو من مشكلــة ما. عندها نضطــر إلى إعادتهــا لإصلاحها أو حتــى طلب واحدة أخــرى مما يرتِّب علينــا تكاليف إضافية لــم تكن في الحسبــان. لذلك، من الأفضل، قــدر الإمكان، تجنب طلــب أي نوع من الأثاث إذا كان الأثاث الجاهز يلبي الحاجة.

7 – الميكانيكي

ما لا تسمعه مــن أي ميكانيكي يقوم بتصليح سيارتك «بأنه يقوم بتصليحات غير ضروريــة طوال الوقت». في كثير من الأحيــان عندما يذهب أحدهــم لتصليح سيارتــه غالباً ما يدفع بدلاً لتصليحات لم يتم القيام بها أصلاً، إن كان ذلك عــن قصد أو عــن غير قصد. لذلــك من المفيــد دائماً أن نطلب رؤية القطع القديمة وحتى أن نأخذها معنا.

هنــاك عبــارة لن تسمــع أي ميكانيكــي يتفوه بهــا وهي «أن محرك سيارتك معقَّد كثيــراً ويفوق قدرتي على إصلاحه». لقــد أصبحــت تركيبة الكثير مــن السيارات معقَّــدة للغاية وأصبحت قلة الكفاءة لدى بعض الميكانيكيين في تصليحها تدفعهم إلى محاولة إصلاحها بتغيير قطعة وعندما يحصل الأمــر يعمدون إلى تغيير قطعة أخــرى ويستمرون بالتجربة إلــى أن يصيبوا. وقد لا ينجحوا فــي ذلك أبداً. لذلك يجب التأكــد من كفاءة الميكانيكي الذي نتعامل معه وقدرته على التعامل مع السيارات الحديثة.

وعندمــا يتذاكى صاحب السيــارة ويعتقد أنــه حدَّد موطن الخلل والعلاج، فيطلب مــن الميكانيكي تنفيذ عمل محدَّد، لا يمكنــه أن يسمــع الميكانيكي ليصحح له خطــأه. بل تراه ينفِّذ ما طلب إليه تنفيــذه، وبعد انتهاء العمل وتقاضي بدل الخدمــة، يمكنه أن يستمتــع برؤية الزبــون خائباً من عدم زوال مشكلــة السيارة، التــي تطلب عملاً آخــر وستدر على الميكانيكــي دخــلاً إضافياً عنــد عودتها ثانية إلــى ما بين يديه.

8 - متاجر المتممات الغذائية

زاد انتشار هذه المحــلات مؤخراً مع زيادة الوعي الصحي والحرص علــى الوقايــة من الأمراض. وهي تبيــع العديد مــن المنتجات الطبيعيــة. ولكن يجب الانتبــاه إلى أن كلمة «طبيعــي» أو «عضــوي» لا تعني بالضــرورة «صحي». فهناك اعتقــاد بــأن المنتجــات العضويــة تحتــوي علــى مغذيــات أكثــر بكثير من المنتوجــات العادية. وربمــا كان هذا الأمر صحيحــاً. ولكــن مع غيــاب الرقابــة الصحيحــة على تلك المنتوجــات لا يمكــن التأكــد مــن أنهــا تتبع شــروط إنتاج المنتوجــات العضويــة الصحيحــة. كلمــة «عضــوي» تعني مــواد زُرعت من دون استخدام مبيــدات أو أسمدة صناعية ومــن دون أي تعديــل جينــي أو أي تعرُّض للمــواد المشعة. أما اللحــوم العضوية فهي التي تأتي مــن الطيور والمواشي التــي لم تُعط أي مضادات حيويــة، ولم تُحقن بالهورمونات والتي تمت تغذيتها بمنتوجات عضوية خالية من المنتوجات الحيوانيــة. ولكــن كيف السبيــل إلى التأكد مــن أن كل تلك الشروط مطبقة بالكامل؟

بالنسبة للمكملات الغذائية من الفيتامينات والأعشاب التي تبــاع في تلك المحــلات فهي لغز كامن بنفســه. إن منتجي تلــك المكملات ليســوا مضطرين أن يثبتــوا فعاليتها لأنهم لا يزعموا بأنها تشفي أو تمنع أي مرض.

أمــا العبــارة التــي لا يمكــن أن يقولهــا لــك موظفــو تلــك المحــلات فهــي أن «تلقــي النصيحــة منــا يمكــن أن يكون مضــراً بصحتك». معظم هؤلاء الموظفون ليسوا خبراء في المجال الصحــي. في عام 2003م نشــرت مجلة «الأبحاث فــي سرطان الثدي» دراسة قام بها عدد من الباحثين قاموا بزيــارة إلى 34 محلاً مــن المحلات التي تبيــع المنتوجات الصحيــة، وهم يدَّعــون أنهم يسألون عن بعضــ الوصفات لأمهاتهــم المصابات بسرطان الثــدي. أوصى موظفو تلك المحــلات بـ 33 منتجاً، لم يكــن لأي منها برهان كاف على فاعليتــه. لذلك، إذا كان الجسم بحاجة إلى أي مكملات أو معالجة، تبقى الطريقة الأفضل هي زيارة الطبيب.

والأمــر الآخــر هــو أنــه بمجــرد كونك فــي محل مــن تلك المحــلات لا يعني أنــه بإمكانك أن تشتــري أي شيء تعتقد أنه خال من المواد المؤذية. إذ إن الكثير من تلك المحلات تحتوي علــى رقائق الموز المقلية بزيت جــوز الهند ورقائق الخضار المقليــة التي هي بالأساس رقائق البطاطا المقلية مطعمــة بكميــات قليلة مــن الخضــار الأخــرى ومشروبات تحتــوي على الماء والسكر والقليــل القليل من الفيتامينات. أما المشكلــة هنا فهي أن تلك الأطعمــة توحي بأنها صحية لمجرد أنها تباع في تلك المحلات.

9 - المراكز الرياضية

بمــا أن الحيــاة تواجهنا بكثيــر من الضغوطــات، فقد نلجأ إلــى الانتســاب إلــى أحــد المراكــز الرياضية كسبيــل إلى تخفيــف تلك الضغوطات وللمحافظة على صحتنا الجسدية والنفسيــة. ولكــن علينا أن ندرك أن تلــك المراكز غالباً ما تكــون مليئة بالجراثيم والبكتيريا. فمــن جهة ينتقل حوالي 80% من الأمراض المعدية باللمس المباشر أو غير المباشر ممــا يجعل المراكــز الرياضية وبداخلهــا كل تلك الأجسام المتعرقــة بالقرب من بعضهــا البعض بيئــة مثالية لانتقال مختلــف الأمراض مــن الزكام إلــى الفطريــات وغيرهما. وبالرغم من أن بعض تلــك المراكز توفر المطهرات لمسح الآلات الرياضية المختلفة إلا أنه من الأفضل ارتداء الثياب الطويلــة وعدم الذهاب للاستحمام مكشوفي الأرجل وجلب مناشفنا الخاصة معنا.

وهنــاك أمر آخــر يجب الانتباه لــه في تلــك المراكز، وهو أن بعضــ الآلات الرياضيــة قــد تكون خطــرة. فعلى عكس المؤسسات والشــركات الأخرى، لا تخضع تلك المراكز في الغالب إلــى قوانين تجبرها على القيــام بالصيانة الدائمة للآلات التي تستخدمها.

وهنــاك حقيقة لــن تسمعها مــن معظم القيميــن على تلك المراكــز، وهي «إننا لسنا مجهزين لأي طارئ طبي». هناك دراســة تشيــر إلــى أن حوالي ثلــث الأزمــات القلبية خارج المنــازل والمستشفيــات تحصــل فــي المراكــز والمنشآت الرياضيــة المختلفــة، وأن معظمهــا ليس مجهــزاً لمعالجة طوارئ من هذا النوع.



أما الأمـر الآخر فعلينا الحـذر في اتبـاع النصائح التي يقدِّمهـا لنـا المدرِّبون الذيـن يعملون في تلـك المراكز، وذلك لأن معظمهم يفتقر إلى الخبرة الكافية أو الشهادة الأكاديميـة اللازمـة، خاصـة فـي اثنين مـن المجالات يهواهمـا الشبـان أكثر مـن غيرهما، وهما رفـع الأثقال وكمـال الأجسـام. لذلك نجـد الكثير مـن الإصابات في الظهر وتمزق في العضلات أو الأعصاب تحصل في تلك المراكز.

10 - المشاهير والنجوم والأثرياء

نستطـرد هنـا إلـى مجـال يتجـاوز الحيـاة اليوميـة ومتطلباتهـا الاستهلاكيـة وهـو عـالـم ينتمـي أكثر إلى الثقافـة العامة التـي تصـوغ الوجدان العـام. ففي كل يـوم تقريباً يطـل علينـا مشاهير المجتمعـات والفنون والأثرياء من خلال عـدد لا يحصى من وسائل الإعلام بـدءاً بالمجلات والصحـف اليومية وصـولاً إلى برامج الحـوارات التلفزيونيـة التـي كثـرت حتـى حـدود غير معقولة في الآونة الأخيرة.

أولاً يدهشنـا هؤلاء بتأكيداتهم علـى أن عالمهم مثالي وخـالٍ من أية مشكلات أو تعقيدات، حتى ولو كان ظهور بعضهـم (وخاصة في مجال الفـن) يأتي لتبديد شائعة تتناولـه بشـكل سـيء. فالـكل أب عطـوف وأم حنون، يحوطه عدد من الأصدقـاء الأوفياء وتسير أعماله على مـا يرام، يتعب كثيـراً في عمله، ولم يخالـف أي قانون يوماً ما..

الميكانيكي: يبقي كل عيوب سيارتك طي الكتمان، لضمان تكرار زيارتك له

والواقـع، أن محتويـات مثل هذه الحـوارات الإعلامية التي تنهمـر علينـا مـن كل حـدب وصوب، لـم تعـد تنطلي على أحـد، خاصة وأنها صارت متشابهة سـؤالاً وجواباً وتفسيراً ونصحـاً.. بحيـث يصعـب الاعتقـاد أن هنـاك مشاهدين ومستمعيـن يمكنهم أن يصدقوا هذه الكليشيهات التي تبدو آتيـة من عالم مثالـي تم رسمه في كتـب الأخلاق الحميدة الموجهة إلى أطفال المدارس الابتدائية.

ما لا يقوله لنا هـؤلاء هو كيف جمعوا ثرواتهم فعلاً. ولماذا يتوجب عليهم تعليمنا هذا الدرس الثمين مجاناً؟

وما لا يمكن أن نسمعه من أي ناجح أو ثري هو «أن المال يمكنـه أن يشتـري السعادة فعلاً»، ربمـا لأن ذلك سيثير حنـق الفقـراء ومتوسطي الحـال. فهنـاك دراسة تقول إن أكثـر من 70% يعترفـون بأن المال وفَّـر لهم سعادة أكبـر. وهنـاك دراسـة أخرى أجريـت في كليـة وارتون (Warton) لإدارة الأعمال تثبت وجود علاقة وثيقة بين ارتفـاع الدخل وزيادة الرضـا المكتسب عن الحياة. كما تشيـر الدراسة نفسها إلـى أن معدلات الاكتئاب هي عند الأثريـاء أقل مما هـي عند غيرهم، وأن هـؤلاء يتمتعون بمعدلات صحية أفضل.

وإذا كان هـؤلاء يحجمـون عـن الإفصـاح عـن مثـل هـذه الحقائق، فهل من حق أي منا أن يتوقع من بعضهم مثلاً أن يعلن أنه لجأ إلى وسائل غير قانونية أو لا أخلاقية في سعيه إلـى الثروة والنجاح، أو هل يمكن لأحد من هؤلاء أن يعترف علناً بأنه بخيل على سبيل المثال؟

ختاماً، قد تكون المجـالات التي ألقينا عليها هذه النظرات الخاطفـة مجـرد جزء من لائحـة كبيرة تتضمـن قطاعات عديدة. فلم تكن غايتنا في هذه الجولة أن نحصر الحالات، بل أن نحرِّك الوعي بأن ما لا نعرفه قد يكون أهم بكثير مما نعرفـه. وأن توخي الدقة والبحـث والاستطلاع، وحده قادر علـى حمايتنا من الخيبات التي يحتمل اختباؤها خلف كثير مـن المظاهـر البـراقة في جهـات عديدة ومتنوعـة نتعامل معها يومياً، أو ما يشبه ذلك.

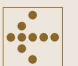


يرد اسم الدكتور علي الدفَّاع في عدد ضخم من قوائم العلماء، منها: دليل الشخصيات في المملكة العربية السعودية، ودليل علماء العلوم في العالم، ودليل الشخصيات العالمية، ودليل الرجال والنساء المتميزين، ودليل الباحثين في تاريخ العلوم عند العرب، ودليل المثقفين في العالم.

عبدالله الحسن* يعرِّفنا عن قرب على صاحب هذه الشخصية.

الرسوم: المحترف السعودي - عمر صبير

علي الدفَّاع
من رعاية الغنم إلى رعاية العقول!!



في عام 1381هـ / 1961م كان علي الدفَّاع من بين الطلاب الذين تم اختيارهم من قِبل المملكة للدراسة في الخارج. وأراد ملك البلاد حينئذ الملك سعود بن عبدالعزيز، يرحمه الله، أن يلتقي الطلاب المبتعثين. فلما رأى الملك هيئة هذا الرجل البدوية قال له: «أعرف أنك شاطر في رعاية الغنم، لكنني أريدك أن تكون شاطراً في رعاية العقول». فأججت هذه الكلمات نار الحماسة عند هذا الشاب الذي نذر نفسه فيما بعد لخدمة دينه ووطنه بعلمه، فكان الدكتور علي الدفاع منذ سنوات، عالماً من طراز قلَّ نظيره.

* طالب في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن

من هو الدكتور علي الدّفاع؟

هو علي بن عبدالله الدفَّاع، ولد في مدينة عنيزة بمنطقة القصيم بالمملكة العربية السعودية عام 1358هـ / 1938م. أما عائلته فأصلها من المذنب المجاورة لعنيزة، وهي من عائلة العويد، من الوهبة، من بني تميم. وأخذ اسم الدفَّاع عن جده صالح الذي كان يلقب بهذا اللقب.

كان للبيئة التي نشأ فيها الفتى علي أثر واضح لاحقاً في تكوين شخصيته كعالم مسلم. وهو عالم رياضيات ومتبحر في تاريخها، عُرِف عنه اهتمامه بفرع التكامل من علوم الرياضيات، حتى عُرف عند العلماء بـ «ملك التكامل». له بحوثه المتعمِّقة في دراسة تاريخ الرياضيات والعلوم عند علماء العرب والمسلمين، وفي إبراز دورهم الحضاري.

مفترق طريق..

عندما أنهى الفتى علي المرحلة الابتدائية سنة 1955م وكان قد حصل على الترتيب الأول من بين طلاب المملكة، أراد الالتحاق بالمدرسة المتوسطة. لكن إلحاح والده بأن يدرس في المعهد العلمي حال دون ذلك. فهو قد نشأ في منطقة القصيم المشهورة بوجود علماء الشرع والمعاهد الشرعية. فعرض الفتى الصغير على جدته رغبته في الالتحاق بالمدرسة المتوسطة. وهنا ما كان من جدته إلا أن بادرت بسؤال أحد مشايخ القصيم وعلمائها، وهو الشيخ عبدالرحمن السعدي، يرحمه الله، وسألته عن الأفضل

لحفيدها علي، فأجابها الشيخ: «ادخلوه على رغبته».

فتدخلت الجدة، وطلبت من ابنها أن يلحق حفيدها بالمتوسطة بناءً على رغبته، ففعل. وهكذا سلك علي الدفَّاع الطريق الذي سيضعه في نهاية المطاف على قائمة كبار العلماء في المملكة.

مسيرة وإنجاز..

تميَّز الدكتور الدفَّاع في تحصيله العلمي، وتخصص في علم الرياضيات في الصف الثاني الثانوي. ثم ابتُعِث بعد ذلك إلى الخارج. وحصل على درجة البكالوريوس في الرياضيات البحتة من جامعة أهايو وجامعة استيفن أف. أوستين عام 1967م في كل من ولايتي أوهايو تكساس الأمريكيتين. وتابع تحصيله العلمي بشغف، حتى نال درجة الدكتوراة في الرياضيات البحتة من كلية بيبودي من جامعة فاندربلت عام 1392هـ / 1972م في مدينة ناشفيل بولاية تنسي في الولايات المتحدة الأمريكية.

عودة للوطن..

وعاد الدكتور علي الدفَّاع إلى وطنه الذي أحب، ليستأنف مسيرة العطاء المثمر. فانضم إلى أعضاء هيئة التدريس بلقب أستاذ مساعد بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن بمدينة الظهران في المملكة العربية السعودية.

وترقَّى الدكتور في الجامعة، وتبوأ مناصب عديدة حتى صار في الفترة الواقعة بين عامي 1977 و1984م عميداً لكلية العلوم بجامعة الملك فهد حيث قام بمراجعة مناهجها وتحديثها، وتقديم مقترحات حول تطوير معاملها. وفي العام 1980م، تمت ترقيته للأستاذية في العلوم الرياضية.

هذا تاريخ مجمل للمسيرة العلمية لهذا الرجل الفذ، وبين صفحات هذه التواريخ ثمة إنجازات وعطاءات عظيمة لهذا العالِمَ العظيم منها: أستاذ زائر في كلية العلوم بجامعة الملك سعود، رئيس اتحاد الفيزيائيين والرياضيين العرب (حتى الآن)، أستاذ زائر في جامعة هارفرد بكيمبردج ماساتشوستش في الولايات المتحدة الأمريكية، أستاذ زائر في جامعة برنستون / نيوجرسي / الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد أنهى مسيرته في التدريس وتقاعد عند نهاية الفصل الدراسي الثاني للعام الدراسي 2008م. وبذلك يكون قد أمضى 36 عاماً في التدريس والبحث العلمي. فأقام له عدد من طلابه المشاركين في منتديات جامعة الملك فهد احتفالاً تكريمياً، حضره عدد من طلابه وزملائه وكذلك معالي مدير جامعة الملك فهد للبترول والمعادن حالياً وتلميذه السابق أ.د. خالد بن صالح السلطان. وأهدي له درع على شكل حرف «التكامل»، وهذا يعكس محبة الطلاب له الذي جاء نتيجة لمحبته لهم، وما لمسوه من أخلاق رفيعة وتواضع جم.

خارج الحدود وبالعربية دائماً

وإلى جانب إسهاماته الوطنية فإن اسم الدكتور علي الدفَّاع لمع على المستوى العالمي كشخصية فذة تجاوزت إبداعاته حدود وطنه لتشمل أنحاء المعمورة. إذ إن له مشاركات عديدة في مختلف المؤتمرات العربية والعالمية. وكانت له قصة لافتة في أحد المؤتمرات التي أقيمت في تركيا، وكان محور الحديث فيها عن الحضارة الإسلامية. حضر الدكتور علي هذا المؤتمر وبرفقته والدته. وتحدث عن الخوارزمي في إحدى الجلسات ثم عاد إلى جوار أمه، لكنه تفاجأ حين رأى والدته، يرحمها الله، مطرقةً رأسها وتذرف عيناها بالدموع. سألها ابنها مستغرباً سبب بكائها. فردت عليه بحرقة: «كيف يليق بك أن تتحدث بلغة غير العربية؟ وغيرك من المحاضرين تحدث بلغته! أليست العربية لغة القرآن؟ ولغة الرسول (صلى الله عليه وسلم)؟».

منذ آنذاك، آلى الدكتور الدفَّاع على نفسه ألاَّ يتحدث في المؤتمرات إلا بالعربية. حتى أنه عندما دُعي ليتسلَّم جائزة المحقق البارز في العالم الإسلامي للمهرجان الدولي الثالث عشر لمؤسسة الخوارزمي في الجمهورية الإسلامية الإيرانية وذلك في سنة 2000م. أبى إلا أن يتحدث العربية رغم إتقانه للغة الإنجليزية. ولما علم مضيفوه السبب وما كان من عهده لأمه، استجابوا لطلبه.

ينبوع عطاء

أَلَّف الدكتور الدفَّاع كتباً عديدة، يزيد عددها على الأربعين كتاباً، منها ما ترجم إلى اللغة الإنجليزية والصينية واليابانية والملاوية. وكان آخرها كتاب «أثر علماء العرب والمسلمين الأوائل في العلوم الرياضية»، وهو مكون من أربعة أجزاء. أما عن مقالاته وبحوثه العلمية ومقالاته المقدَّمة في المؤتمرات فهي أكثر من أن تُحصى، وغالبيتها العظمى تتكلم عن العلماء العرب والمسلمين وأثرهم الحضاري. كما أنه عضو في عدد كبير من المنظمات العلمية الدولية ومنها: الجمعية البريطانية لتاريخ العلوم، الرابطة الإسلامية للعلماء والمهندسين، لجنة موسوعة الحضارة في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في الأردن، وهو عضو مؤسس لأكاديمية العالم الإسلامي للعلوم في الأردن، وعضو شرف في المجمع العلمي العراقي، وعضو الجمعية العالمية لإحياء التراث الإسلامي.. وغيرها الكثير.

فصورة الدكتور علي الدفَّاع تكاد تكون نموذجية لصورة النجاح الذي يمكن أن يحققه المرء بإصراره على هدفه، وربما أيضاً للدور الذي يمكن أن يلعبه في توفير مستلزمات هذا النجاح بعض العوامل، وأبرزها تفهُّم الأسرة ودعمها له.



فنان خارج فنه...

بيكاسو والمسرح



يلتصق اسم كل فنان بمجال واحد ومحدَّد من الفن صنع شهرته، فيدخل في ذاكرة العامة على أنه رسَّام أو نحَّات أو موسيقي.. الخ. ومن النادر أن تلتفت الذاكرة إلى مجالات فنية أخرى يمكن أن يكون قد أبدع فيها لبعض الوقت، علماً بأن معظم الفنانين يخرجون من حين إلى آخر من أطر أعمالهم المعهودة، ليضعوا أيديهم في مجالات فنية أخرى. والأمر ليس مجرد نزوة عابرة، بل يعود إلى وجود صلة قربى ما بين الفنون، وحتى ما بين الفنون والآداب.

إبراهيم العريس * يسلِّط الضوء هنا على جانب شبه مجهول تماماً من صورة بيكاسو، ألا وهو بيكاسو المسرحي، وعلاقة هذا الرسَّام والنحَّات بفن المسرح التي كانت أكبر مما يظنه الكثيرون.

* ناقد من لبنان

Corbis

ولكن ثمة كتاباً حول هذا الموضوع، فريداً من نوعه أصدره الناقد دوغلاس كوبر للمرة الأولى عام 1968م ثم أعيدت طباعته مراراً بعد ذلك..كما أن معرضين على الأقل أقيما، أولهما عام 1960م -بمساهمة من بيكاسو نفسه- ثم عام 2006م في فرانكفورت، وضعا أمام أعين مندهشة مئات القطع واللوحات والوثائق التي تقول تلك البديهة التي نسيت كثيراً: ومفادها أن بيكاسو بقدر ما كان رجل رسم ونحت وخزف، كان رجل مسرح أيضاً.. رجل مسرح ولكن من نوع خاص جداً.

«كان واحداً من أحلامي في ذلك الحين أن أصغي إلى قيثارات بيكاسو وهي تعزف موسيقاها»... قائل هذا الكلام كان جان كوكتو وهو قاله ذات يوم حين سئل عن علاقته بانصراف الرسام الإسباني الكبير إلى فن المسرح أواسط العشرية الثانية من القرن العشرين، بعدما كان بيكاسو قد بلغ من الشهرة مبلغاً كبيراً وبدأ يغزو الحياة الفنية الباريسية من حيث لم يكن أحد يتوقع.

نعرف من خلال سيرة بيكاسو أن كوكتو قد حقق ذلك الحلم، ولكن بشكل موارب: عن طريق سيرغاي دياغيليف، المسرحي والإداري الذي غزا بدوره أوروبا، حين استقدم مجموعة كبيرة من فناني الباليه الروس، في ذلك الحين لتقديم ما عرف بـ «الباليهات

الروسية» مجدداً في فنون الرقص والموسيقى والأزياء والديكور. ولعل في وسعنا أن نقول الآن إن التجديد في هذا المضمار الأخير حمل توقيع بابلو بيكاسو.

والحقيقة أنه حين اتصل دياغيليف، في ربيع العام 1917م، بالشاعر الشاب جان كوكتو مكلفاً إياه بكتابة نص لعرض باليه تقدِّمه فرقته في روما لم يكن يعرف أن ذلك الاتصال سوف يضع بيكاسو نفسه في قلب حلم له هو الآخر. ذلك أن كوكتو حين اتصل بدوره بصديقه الرسام الشاب ليكلفه برسم ستارة العرض وأزيائه وديكوراته، لم يفعل هذا لمجرد أن بيكاسو صديقه، أو لمجرد أنه رسام، أو غارق في الحداثة حتى أذنيه، بل تحديداً لأنه كان قد لاحظ أن الرسام ومنذ وصوله باريس، وعبر خوضه مرحلة رسمه الزهرية ثم الزرقاء وصولاً إلى مشاركته في ابتكار الفن التكعيبي، إنما كان يفرد للمشاهد المسرحية مكانة خاصة. وليس فقط عبر تنظيمه اللوحات بشكل مسرحي استعراضي، بل أيضاً وخاصة عبر رسمه مختلف الشخصيات المسرحية الآتية من عالم «الكوميديا ديل أرتي» (الهزل المسرحي الإيطالي العريق)، أو شخصيات السيرك، أو حتى مصارعة الثيران، مصوراً هذا كله ببعد استعراضي أكيد يقول الكثير عن توق بيكاسو إلى أن يكون هو نفسه بذهنيته وألوانه ومواضيعه،

بيكاسو في زمن انهماكه بالمسرح الروسي في أوروبا

Corbis

Corbis

جزءاً من الاستعراض المسرحي.

فـي الوقـت نفسـه إذاً، فـإن بيكاسـو، بخـلاف رفاقـه الرسامين الذين شاركوه اختراع «التكعيبية» واعتادوا الاجتماع أسبوعياً في مقهى «لاروتوند» في حي مونبارناس، بـدا وكأنـه كان يريـد أن يضاهـي فـي خوضـه المسـرح، رسامين سابقين له، جعلوا من المسرح موضوعاً لهم: (ديلا كـروا ولوتريـك، كذلك دومييـه وديغا). أمـا مضاهاتهـم فكانـت تكمـن بالنسبة إليـه، في أن يكون هو، منفرداً من بينهم، داخل المسرح وجـزءاً من اللعبة، لا مجرد متفرج من الخارج. لقد كان تولـوز لوتريـك أقرب الجميـع إلى الوجـود داخل اللعبة الاستعراضيـة، لكنه حـدّ نفسـه بالأندية الليلية.. أما بيكاسـو فإنه سيحلّق مسرحياً ذاهبـاً أبعد بكثير. وهذا الأمر أتاحته له دعوة جان كوكتو.

عندما فشل «العرض» وثار الجمهور احتجاجاً، استثنى بيكاسو من النقد، لا بل صفَّق له لإسهامه التكعيبي في الستارة والأزياء

انطلاقـاً من تلك الدعـوة إذاً، ولأن دياغيليـف، كان يقدِّم عروضه ذلك الحين في روما، توجه كوكتو وبيكاسو معاً إلى العاصمة الإيطالية ليصيغا العرض الأول لفرقة «الباليهات الروسية» على إيقـاع موسيقى لا تقل جنوناً عن عملهمـا، كتبها إريـك ساتي، الذي تلاقـت نظرته إلى فـن خالٍ من العواطف مع «شعر» جـان كوكتو الذي كان في أساس العرض، مع تكعيبية تزيينية صاغها بيكاسو، ستارة وديكـوراً وأزياءً. ولقد حمل ذلك العرض عنواناً ولا أبسط هو «العرض» (Parade) إنما بالمعنـى القاموسي للكلمة: أي الاستعراض الساخر الذي يقوم به قوم بائسون. ونعرف أن هذا النوع من القوم كان قد ملأ لوحات سابقة لبيكاسو، ومن هنـا لم يكن صعبـاً عليه أن يضع الرسـوم، لنص من كوكتـو، يقوم علـى وجود ثلاثـة أشخاص عند بـاب مسرح يدعـون المارة إلى الدخـول والفرجة مقدميـن عند الباب أجزاءً من المشاهد الموعودة في الداخل.

اشتغل ساتـي وبيكاسو وكوكتو يومها مـع دياغيليف وفرقته بكل نشاط وإيمان بما يفعلونه..ولكن، حين قُدِّم العرض في ليلتـه الأولى لم يكن النجاح في الانتظار. ولم يكن الجمهور الحاضـر في المسرح الوحيد الذي صخب احتجاجاً، بل إن النقـاد والصحافة صرخـوا معاً في صبيحة اليـوم التالي: يا للفضيحة!.

فشـل العرض، لكن بيكاسو لـم يكن خاسراً، فهو استثني من الشتائم النقدية بعد أن كان الجمهور صفق لإسهامه التكعيبي فـي الستارة والأزيـاء. لكن هذا لم يكن مكسبـه الوحيد، إذ كانت هناك أيضاً بطلة المسرحية، أولغا كوكلوفا، الذي وجد بيكاسو نفسـه يغرم بها، فيصادقها ثـم يتزوجها ليبقيا معاً نحـو ثماني سنـوات، تركته بعدها إلى غيـر رجعة. وقد لا نكـون هنا فـي حاجة إلـى أن نشير إلـى أن السنوات التي أمضاها بيكاسو مع أولغا، تزامنت



Corbis

مـع سنوات عمله في ديكـورات وملابس وستـارات -وأحياناً مساهمته في النصوص- والموسيقى التي قدمت من خلال فرقة دياغيليـف، إنما من دون كوكتو هـذه المرة -حتى وإن كان بيكاسو سيعود إلى التشارك مع صديقه الشاعـر والمخـرج الفرنسـي فـي أكثر من عمـل لاحقاً، خـارج إطـار فرقـة الباليهات الروسية- وكأن بيكاسـو انكبَّ على عمله مع دياغيليـف كرمـى لعينـي أولغـا. وعلى هذا النحـو توالت الأعمـال المسرحية: ففي عام 1919م وانطلاقاً مـن موسيقى إيمانويل دي فاليـا، مواطن بيكاسـو، كان هنـاك عرض «ثلاثـي القرن». وفي العام الذي تليه، اقتبس ليونيد ماسين، على وقـع موسيقـى رائعـة لإيغـور سترافنسكـي استعراض «بوليتشينيـلا» من مسـرح «الكوميديا ديـل آرتي» الذي رسم ستارته وأزياءه وديكوراته بيكاسو، مستوحيـاً مشاهد الهـزل القديمة التي كان شاهدها في رومـا يوم زارها مع كوكتـو أيـام «العرض» وظلـت مؤثرة فيـه، رسمـاً ونحتـاً وديكـورات حتى نهاية حياته.

> **غاب بيكاسو عن المسرح وعاد إليه أكثر من مرة، فعمل على الديكورات والأزياء، وأسهم حتى في كتابة النصوص والموسيقى**

وفـي العـام 1922م، اشتغـل دياغيليف مع بيكاسو وفاسلاف نيجنسكـي (الذي كان يُعـد أعظم راقص باليـه في القرن العشريـن في ذلك الحين) لتقديـم «بعد ظهر حيوان» على وقـع موسيقـى كلـود ديبوسـي. وفـي العـام 1922م أيضاً، كان بيكاسـو قـد عـاد إلـى التعاون مـع كوكتو، فـي مسرح «الأتيليه» الباريسي، ولكن ليس في عرض باليه هذه المرة، بـل في عرضـ مسرحي تراجيـدي مأخوذ مـن سوفوكليس (انطيغونـا) من إخراج شـارل دولان. والحقيقـة أن إلهام بيكاسـو التزيينـي (ديكور وملابـس) في هـذه المسرحية جعـل كثـراً يتحدثون عـن مؤثـرات إغريقيـة ورومانية في فنـه. وبعد عامين من ذلك، عاد بيكاسو إلى موسيقى إريك ساتي، ليرسم ديكور وأزياء وستارة عمل باليه ضخم عنوانه «مركور» أخرجه ليونيد ماسين.

وهكـذا إذاً، كان بيكاسـو قـد بـدأ يغيـب عن نشـاط فرقة دياغيليف تزامناً مع بدء مشكلاته مع أولغا. ولكن في أواخر ذلك العـام عادت الظـروف تجمع مرة أخرى بيـن بيكاسو وجان كوكتو ونيجنسكي ودياغيليف، لكن هذه المرة في عمل موسيقـى من داريوس ميلو، في عرضـ سيكون أشبه بأغنية البجعة، أي باليه الوداع، للتعاون بين كل هذا العالم الجميل، عنوانه «القطـار الأزرق» المستوحى من خط قطار باريس- تولوز الذي كان بدعة تقنية في ذلك الحين.

بعـد «القطـار


Corbis

الأزرق وبعد انفصاله عن أولغا، انتهى عمل بيكاسو مع فرقة الباليهات الروسية بشكل نهائي. لكن علاقته بالمسرح لم تنته، حتى وإن كان سيغيب سنوات وسنوات عن النشاط المسرحي المباشر. فإذا كنَّا لن نلتقي بيكاسو مسرحياً، إلا بشكل نادر خلال السنوات الخمسين الأخيرة التي عاشها حتى رحيله عام 1973م، وفي نشاطات جزئية: تصميم صولجان لمسرحية «اندرماك» يحمله جان ماري (1944م)، وقبله ستارة لمسرحية عنوانها «14 يوليو» (1936م)، أو ستارة أخرى لمسرحية راقصة لجاك بريفير ورولان بيتي عنوانها «موعد» (1945م) مع استثناءات قليلة تمثلت في تصميمه ديكورات مسرحية «أوديب ملكاً» (1947م)، أو مسرحية «نشيد جنائزي» (1945م) من قصيدة لفدريكو غارسيا لوركا، مع عودة إلى «بعد ظهر حيوان» في أوبرا باريس هذه المرة (1960م)، فإننا نعرف أن بيكاسو لم يكن، منذ العشرينيات، في حاجة إلى العروض المسرحية نفسها كي يؤكد اهتماماته بالفنون المسرحية وغوصه فيها.

حرص الفنان الإسباني الكبير خلال العقود الأخيرة من حياته على أن يضع فنه كله تقريباً، تحت شعار المشهد المسرحي

إذ إن هذا الفنان الكبير، الإسباني الأصل والذي ملأ القرن العشرين طولاً وعرضاً ورسم مئات اللوحات الرائعة وحقق أعمالاً لا تضاهى في النحت وفنون الخزف، كما كتب نصوصاً ولا أجمل، حرص خلال العقود المتبقية من حياته، على أن يصنع فنه كله تقريباً، تحت شعار المشهد المسرحي. بكلمات أخرى لم يعد هذا المشهد جزءاً مكوناً من معظم المشاهد الذي يرسمها فقط، بل جزءاً من روح فنه. ولعله في هذا قد أعاد لهذا الفن مسرحيته الداخلية، التي كانت له قبل أن ينخرط في اللعبة المسرحية الاستعراضية بشكل مباشر.

وعلى هذا النحو، عاد دائماً للاهتمام برسم شخصيات السيرك، في عملها كما في بؤسها وبالشخصيات المستقاة من الكوميديا ديل آرتي: أرلكان وبيارو. عاد إلى رسم المهرجين لكنه في الوقت نفسه، حرص في كل لوحة من لوحاته، حتى حين كان يرسم بورتريه لابنه ولامرأة من نسائه، أو لأفراد عائلته، على أن تكون الوقفة والجوهر مسرحيين.

في هذا السياق لن يكون من المغالاة


Corbis
Getty Images

القول، إن بيكاسو اشتغل طوال حياته في اتجاهين متكاملين: مسرحة الحياة، لرسمها، ثم مسرحة الرسم لإضفاء الحياة عليه. وهو من أجل هذا، لم يكتف بأن يجعل من أصحابه وأبنائه وأقاربه، في لوحاته موديلات مسرحية (كأن يلبس ابنه بول ثياب المهرج ليرسمه)، ولم يكتف بأن يجعل مشاهد كثيرة لديه مجرد «إخراج» لمشاهد من الحياة وكأنها تقدم على خشبة مسرح كبير. بل إنه، أكثر من هذا، حين أراد أن يعيد رسم بعض اللوحات الرائعة التي أحبها لدى رسامين سابقين عليه، لم يحاكي تلك اللوحات تماماً، بل إنه مسرحها: استخلص ما في جانب منها بُعد مسرحي ليرسمه: هذا ما فعله، مثلاً، مع لوحة بيلاسكويث «لامينيناس» ومع «غداء على العشب» لمانيه ومع «3 مايو» لغويا، على سبيل المثال لا الحصر. كما أن هذا كان ما فعله مع مشاهد لم يأخذها من المسارح القديمة أو من فنون اليونان والرومان، أو من أسلافه الكبار، بل من الحياة نفسها. مثلاً هل يمكننا اعتبار لوحته الشهيرة «امرأتان راكضتان على الشاطىء» غير عمل كبير مستوحى من الحركة المسرحية وحركة رقص الباليه في آنٍ معاً، في العام 1922م أي في العام الذي كان منخرطاً فيه، في العمل المباشر للمسرح مع دياغيليف؟

ثم، ولعل هذا أهم ما في هذا السياق كله: ألا يمكن اعتبار لوحته الكبرى «غرنيكا» التي رسمها مستوحياً المجزرة النازية الكبيرة التي ارتكبت عام 1937م في حق قرية إسبانية وادعة، مشهداً مسرحياً متكاملاً، ليس فقط في عناصره المكونة أو العلاقة بين هذه العناصر، بل في التكوين البعدي للوحة؟

ترى، ألا يقول لنا هذا كله إن بيكاسو كان في المقام الأول، رجل مسرح واستعراض، انطلق من مشهد فيه مصارعة الثيران، ليصل حتى إلى مسرحية كتبها وقدمها بنفسه هي «اللذة ممسوكة من ذنبها» مروراً بلوحاته وديكوراته، وقد آمن أن المسرح موجود في كل شيء. إن الحياة مسرح كبير. فلماذا لا يعيده جوهرياً إلى قلب كل شيء.. إلى قلب كل عمل له؟



بيكاسو مع زوجته أولغا التي لعبت دوراً مهماً في تقريبه إلى المسرح

يستضيف هذا الباب المكرّس للشعر قديمه وحديثه في حلته الجديدة شعراء أو أدباء أو متذوقي شعر. وينقسم إلى قسمين، في قسمه الأول يختار ضيف العدد أبياتاً من عيون الشعر مع شروح مختصرة عن أسباب اختياراته ووجه الجمال والفرادة فيها، أما الثاني فينتقي فيه الضيف مقطعاً طويلاً أو قصيدة كاملة من أجمل ما قرأ من الشعر.. وقد يخص الضيف الشاعر القافلة بقصيدة من آخر ما كتب.

ديوان اليوم



الرسوم: المحترف السعودي - عمر صبير



ضيف العدد

الشاعر سلطان محمد السبهان

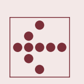
من مواليد عام 1395م. يعمل مشرفاً تربوياً في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض. وهو أيضاً طالب ماجستير في المعهد العالي للقضاء.

شارك في العديد من الأمسيات في الدمام وجازان ومصر. وسيصدر ديوانه قريباً، إن شاء الله.

الشعر ماذا يمكن أن يقال



نعرف مقدماته ونتائجه ولا نعرفه بعينه، كالحزن والفرح، لا ندري ما هما، إلا أننا نعرف الدموع ونطرب للابتسامة التي تسقي يباس الحياة.
إنه الحالة التي لا تُفسّر، ويكفينا منها أن نعيشها ونُصهَر في أتونها لنفهم الإنسانية وما حولها وما حولنا... وحين يكثُر الشيء ويجتمع، فلا بد في المجاميع من الأحماض كما يقال..



وأحماض الشعر أجمله من كل عصر ومصر، ولو أنه لا يُدركُ الضالع شأوَ الضليعْ كما يقول صاحب المقامات، وما مثلي في نقل ما جاد لي إلا كمثل من جمع المطر في شوال، لكنها المشاركة التي تنظمني في سلك محبي الأدب، أما وقد قال الحسن المقري «ليت الخطيب ذكرني في تاريخه ولو في الكذابين» كما في لسان العرب 195/2. فهذا عود شعر من حزمة دواوين خلّدها العرب وخلدتهم.

من العجيب أن يترك النَّقلة المحبين والعشاق الذين غصّت بزفراتهم أنسام الصبا، ليتحلَّقوا حول دفء نار اثنين أو ثلاثة، أتُرى ذلك جاء عن محض صدفة!!
اسمع ما يقول كثّير عزة ليتبين الأمر:

وإني وتهيامي بعزَّةَ بعدما
تخلّيتُ مما بيننا وتخلّتِ
لكالمرتجي ظلّ الغمامة كلما
تبوأ منها للمقيل اضمحلت

إنه الوصف الظامئ المنهك المليء بصفعات اليأس، لا سرابَ مثله ولا تعب بعده.

وحين يحاول أحدٌ ما أن يجود على الأدب بزفرة من تعب ونفثة من نصب لن يجد أصدق من بيت ابن سهل الإسلامي الأندلسي حين يختصر تناقض العلاقة في الشوق والتعشّق بقوله:

وعذّب بالي أنعم الله باله
وسهّدني لا ذاق طعم التسهّدِ

وجاء لتوديعي فقلت له اتئد
مشت لك روحي في الزفير المصعد

فانظر كيف يتناقض في الشكوى مظهراً جانباً خفياً من صدق العشاق .

والشعراء ذوو ذكاء فطري يدلهم عليه حسّهم وقدرتهم على السفر في المعاني وعدم عقدهم الهدنة مع الخيال المجنّح.

وقد ورد أن جريراً سمع الشطر الأول من بيت عدي ابن زيد العاملي صفة قرن الظبية حين قال: تُزجيْ أغنّ كأنّ إبرةَ روقه. فقال: قلت في نفسي: وقع والله، ما يقدر أن يقول أو يشبه به، قال: فقال: قلم أصاب من الدواة مدادها. قال: فما قدرت حسداً له أن أقيم حتى انصرفت.

فانظر كيف أُلهم تشبيه طرف القرن المدمى بالقلم الذي أصاب المداد.

والشعراء حين ترّق قلوبهم ويتوجهون للمولى يأتون بالأنجم الخالدات في سماء الإبداع، ولا أرق وأجمل من قول الحسين بن منصور:

فكيف أصنع في حب كلفت به
مولاي، قد مل من سقمي أطبائي
قالوا: تداو به منه، فقلت لهم
يا قوم، هل يتداوى الداء بالداء

إنها المعتصَر المفيد في سياسة النفس وقياد الهوى.

ولابن الفارض عمر الحموي ما ترق له العين وينكسر معه القلب لحسن مأخذه وجودة نسجة حين يقول:

أهفو لأنفاسِ النّسيمِ تعلّةً
ولوجهِ مَنْ نقلتْ شذاهُ تشوّفي
فلَعَلَ نارَ جَوانحي بِهُبوبِها
أنْ تَنطَفي، وأَوَدّ أن لا تنطَفي

إنه يكرّس بطريقة ما لمعنى دفين تحمله روح العاشق ويتعب به المشتاق، فنار الشوق لا يراد لها أن تبقى ولا أن تهدأ!!

إنه يقول بكل اختصار حكمة بالغة لو استوعبها العاشقون وفهمها المتعَبون:

أنتَ القتيلُ بأيِّ مَنْ أحببتهُ
فاخترْ لنفسكَ في الهوى مَنْ تصطفي

أليس هذا ما لايوجد في رفوف أهل الصيدلة وحكماء الطب!

وحين تقع العين على حدائق المتنبي ذات البهجة، يعجب كيف آتى الله هذا الرجل القدرة على التفرد والسبق في معان لم يطأ حسنَها أحد من قبل، فهو يقول متعجباً من الحال:

وأنَا الذي اجتَلَبَ المَنيّةَ طَرْفُهُ
فَمَنِ المُطالَبُ والقَتيلُ القاتِلُ
تَخْلُو الدّيارُ مِنَ الظّباءِ وعِنْدَهُ
مِن كُلّ تابِعَةٍ خَيالٌ خاذِلُ
اللاّءِ أفْتَكُهَا الجَبانُ بمُهْجَتي
وأحَبُّهَا قُرْباً إليّ البَاخِلُ
الرّامِياتُ لَنَا وهُنّ نَوافِرٌ
والخاتِلاتُ لَنَا وهُنّ غَوافِلُ

عجباً له كيف نظم هذا السلك البديع من التناقض في الهوى والعجب مما منه العجب ! وتأمل قوله: «الخاتلات لنا وهن غوافل»، كم فيه من الجمال المكتنز وتحته الوجع البديع.

والشعراء تتهدج أصواتهم بالغناء يوم الرحيل بأشد ما يكون وقعه على الأسماع والقلوب.. فهم أهل اللحظة وسادتها، والوداع لايطيق وصفه غيرهم، نقل صاحب المستطرف قول بعضهم:

وقفت يوم النوى منهم على بعد
ولم أودعهم وجداً وإشفاقا
إني خشيت على الاظعان من نفسي
ومن دموعي إحراقاً وإغراقا

لقد قرأنا بائية أبي تمام كثيراً، لكننا كل يوم نجد فيها طعماً أصدق للسيف والدماء والحرب وشرف النفس، انظر له وهو يصف اختلاف المقصد وحسن المشرب لأولياء الله:

هَيْهَاتَ! زُعْزِعَتِ الأَرْضُ الوَقُورُ به
عن غَزْوِ مُحْتَسِبٍ لا غزْوِ مُكتسِبِ
إنَّ الأُسُودَ أسودَ الغيلِ هِمَّتُها
يوم الكريهة في المسلوب لا السَّلبِ
فبَيْنَ أيامِكَ اللاَّتي نُصِرْتَ بها
وبَيْنَ أيّامِ بَدْرٍ أَقْرَبُ النَّسَبِ

ومثل أبي تمام يعرف كيف يطرز ثوب الشعر ويحسن تنويع العبارة وترشيق قوامها بالتضاد وأنوع المشاكلات.

ويقفز للذهن حال التفكر في أمر الدنيا والناس قصائد أبي الحسن التهامي، فهو وإن كان طالب ملك إلا أنه كتب الجميل والبديع فيما تناثر من ديوانه العجيب، ومن خلال منظاره سنعرف أن الرحلة لابد لها من الوصول:

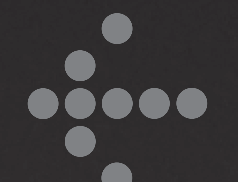
فالعيشُ نومٌ والمنيّةُ يقظةٌ
والمرءُ بينهما خيالٌ سارِ
فاقْضوا مآربكم عجالاً إنّما
أعمارُكم سَفَرٌ من الأسفارِ
وتراكضوا خيلَ الشباب وبادروا
أن تُستَرَدَّ فإنّهنّ عَوارِ

إنه الشعر الذي يخلد، والوصف الدقيق المؤثر..

ولا ينفك عجب الباحث المتأمل في دواوين الشعراء والواقف على ما نقل من جميل وصفهم وحزنهم وحكمتهم وسائر تأملاتهم.

فهم الجديرون باصطياد الغرائب وملاعبتها واكتشاف أسرار الحياة.

إن مرَّكِ الليل



إن مرّكِ الليلُ
يَطوي ثوبَه وجِلا
واستيقظَ الفجرُ في عينِ الدُّجى
خَجِلا

* * * * *

وجَرّحَ النورُ صمْتَ الكَونِ
مُتشرًا
فاستغفري لي وقولي:
"صادقُ رحلا !"

* * * * *

وسامحي الحبَّ إذ لم يُهدِنا
"زمَنًا"
نعيشُ في شاطِئَي طُهرٍ قد اتصلا
وسامحي الحبّ إذ لم يَسْقِنا
"عُمُرًا"
لِـ تَنبُتي زهرةً قد
عانَقَتْ جَبَلا

* * * * *

آهٍ
وحُزْنُ التنائي لا انتهاءَ لى
وليلُهُ من جُنونٍ يرُمِدُ المُقَلا

* * * * *

من علّمَ الحُزنَ
يَجري في محاجِرنا.. ؟
من علَّمَ الليلَ
يَقضي ليلَهُ ثمِلا.. ؟

* * * * *

أَنَا لظى الذكرياتِ اللاءِ أيْقظَها
دمعُ الرَّحيلِ
استَتَمَّتْ
واستوتْ رجُلا

* * * * *

أنا بكاءُ أماسِي الوجْدِ
حين ذوى
فانوسُها واستحالَتْ ضِحْكتي طَلَلا

* * * * *

لا شيء بَعدك
يَسْقي الروحَ ياقدرا
قد خطَّ في اللّوح
أن أشقى بي أملا
صغيرتي
والليالي شَتَّتت عُمري
وحمّلتني من الأشواق
ما (قتلا)

* * * * *

ها.. فِكرةُ الهجْر
هل خِيطَتْ مواجعُنا؟!
ها.. جمرةُ البُعد
زادتنا بكم شُغلا

* * * * *

صغيرتي
ياحديثَ الطُهْرِ ياظمئي
جرّبتُ قُرْبي
وبُعْدي
فاستوى مَثلا

* * * * *

قولي لأضيافِ طيفٍ بي تُشاغِبني
كُفُّوا..
أذلِكَ شأنُ الضيفِ إنْ نزلا



هَبُوا لِعيني
هدوءاً أستعيدُ به
في غيبَةِ الدفءِ
عَقْلاً فرّ مرتحِلا

* * * * *

يا أيها الوَلهُ المزروعُ..
أسئلتي
تحزُّ نحرَ جوابٍ في
ما اكتملا

* * * * *

ياسرَّ أوجاعِ عُمْري يا..
(مسافرةً)
صارت..
ذنوباً لأشواقي
ومُغْتسلا

* * * * *

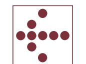
لا تكرهي
الليلَ
كان الليلُ يجمعُنا
وساحي الحبِّ،
عطراً
بيننا دخلا!!



تندرج رواية «إكليل الخلاص» في إطار المشروع الأدبي الذي ظهر في السنوات الأخيرة، ويعمل على رصد التحولات الاجتماعية في مراحل زمنية مختلفة. ففيها يصوغ الروائي محمد المزيني شخصيات تمثِّل الجيل الحالي بأحلامه وطاقاته والرغبة الدائمة في البحث عن حياة تشبه ما يتخيله عنها. هيثم السيد* يقدِّم قراءته لهذه الرواية الحافلة بالمواقف والانفعالات التي وإن كانت تصوِّر تفاصيل مأساوية في بعض الفصول، إلا أنها تظل موحية بأمل ينبعث من بين لحظاتها، حتى في أكثر التطورات الدرامية تعقيداً.

إكليل الخلاص

المسارات المأساوية المتوازية.. تلتقي



تتميز هذه الرواية بالعلاقة القوية التي تنسجها لا شعورياً مع القارئ. فالتقنية السردية التي استخدمها المزيني قادرة دائماً على شد القارئ إلى المضي قدماً حتى معرفة الفصل التالي، وحتى يصل إلى نهايتها التي تتخذ شكلاً مفتوحاً يجعل القارئ يشعر وكأنها ليست نهاية الرواية بقدر ما هي نهاية أحد فصولها، بانتظار فصل قادم قد يأتي في رواية مقبلة.

يحضر العنصر اللغوي بشكل واضح في الأسلوب الذي كتبت به رواية «إكليل الخلاص»، من خلال استخدام المفردة العميقة والتصوير البلاغي. كما يحضر الحس الإنساني متشكلاً في صورة الطفل اليتيم الذي يكبر متشرداً باحثاً عن مأوى وعمل يوفر له حد الحياة الأدنى ليصبح عرضة مستمرة لمصاعب وتحديات وظروف قاسية. أو في صورة الإنسانة التي تضعها الغربة وغياب ذوي القربى في مواجهة صعاب تزيد من حجم معاناتها وهي الأم لطفلين أيضاً. ومن جهة أخرى، تعرض الرواية حالة الانفصام التي تجعل أحد أبطالها يبحث عن خلاص نفسه في وطن آخر، والحاجة التي تدفعه أحياناً إلى إلقاء نفسه في مغامرات غير مأمونة العواقب.

وهكذا تبرز ثيمة «السفر» التي يستخدمها كثير من الروايات المحلية لصنع عوالم أخرى ومسارح جديدة للأحداث. فتدور نصف أحداث الرواية في دولة أوروبية تفرض أسلوب حياتها على الشخصيات التي تبحث فيها عن شكل مغاير لأحلامها وعواطفها ومستقبلها، وفي كل الأماكن التي تمر بها فصول الرواية، كان المؤلف يستخدم أسلوباً وصفياً يحفل بكل التفاصيل اليومية والهامشية ليقرِّب الصورة من ذهن القارئ الذي سيجد نفسه كل مرة مندمجاً في عمق الحكاية، مشدوداً إلى ما يستجد فيها من مواقف وما يترتب عليها من أحداث.

* إعلامي سوداني



الرسوم: المحترف السعودي - عمر صبير

مفهوم الرواية وتحديد الدافع

يعـرِّف المزيني الرواية بأنها «لعبـة النص المفتوح المطل علـى كل الفضـاءات الأدبية والأشـكال التعبيرية المتنوعة وهـي المسرح الكامـل للإنسان في كل حالاتـه وتجلياته». ومن هـذا التعريـف، ينطلق المزينـي في كتابتـه الأدبية، ونقتـرب نحن من معرفـة الإجابة عن سؤالنـا حول نوعية الدافـع الـذي يحـدد طبيعـة المنتـج الروائي الـذي نحن بصـدده. فيتضـح لنا أن الكتابة عند هـذا الأديب مسكونة بهاجـس يبدو محدداً وحاسماً في تركيزه على تناول الواقع الاجتماعـي المرتهـن لتحـولات حضاريـة بالغـة التأثير، يصفهـا بـ «التقلبات العاتية» التـي عصفت بالإنسان الذي انفصـم بشكل عنيف عن بيئة حياتية، ليجد نفسه من دون مقدمـات في دوامة من الظـروف المتسارعـة التي تراكم واقعـاً قد يدفعه إلى البـكاء بقدر ما يجبـره على الصمت تحت ذريعة تقليدية تقول إن «الرجال لا يبكون».

وهنـا يعتقد المزينـي أن الروايـة مثلت له إزميـلاً «حفر به الأفواه المردومة بسكوت قسري يشبه موت الحواس من فرط قسوة الألم، وحينئـذ تصبح الكتابة بصيص حياة أخير، قد لا يمنـع شعورنـا بالوجع لكنـه يبعث فينا مفهومـاً كامناً بأن تألمنا يعني أننا ما زلنا نعيش على الأقل». وفق المفهوم ذاته، نستطيـع أن نفهم لماذا كتب محمد المزيني أعمالاً على نحو «مفـارق العتمة» و«عـرق بلدي» ولماذا يواصـل محاكاة ذلك الدافـع المحـدد المعلن بأكثر من طريقـة. إنه رجل لا يؤمن بأن كثرة الإحباط سبـب كاف لمصادرة شجاعة المواجهة، ولهـذا ينحى إلى تسمية الأشيـاء بمسمياتها، حتى أن تعبيره يأتـي متحديـاً مـن دون أن يفكر فيمـا إذا كان يخوض غمار معركة خاسرة سلفاً. وفي «إكليل الخلاص» التي نقرأها هنا، يثبت المزيني أنه لايمثـل ردة الفعل السلبية لحالة الهزيمة، ولكنـه يعيد تشكيل وعي يملك في أسوأ الاحتمالات قراره بأن يمارس هزيمته كما يشـاء، بل وأن يتحايـل عليها، من أجل أن يجـد نفسه حيـث يريد لها أن تكون، لا حيث يفرض عليها الواقع ما يجب أن تكون عليه.

حيادية الشكل تنحاز بالمضمون

نحـن أمام نص يعرض فكرته بهدوء، من دون أن يترك أثراً يمكن الاستدلال به على انفعالية تعبيرية توجد عادة

حيث تتعلق الكتابة بمثل هذا الهم. نص يحيِّد المشاعر فينتصر للفن، يؤمن بأن بعض الصور لا تتطلب الإدانة بقدر ما تحتاج إلى من ينقلها بحيادية كما هي. وبهذا، يصبح محمد المزيني أحد الروائيين القلائل الذين تعاملوا بذكاء أدبي مع طبيعة المرحلة التي دفعت بروايات كثيرة جداً إلى الانزلاق في مغبة انحيازها لأحكام مؤلفيها على نحو مكشوف، يحولها أحياناً إلى ما يشبه العرائض الاحتجاجية أو الخطابات الفكرية الموجهة في الوقت الذي تغيب فيه الرواية التي يفترض حضورها توفير مقوماتهما كعمل أدبي إنساني له دلالاته المرحلية ومتطلباته الفنية.

ينسج المؤلف تفاصيل الرواية اعتماداً على طرفي خيط يسيران جنباً إلى جنب، أحدهما في الوطن والثاني في الخارج، وكلاهما يتألمان

نعم.. لكل روائي موقف لكن مكانه لا يجب أن يكون داخل نصه، ولكل روائي تعريف للرواية لكنه يجب أن يكون تعريفاً شمولياً، فلا يتخذها وسيلة عشوائية للتعبير عن فكرة شخصية، أو استخدامها بعبثية كردة فعل مرتجلة على معطيات واقعية وحضارية، وهذا ما يمكن لمسه في روايات قليلة مثل «إكليل الخلاص»، التي تشكِّل الحلقة الأخيرة من المشروع الروائي لمحمد المزيني، بتناوله العمق السوسيولجي وفق منهجية ترصد ملامح زمنية متتابعة، وترسم في كل مرة شخصية المجتمع الذي تتحدث عنه وطبيعة واقعه الثقافي والحياتي عموماً.

«الإكليل» كان الرمز الذي استخدمه الروائي هنا للشعور بكبرياء الانتصار المرتبط بالتاج الذي يوضع على الرأس، بينما يأتي «الخلاص» كمرادف موضوعي لذلك الانتصار الذي يمثل بدوره نقيضاً مباشراً لفكرة الهزيمة التي تناولتها سابقاً. وبهذا يمنحنا العنوان انطباعاً مبدئياً عن طابع الرواية التي تبدأ بمشهد صاخب لبطلها «عبدالرحمن» وهو يهرب بمنتهى الفزع من رجل استغل يتمه وتشرده ليسكنه عنده، قبل أن تتكشف إنسانيته المزعومة عن همجيته، ذلك المشهد الذي يشبه بدايات بعض الأفلام الأجنبية بمطاردات صاخبة منذ وهلتها الأولى، كان نقطة تحول رسمت في مراحل لاحقة نوعية الحياة التي سيعيشها البطل، وهو ما زال دون سن المراهقة. فمن مكان إلى آخر، تتقاذفه ظروف مؤلمة حتى يستقر به المقام في عمارة سكنية يتعرف فيها على «سعاد»، ليبدأ السياق الدرامي بالتصاعد ضمن ظروف بالغة التعقيد، غير أن ذلك لا يجعل الرواية تفقد خيط التشويق الذي يمسكه الروائي بحرفية من طرف، بينما يمسك من الطرف الآخر خيطاً درامياً مختلفاً بطله «خالد» الشاب الذي يستعد للسفر في مشهده الأول، وهو يسائل المكان عمَّا تسبب له به من غربة بالغة القسوة حتى قرر الرحيل نحو منفى اختياري تكون الحياة به أخف وطأة، وهناك تجري الأحداث في وجود شخصيات جديدة تتمثل بقاسم سائق التاكسي العربي، ومليكة مضيفة الطيران، وفاطمة التي تتجه في الرحلة ذاتها إلى المكان نفسه.

أما رحلة قراءة هذه الرواية فتبدو محكومة بسرعة تكوين العقد الدرامية وحلها، وبتسارع الأحداث بوتيرة تكاد تكون متشابهة بين السياقين الدراميين اللذين تقوم عليهما الرواية. إذ يبرع الكاتب حقاً في ربط القارئ بخيط التشويق الذي يجعله يستصعب الدخول في الفصل التالي حيث السياق الآخر، بينما تراود ذهنه الأسئلة بإلحاح حول ما سيحدث في السياق الأول، ذلك الذي ينهيه المؤلف كل مرة في لحظة حاسمة جداً!.

يستمر المؤلف في نسج تفاصيل الرواية اعتماداً على طرفي الخيط اللذين يسيران جنباً إلى جنب وعلى نحو يجعلك تقتنع أن فرصة الالتقاء بينهما تشبه فرصة التقاطع بين مستقيمين متوازيين في الظروف الطبيعية للرياضيات. ففضلاً عن مسرح الأحداث المكاني المختلف بينهما حيث يدور أحدهما في الوطن مع «عبدالرحمن» والآخر في الخارج مع «خالد»، هناك تفاصيل ضمنية معقدة تحكم علاقة كل منهما بواقعه.

فالأول يعاني الأمرين من أذى الوحدة وصعوبة الحياة في مكان بات يحاصره بأذى الذين تعاملوا معه بمنتهى القسوة، لاسيما حين دخلت سعاد في حياته والتي صارت بدورها عرضة دائمة لظروف بالغة القسوة والامتهان بسبب وضعها الاجتماعي الملتبس، وعجز عبدالرحمن عن فعل أي شيء حياله.

أما الثاني فكان وجوده في الخارج الذي تسبب له بمتاعب مختلفة، بدءاً من تنكر الناس له، أو تعرضه لحالات سرقة فيما كان يقضي جل وقته مع قاسم وفاطمة في عدة أماكن من ضمنها فندق لسيدة عجوز، غير أن «الروائيات» التي تتفق مع الرياضيات في أهمية إيجاد حل لكل العقد الموجودة، تكسر في الوقت نفسه قانون المستقيمات المتوازية حين يتعلق الأمر بالسياقات الدرامية. لاسيما في رواية تبدو محكمة الحبكة والنسج مثل «إكليل الخلاص». لأن التقاطع سيحدث بسلاسة متناهية حين نرى أن خيط المعرفة البسيطة بين خالد وعبدالرحمن التي نشأت من خلال تعاملات تجارية قديمة، يقود إلى حل كل عقد الرواية التي بقي الروائي ينسجها على مدى النص. فيغادر عبدالرحمن ليطوي مرحلة العذاب في حياته ويلتقي بأخيه من أبيه والذي لم يكن سوى «سعود»، الشخص المهم في مكانته العملية، والذي هو كذلك زوج فاطمة، رفيقة خالد في الرحلة والغربة المكانية. بينما ترتكب «سعاد» جريمة قتل وهي تدافع عن نفسها من توحش وابتزاز عامل أجنبي كان يتهددها طيلة الرواية. أقدمت على فعلتها بشكل أسطوري وبقيت فوق جثة قتيلها مبتسمة وتحتسي القهوة،

مـن دون أن تعلـم أن السيدة العجوز صاحبـة الفندق الذي يـزوره خالـد ورفاقه قـد توفيت، ومـن دون أن تعلـم أيضاً أن تلـك السيدة لم تكـن سوى والدتها التي لـم ترها يوماً. وهي الفكـرة النهائية التي آثر الروائـي محمد المزيني أن يدعهـا حائرة علـى شفـاه عبدالرحمن في نهايـة الرواية، وكأنـه يرغب في تكريس ميله الـذي صرح به نحو النهايات المفتوحة.

ليـس هنـاك رقـم هامشي فـي هـذا النص، ففكـرة الخلاص متجسـدة ضمـن أكثر من حـدث وبأكثر مـن طريقة. فخلاص «سعاد» مثـلاً، كان بقتـل الخـوف الـذي لازم حياتها حيـن تمثل لهـا فـي شخص يسـيء إليها، ولهـذا فقد كانت نشوتهـا بالخلاص أكبر من تفكيرهـا فيمـا ينتظرهـا لاحقـاً، بينما كان خلاص «عبدالرحمن» متمثلاً في كسر دائرة شديـدة الضيـق من التشتت المعيشي فـي غياب كل من تبقى لـه، وفي ظـل مجتمع يحيطه بنظـرات تملؤها قسـوة التعامل والتعذيـب المعنـوي المستمـر. وبذلـك تأتـي النهايات كحل عادل مع الجميـع، رغم اختلاف استحقاقات هذا الحل بين شخـص وآخر. إنهـا التقنية الكتابية التي يفترض أن يتقنها الروائـي دون أن يتـرك فيها أدنى هامش مـن الترهل البنائي أو الانزياحات السرديـة التي تحيل الرواية إلى دفتر مذكرات مفتوح لقلم يفكر بكل ما يخطر على بال صاحبه ليس إلا.

وعلـى بعـد خطوات مـن طـي الصفحة الأخيـرة من هذه الرواية، نستعيـد ذلـك الكم مـن التفاصيـل الاجتماعية الدقيقـة التـي شهدتهـا أحداثهـا المتشعبـة بمـا يتركـه المكان وطبيعـة الحياة فيه من انطباعـات مؤلمة أحياناً، ومتناقضـة أحياناً أخرى. سيخطر في بالنا أكثر من سبب لاختيـار أعمال المزيني للدراسة فـي جامعة فرنسية، كي تكـون شاهداً مثالياً على واقع الحياة في بيئة الكاتب، وهو ما يـدل على نجاحه فـي إتقان وصفها ونقلهـا ضمن بيئة كتابية محايدة ومقبولة أدبياً وفنياً. لا سيما وأنه يتميز عن كثير من الروائيين بامتلاكه ناصيتي البناء السردي واللغة الراقية في الوقت نفسه.

وإذا كنا سنأخذ بمقولة الناقدة كلاديس مطر بأن المزيني «يقتحـم بكل مـا يملك من وعـي وحب لوسـط ينتمي إليه ويغار عليه»، فمن الأجـدى أن نختتم برأي الكاتب المؤمن تمامـاً بقيمـه الأدبية في كتابـة الرواية، والتـي نجح فعلاً فـي النهوض بها بعكس كتابات أخـرى انحدرت في مجرد البحث عن عيوب الواقع وتوظيفها لتعزيز الإثارة المبتذلة فـي أعمال مهلهـلة فنيـاً وسرديـاً.. الكاتب الـذي يقول: «أنـا لم أتعمـد الفضح، بقدر ما كنـت أبحث عن المناطق المعتمة للكشف عنها، لجعلها في متناول حواسنا. ولنقدر بعـد ذلك على تلمس المناطق المظلمـة من حياتنا، وهذا ما يخشاه البعض بـلا مبرر. أرجوكم ألا تحسبوها شهادة محضـة، خذوها كمـا أرويها لكـم، وإن لم تبصـروا فيها شيئاً من ذواتكم، فاسحقوها بعد حرقها وانثروها في وجه الشمس»!

ينجح المزيني في النهوض فعلاً بروايته، من مهاوي انزلقت إليها بعض الأعمال الأخرى الباحثة عن العيوب، والمهلهلة فنياً وسردياً

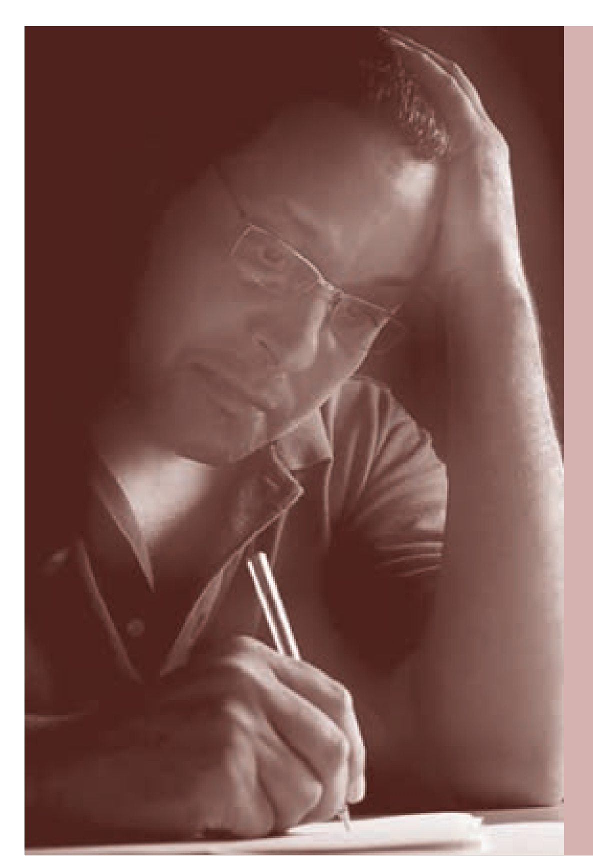


ولد محمد المزيني في الرياض ونشأ فيها.

درس في الجامعة الصحافة والعلاقات العامة، وقد وصف دراسته هذه في أحد أحاديثه الصحافية بـ «المملة جداً».

عمل سكرتير تحرير في مجلة متخصصة، إلا أن ميوله الأدبية دفعته إلى كتابة النصوص القصصية منذ العام 1990م.

وفي العام 2000م كتب أولى رواياته «مفارق العتمة» التي لم ينشرها إلا في العام 2004م عند المؤسسة العربية للدراسات والنشر. وكتب بعدها «عرق بلدي» التي تبنت نشرها مؤسسة الانتشار العربي.



«إكليل الخلاص»..
مقتطفات من الرواية

1

انتفض خالد في مكانه وكأنه قد تذكَّر شيئاً لا يؤجَّل، وسريعاً طأطأ رأسه نحوها وقد باغتها باهتمام بالغ وهو يسألها: لحظة.. سلمان بن سعود العابري.. كنت تعرفت على شاب اسمه عبدالرحمن سعود العابري.

- ربما تشابه أسماء
- ربما، هذا الشاب الأعزل تعرفت عليه من خلال تعاملات تجارية جمعتني به ليال طويلة، يكاد يكون الصديق الوحيد لي هناك وأظنني صديقه الأوحد.
- ضايع يعني ليس له أهل؟
- لا، هو تركهم صغيراً، هرب منهم لأنه أصبح بعد وفاة أبيه وأمه مقطوعاً من شجرة، وهذا أيضاً من أسباب تواصلي معه لأني مثله. في الرياض كنت مقطوعاً من شجرة ذلك بحد ذاته كان مريحاً لي جداً.
- سمعت من زوجي عن أخ له ترك المنزل قبل زمن ليس بالقصير ولم يسأل عنه أحد.
- بالله عليك، هل تتأكدين، لأنه سيترتب على ذلك أمور كثيرة، هل تعدينني؟
- ولايهمك، سأقوم باللازم مع أني لا أحب التدخل في أمور عائلة زوجي، ولا أعرفهم حتى، وتقريباً هو مثلي لا يتصل إلا بإخوته الأشقاء فقط، لأنهم كثر ومن نساء متعددات.
- أكاد أجزم الآن أنه أخوه.

قرروا نثر خطواتهم على قارعة الطريق منقادين لا شعورياً لهيمنة المدينة الساحرة. كانت تستبد بخالد رغبة مؤججة لكل المشاعر المتناقضة للدخول بعفوية في طرقاتها الصاخبة تجذبه إليها كأحد أبنائها الصغار فيسقط الطفل الراقد منذ إعلان عيد ميلاده عن عمر الرجل الافتراضي.. علمته المدينة أنها اختبار حقيقي للغرباء فعندما يحل العربي مثلاً لأول مرة تبهره... في النهاية تنتصر المدينة.

كانت تلك الساعة حاسمة، تتوغل بدقائقها إلى آخر بعد روحاني دلقوا فيه أنفاسهم. فانكمش مشهد الليل ليسقط في جوف النهار، والنهار يخاتل سطوة الليل، ليمتد الظل إلى أبعاد بلا حدود.يجتر الليل أولى ساعاته كإعلان مبكر عن إسدال الستار عن نهار متقد بأبخرة الأنفاس، تتدفق الأجساد المنهكة فتتمدد الأرصفة تحت وقع الأقدام الزاحفة كأمواج متلاطمة، تتشابك الأنفاس المعتقة بساعات عمل يومي طويل وشاق وتتعانق النظرات السارحة بلا معنى، وعند بوابات القطارات الأرضية تشكل عقداً بشرية تتحرك باتجاه واحد متدافعة صوب بوابات القطارات المحمومة الشبقة لالتهام مسارات غارقة في الظلمة، ترتطم الأكتاف بالأكتاف فتتشظى ألوان طيف داخل مكعبات صغيرة.

2

استبدت بعبدالرحمن تباشير الوحشة الأولى، ونخرت الغربة قلبه وعقله تلك المرة التي لم تسرح ذئابها العاوية بعد. ساعات هذا النهار البارد عصرت آخر قطرة عرق من جسده، صيرته نهشاً للأرق والسهاد وبقايا روح تتلظى بنار المرض والوحدة والتطلع. لمَّا نظر إلى وجهه في مرآة التسريحة المقابلة لفراشه انكشف له منها آخر تميمة تحترق أمام عينيه. الوحدة هنا ضاربة، والضجر في ليل المدينة الزاحف بأقدام

ثلجيــة جرداء، مُشَـوِّك. وهو القادم مــن فوهة شمس تغلــي، لعله يبصــر الآن بيــن عينيه ضجيــج الرياض وسكونهــا المفتعــل. مثل سفن تلاعــب أشرعتها رياح عاتية.

استعــرت حمى المرض المغلف بالوحــدة مثل كبسولات المضاد الذي يبتلعه كرهاً، أضحت الغربة طازجة تذكي شجونــه الأولــى في قلبــه خصوصــاً حينما قــرأ رسالة خالــد. طفقت أقدام التيه والشكــوك تجرّ الخطى إليه، سلكــت إليه طرقــاً خفية، تتجشأ برائحــة اشتمها للمرة الأولى، مغموسة بالملل.

اليــوم فقــط شرعــت الغربــة بقسوتها تلقنــه درسها الأول. تفــوح مــن حنجــرة الســأم، لا ضيــر إذن مــن حــركات متوتــرة أو عابثــة تثخــن عروقــه المنقبضة مــن التعــب، تمطَّى في غرفتــه متمنياً قــدوم فاطمة. هــذه الغرفة الضنكــة تنوء بحمله، يا لهــا من عبثيات يكابدهــا وتكابــده لا يريــم منها سوى تقطيــع أوصال الزمــن المتمدد داخله مثــل خيوط متشابكــة ورفيعة كحــد موس صقيل، نكص علــى عقبيه مهزوماً يتضور فــي فراشه مــن البــرد، ولا يمكنه حتــى الوقوف على قدميه، هــذه من أهم الدروس التي يلقنها غريب هذه الديــار، فهي أولى مراحل الاستكشاف، حتماً ستمزقه هــذه الساعات. شــرع بخيالاته، هذياً بعبــارات دنفه من أثــر الإرهاق وتعاسة الليلــة الماضية المتكئ على خناجــر البــرد. قــواه المنهوكة لا تقوى علــى إخراس رنين المحمــول المزعج كما لم تكــن حباله الصوتية مشــدودة بما يكفي للرد علــى اتصالات خالد وفاطمة المتواصلة ابتغــاء الاطمئنان على صحتــه. دثر رأسه بلحافــه القطنــي الثقيــل مــع قصاصة عــزاء هربها مطويــة بصحيفة مــن أحلامــه وأمانيــه الراقدة في جوف ظلمة روحه.



لم يكن اتصــال خالد مقلقاً لعبــد الرحمن وهو يعتذر لــه عن عدم المجــيء لأمر أثقله بهمــوم وكدر. ما دام يتفيأ ظــل فاطمة الوارف فقد اتصل بها يطلب عيادته وتمريضــه. لــم تقــاوم فاطمــة رغبتهــا بالاطمئنــان عليــه، فعندما ملت انتظار ردّه سارعــت إليه مستعينة بسيارتها الصغيرة، طارقة أقرب المسافات المزروعة بالمستنقعــات الصغيرة سريعــة التبخر (....) تزفها قدماها الخائرتان وقلبها الراعف بالخوف والاشتياق. فتــح لهــا البــاب يحمــل أنفاسه اللاهثــة، كاد أن يهوي تائهــاً وسط عبارات متكسرة لم يستطع تحريك لسانه الناشــف بقدر رهبته من المدينــة، وبقدر جوعه إليها وبقدر المرض وإحساسه بالضياع.



«إكليل الخلاص»..
مقتطفات من الرواية

من حنجرة متفحمة؛ كاشفها طفل تائه أن الليلة السرمدية الثالثة محبطة. زحفت إلى رأسه أفكار متناقضة ومشاعر خانقة. قال لها بنبرة كلمات مرتجفة:
- لم أنم. أقصد نمت مستيقظاً!

هذا الهدوء والصمت والتعب والإرهاق والمرض فاجعة. بات يتقلب على أشواك حارقة! مخنوق الصوت ومنطفئ العينين. بات ليله عارماً! محتدماً بالصمت القاتل والبرد الذي يشل الحركة. ليس أمامه إلا ما يمكن أن تتصيده يده على المنضدة المجاورة، وأبعاد التخت الذي يقله كجنازة، لا لذة للنوم، حتى الكوابيس هنا مثلجة. كان يرتشف في هذه اللحظات بالذات نكهة الهزيمة وكأنها انتقام من لحظات الفرح التي قطف عناقيدها من سعاد في أواخر أيامه. أما فاطمة فقد أثبتت أنها بموقع المسؤولية، حيث أضرمت له من روحها لهباً يدفئ به عظامه المتجمدة من أثر الوعكة الصحية. استلهمته أمومتها أثناء اقتناص المرض له، حيث ظلت إلى جانبه تطببه وتشافي سعاله المبحوح. تنفض كيانها نظراته المفعمة بالألفة والفقد والاحتياج. تمنى لو تسلم له ذراعها فيتوسده كطفل. لا يزال ينام على رائحة أمه ...

- ما أتعس ليل هذه المدينة الواجمة، كيف تطيقين العيش هنا؟

يزفر كمن يستحث همة نار راقدة تحت هالة من أخشاب رطبة للاشتعال، فكرت كلياً كيف توري نار جسده المنطفئ. كانت تأتي إليه صباحاً فلا تتركه حتى ينام بعد تناول قرص مسكن، وشراب للسعال، حتى ينهض يقشر عن جسده أدران المرض الذي علق به أكثر من ثلاثة أيام أريقت من روزنامته. صباح اليوم الثالث كانت تهمس عبر الهاتف طويلاً، كان معبأ بالإحراج.
(....)

فكر ملياً بأن يطلب من فاطمة تحت ضغط هذه الذاكرة المسنونة كسكاكين حادة بالتوقف عن إشغال نفسها به. كان لا يتمزق بمشاعر الذنب، فما زال رأسه يحمل الرياض، متشرذم بين منعطفاته الحادة. كطير يحوم في سماء ملفحة بالظلمة مكتنزة بأفكار متناقضة وقبيل أن تصطفق داخله، أيقظه صوتها الرخيم وهي تقول:

- ابني طارق في باريس يودعني للسفر في مهمة رسمية.

بذلك نفست عنه شيئاً من أحاسيس رهيبة بالذنب. قام من فراشه حائراً في سر هذه التي باتت إلى جانبه تحنو عليه بأمومة كاملة. يا لهذه الفاطمة، لم تقصر لحظة في توفير ما يحتاج، حتى الصحف السعودية التي جلبتها معها. لقد سحنت بذور اليأس في قلبه وحركت ذرات روحه الهائمة في الهباء، مبددة وحشته مثلما وهبته مقاومة عنيدة. كان يوضب نفقاً يهرِّب منه إليها شيئاً من أحلامه، عاونته على نفض أجندته العتيقة.. في هذا الوقت كان عبد الرحمن يطفئ لهيب صدره بأنواع من الأدوية المسكنة، ممرناً جسده على مقاومته. بينما لا يحرِّك ساكناً ولا يسكِّن متحركاً من حوله. المرض أدخله صهريج اختبار، حيث طرقت حياته لغة مختلفة للمعاناة. أن تذوب في فراغ ممتد بلا نهايات، تسأل نفسك كيف جئت ومن أي الأبواب

ولجت وكيف وإلى متى. هـذا هو حـال عبد الرحمن اليـوم بـات مجرداً مـن كل شـيء، حتى روحـه وقواه التـي ينهشها المرض بزفير أنفاسـه المشتعلة موقداً لهـا صدره العاوي بكحـة حرشاء. صار يـزاول هواية التحديـق فـي الفـراغ من خـلال نافـذة الغرفـة إلى أشجـار الزيزفـون واللبلاب والصنـدل والبلوط منذ مئات السنين.

هذا الصباح اشرأبت أنفاسـه، فامتطى صهوة التحدي لمقارعة لغة البرد وغوايته الغازية لجسده. هذا الصباح كأن طاقـة المارد شرعت تحرك ذرات روحه من جديد. تعيـد تشكيـل الكائـن الملبد بالضيـاع بفـرادة وتميز، وأشياء. لعل هذا المرض المفاجئ هو محض رحمة من الله كي يشيد له روحاً جديدة وينبذ تعاليم المدينة التي يحمل نطفتها بين شرايينه. سألته بعدما ألقمته الدواء:

- كيف تشعر الآن؟
- أحسن.
- إذاً ما رأيك بالخروج؟ هل تقدر؟
- نعم أقدر... الآن شفيت.

مـد يـده؛ يلتقط واحـدة مـن الصحف التـي طوتها فاطمـة ووضعتها على الكومودينـو القريب منه بينما هي تحضـر له كأس ليمون ساخنـاً. الصفحة الأولى كالعادة صور كبيرة وأسماء أكبر.. الثانية صور موت ودمـار.. الثالثـة مقالات طويلـة تشبـه الخطابات.. الرابعة ويا ليتـه لم يقرأ الخبر الرئيس في الصفحة الرابعة بالمانشيت العريض: «أربع رصاصات قاتلة أسكنتهـا صـدره وجلست إلى جانبـه تحتسي فنجان قهوتها»....

كان يقرأ الخبر بينما عيناه تغوران تحت وابل من الدموع تنهمـر وصوتـه يتحشرج في صـدره الكظيـم، وأنفاسه تهـدر كحجارة تنقض من رأس جبـل، حتى فار كمرجل يغلـي. انتفش كالمـارد يمزق الصحيفـة ويصيح بهياج صار يضـرب بجسـده ورأسـه الحيطـان. وكأنه يبحث فيهـا عن نافذة يخرج منها، سريعـاً أسقطت فاطمة ما بيدهـا مرعوبة من هذا الـذي انفجر فجـأة دون سابق إنـذار. فكرت أن تستدعي رجـال الأمن أو تهرب وتتركه لمصيـره، فكـرت سريعاً فـي اللحظة التـي التقط فيها الصحيفة، خمنـت أن ثمة خبراً أصابـه بالجنون وطير عقله، تركته حتى ينثر كل حنقه ومصيبته، حتى التصق بالجدار يبكي كطفل صغير وفي وجهه نهر جارف يحمل كل معادنه، قال:

- أنـا السبب والله أنـا السبب، فاطمة أرجـوك أريد أن أعـود، سأعترف لهم أني أعطيتها المسدس، وأوحيت لهـا بفكرة الانتقام، يجب أن تخرج، ما ذنب الأطفال، هناك ليس لديهم أحد إلا هي. أرجوك يا فاطمة هيا.

قالت مذعورة، وقلبها يتفطر عليه:
- اهـدأ يـا عبد الرحمن كل شيء له حـل، بس المهم أن تهدأ. أعدك أن أرتب لك العودة سريعاً.

جلـس ينشـج متمدداً علـى الأرض ببكاء حـار، وفاطمة تمسـح وجهـه بفوطـة مبللـة بالمـاء. لـم تبـرح عيناه شاخصتين في الفراغ، عمّ الصمت ....

من النقش إلى الصورة

*

حينما يتسنى لنا تأمل المشهد الإبداعي، لا بد لنا أن نستدعي التاريخ، لنستحضر في الغالب الأعم صور «كان» في الذاكرة والوجدان، فلنا في الماضي ثمة ما يضيء دهشة اللقاء الأول، حينما نرسم خطاً واضحاً بين تراسلات الفنون منذ فجر التاريخ، مروراً بحقب التحجير والجير، إلى العصر الحاضر.

فالمناخ الإبداعي لا بد له أن يستدعي التاريخ، أو أنه يُصار إليه في اقتفاء حساسية الخطاب الإبداعي للإنسان أياً كان، وأينما وجد، فلا يمكن لنا أن نُقَسِّمه، أو نُفيِّئه، أو نجعله حقباً على ظاهر أهوائنا، أو تصوراتنا الآنية للأشياء.

وهذا ما تسعى إليه الكثير من التجارب الجمالية التي يتعاطاها الإنسان في أي مكان أو زمان، فلا يخرج أي عصر من العصور إلينا من بوابة التاريخ إلا ليذكرنا بأنه قدَّم للفنون والإبداع أعز ما يملك، فدرجت هذه المفاهيم على التواتر والتراسل حتى بتنا في تمرحل لا ينقطع من هذا التفكير الدائم، والجهد الدائب في تقبل حقيقة الجمال.

فهذه التجارب والمحاولات تعكس حقيقة أهمية تطورها، وحضورها بغية تأدية دورها الإنساني في شأن الفن الجمالي من أجل صياغة دور التذوق وملامسة البهاء ليتم تسجيل الحضور، بل والسعي إلى هدف أسمى يتمثل في تدارك تبعات هواجس الذكرى التي تشعرنا بأن الفناء أليم.

فلا بُدَّ لنا إزاء أمر كهذا أن نوجد أي معادل جمالي لنقول للأجيال من بعدنا إننا بالفعل قبل القول نحب الحياة، وها نحن نُخلِّد بعض معادلات وجودنا المتظاهر أحياناً أمام التاريخ بالجمال والمتعة والفائدة، لأن دهشة اللقاء بكل ما هو ماضوي تنطلق من عنصر إنساني معبر يتمثل في صياغة الأمم لمفاهيمها وفق الضرورات، وأنماط العيش، وتعابير السعادة والشقاء، والبحث عن اللقمة والدفء في عراء الحقب المتعاقبة.

فحينما نستعرض فصول التاريخ الفني والجمالي ندرك أن النقوش على جدران المغاور والكهوف هي التي كانت ترمز لوجود هذه الظاهرة الفنية التذوقية الجمالية، فعلى جنباتها نلحظ دون عناء أن هناك إنساناً -فنَّاناً- ما عبر التاريخ إلينا من خلال هذا البعد الفني المعبّر.

لم يشأ أن ينقطع هذا التوهج المعرفي، وهذا التراسل الضمني لحقيقة مسيرة الفن لتأتي الصورة بمنطلقها الجديد.. تلك التي اكتشفها الفنان الفرنسي «جوزيف نيبس» حوالي عام 1826م حينما اخترع ما يعرف بالغرفة المظلمة. فحاول أن يجسد من خلال مفارقة العتمة والضوء باستخدام الصفائح المعدنية التي تعكس الأجسام أن يجسد رغبة البقاء في نسيج التاريخ، ليتم التقاط صورة تكرس ملامح الإنسان حتى تطورت تلك الفكرة إلى ما نشهده اليوم.

وفي الطرف الآخر من المعادلة، فإن ما نراه من بقايا الأمس، ورموز الماضي يأتي في الغالب أكثر إدهاشاً، وأقوى حضوراً في ذائقة المتلقي، فالذي يتأمل ما خلدته المنقوشات في عصور الفراعنة على سبيل المثال يدرك أن الرسالة أقوى بكثير من كونها مجرد إشارة إلى أن هناك من عبر في ذلك الزمن نحو التاريخ، بل تجاوزته تلك الأعمال إلى فعلٍ ومنتج حضاري جعله من عجائب الدنيا السبع أو العشر.

فالفاصل الزمني بين (النقوش)، و(الصورة الفوتوغرافية) يمثل حقيقة التطور للعقل البشري الذي لا يزال يقبل على الفنون بوصفها حالة جمالية. إلا أن هذا العقل يحتاج إلى مجاراة في توفير وسائل التقنية كما أسلفنا، من أجل مد جسور التواصل مع أي جهد إبداعي جمالي يحقق المتعة والفائدة، ويوسع مدارك الأجيال لتقبل حقيقة التاريخ وحقبه المتواترة.

* روائي وصحافي سعودي



البطل

سواءً أكان مصاغاً من أصل حقيقي أم كان من نسج الخيال جملة وتفصيلاً، يبقى البطل واحد: إنه القادر على القيام بعمل لا يستطيع غيره القيام به. وفي حياة كل فرد ومجتمع بطل أو أكثر، يمثّل القدرة البشرية في ذروتها. إنه البارز والمميز. وهو أيضاً قيمة أخلاقية ومعنوية ومثل أعلى، كما أنه مصدر زهو المجتمع، خاصة عندما يكون المجتمع في ذروة ضعفه وتأزمه. وكأني بالبطل تارة حلم وتارة أخرى مجرد تعزية.

إن الأبطال الذين أنجبتهم الآداب والفنون هم أكثر عدداً من أولئك الذين أنجبهم الواقع. وحتى عندما يخرج من الواقع بطل حقيقي، نراه يُوجَّه فوراً إلى ورشة الآداب والفنون لتضع لمساتها على حلته كما يشترط المجتمع أو يتوقع. ولذا، كان من الطبيعي أن تتقلب صورة البطل وتتنوع بتقلب أنماط الحياة الاجتماعية وقيمها، وبالتالي تقلب الآداب والفنون المعبرة عنها.

في هذا الملف، يأخذنا هشام عودة* وفريق التحرير إلى عالم البطل الخالد في صموده أمام كل الصعاب، ما عدا قلم الأديب ومزاج الفنان، في كل الثقافات والأزمنة وصولاً إلى القرن الحادي والعشرين.



* كاتب وصحافي من الأردن

Corbis




عنترة، أبو الفوارس، أشهر أبطال العرب في الجاهلية

ويرتبط البطل في الوعي الجمعي للناس بجملة صفات إيجابية، عاش بعضها قروناً طويلة من الزمن، وتبدَّل بعضها في العصر الحديث بفعل التغيرات الجذرية التي طرأت على حياة المجتمعات أينما كان في العالم بعد الثورة الصناعية، وبشكل خاص خلال القرن العشرين.

ولكن، وبشكل عام، تبقى صفات البطل كامنة في قدرته الخارقة على إنجاز ما لا يستطيع أي كان إنجازه. إنه الشخص المستعد لمواجهة الصعاب حتى حدود التضحية بالنفس من أجل مصالح مجتمعه، أو من أجل الدفاع عن قيمه ومعتقداته، التي غالباً ما تكون منحازة إلى مصالح غالبية الناس من حوله.. فينظر إليه هؤلاء على أنه حاميهم والمدافع القوي عن الآخرين، بعبارة أخرى، على أنه منقذهم.

وتشكَّل البطولة طليعة المفاهيم التي تبدأ بالتغلغل في عقل الإنسان منذ طفولته، من خلال قراءاته الأولى لكتب الحكايات، أو حتى منذ قدرته على فهم معانيها وهو يسمعها من ذويه يتلونها عليه قبل النوم. ومهما تقلب مفهوم البطولة في عقل الإنسان عندما يكبر، فإنه يبقي على جوهره التربوي من خلال مجموعة صفات حميدة أبرزها درء اليأس ما أمكن أمام الصعاب، والإيثار الضروري لحسن الحياة في المجتمع.

من النادر أن يكون مجتمع ما قد عرف أبطاله حقيقة عن قرب، أو حتى أن يكون قد عاش في عصر هذا البطل. فالوجدان الشعبي لا يبدو مكترثاً بالحقيقة التاريخية للبطل بقدر ما هو مهتم بصورة هذا البطل كما صاغها الأدب أو الفن، فجردها من عيوبها الإنسانية الصغيرة، وجمَّل ما أمكن تجميله من صفات هذا البطل. ولذا يبدو انبهار الإنسان (وحتى المجتمع ككل) ببطل معيَّن، هو أقرب إلى أن يكون تعبيراً عن تطلعات وأمنيات، منه إلى تكريم البطل الحقيقي لإنجازاته العظيمة. وكأن المطلوب من البطل أن يكون صورة تحظى بالإجماع على احترامها، ويجب على المجتمع أن يرتقي إلى مستواها في مواجهة تحدياته.

لا بد من وجود البطل.. فهو حاجة اجتماعية وثقافية. وما يؤكد ذلك هو أن الثقافات التي يشحُّ واقعها بالأبطال الحقيقيين تلجأ إلى اختراعهم جملة وتفصيلاً. فمن ليس عنده عنترة العبسي، يمكنه أن يخترع «سوبرمان».. وعلى الرغم من الفوارق التي لا تعد ولا تحصى ما بين هذين البطلين أو كل الأبطال المنتمين إلى نوعيهما، فإن وظيفة البطل واحدة: ملء فراغ لا يمكن لغيره أن يملأه في ثقافة المجتمع، أي مجتمع، ونظرته إلى نفسه.

يعرِّف قاموس «وبستر» البطل على أنه «شخص أسطوري خرافي، يكون غالباً ذا صفات استثنائية، ويتمتع بقوى أو قدرات خارقة، وهو مقاتل لا يُقهر ويتحلَّى بخصال نبيلة وشجاعة نادرة». كان يمكن لمثل هذا التحديد أن يكون قابلاً للمناقشة لو أنه ظهر في أثينا أيام حربها مع طروادة، أما اليوم، فإننا نقف أمام مفاهيم للبطولة

السيف.. أداة البطولة الأولى خلال ثلاثين قرناً

لا تعـد ولا تحصى، بدأت بالظهور فـي أزمنة ساحقة لم يؤرخ لها بدقة، وظلَّت تتقلب حتى يومنا هذا.

البطولة في عصر القوة

يربـط الكثيرون نشأة مفهـوم البطولة بالحضـارة الإغريقية. ولكن هذا الربـط ليس دقيقـاً تماماً ولا يمكن تبريره إلا بكثـرة ما وصلنا من الأدب اليونانـي الذي يـروي سيـر أبطال تلـك الحضـارة، بيغماليـون، أخيل، هوراسيـو، هيكتـور، هرقـل.. وغيرهم. ولكـن الواقـع أن كل الحضارات القديمة مجَّدت أبطالهـا الأقوياء. فلو دققنا قليلاً في الرسوم الفرعونية والآشورية، لوجدنا ملوكهـا وفراعنتها يمارسون أعمالاً لا يقوى عليها إلا الأبطال. ففي مشاهد الصيد مثلاً، نرى الفرعون المصري أو الملـك الآشـوري يصطاد الأسود بالرمـح خلال اشتباك معهـا، وليس عن بعد، وهذا ما لا يجرؤ أي كان على القيام به. وحتى في ما يخص المجتمعات الأولى العائدة إلى ما قبل هذه الحضـارات، يؤكد علماء الأنثربولوجيا أن قيادة العائـلات والقبائل كانت للأقوى، الأقـدر في الدفاع عنها، وفي الإتيان إليها بأكبر كمية من طرائد الصيد.

إن الجديد الذي طرأ على البطولة في حضارة الإغريق، كان اكتسـاح مفهوم البطولـة للأدب برمتـه. فالإلياذة والأويسـة والمؤلفـات المسرحية اليونانيـة كلها تقريباً، تدور حـول البطولات وسِيـر الأبطال. وفي هـذا الأدب، تأسـس المفهوم الأولي للبطل ومقاييسه الذي ظل قائماً في أوروبـا حتى القرن التاسع عشر. إنـه الرجل المفتول العضلات، القادر على استخدام السيف بمهارة لا مثيل لها عند أعدائه، وهـو الذكي، الشهـم، الذي لا يعرف الخوف، يعيـش بطولته في كل يوم مـن أيام عمـره، ومآثـره سلسلة طويلة مـن الأعمال المهيبـة والمثيرة للإعجاب.. ولكن ليـس من الدقة في شيء القول بفضل الأدب اليوناني على ظهـور المفاهيم المشابهة للبطولة فـي ثقافات وحضارات أخرى، ولا حتى على الأرجح، على استمراره في أوروبا حتى القرن التاسع عشر.

wikimedia

هوميروس شاعر الإلياذة وصائغ أبطال أثينا واسبارطة



Corbis

الحضارة الرومانية.. ذروة تمجيد الحياة العسكرية وأبطال السيف

فكيف نفسر ظهور أبطال مشابهين إلى حد بعيد لأبطال اليونان القديمة فـي ثقافات لـم تدرس هـذا الأدب، مثل عنتـرة العبسـي والزير سالم وسيـف بن ذي يزن وغيرهم ممن عُرف عنهم أولاً قوة الساعد ومهارته في استخـدام السيف إلى جانـب باقة الخصال الحميـدة وعلى رأسها الشهامة والترفع عن الصغائر والفخر بالذات وما إلى هنالك؟

إن ما دفع بالقوة الجسدية لأن تكون المقياس الأول للبطولة هو طبيعة



Corbis

ختم أسطواني يمثّل فصلاً من ملحمة جلجامش

البطل في الأسطورة
عوليس، أخيل، الملك آرثر

لا يمكن الحديث عن البطل والبطولة من دون أن نتوقف عند الميثولوجيا الإغريقية، بأبطالها الأسطوريين «الخارقين» الذين نقشوا مجد أمتهم في الصحائف والحجارة، حتى أن قصصهم ارتحلت عبر العالم، لتتداخل مع أساطير البطولة في الأمم الأخرى.

لنا في يوليسس أو أدويسس حكاية تتضافر فيها كل عناصر البطولة من القوة والشجاعة والحرب والنصر وقهر العقبات والانتقام قبل استعادة مجد ضائع. كان يوليسس (أو «عوليس» كما يُشار له بالعربية)، ملكياً إغريقياً أسطورياً على عرش مملكة إيثاكا -نسبة إلى جزيرة إيثاكا اليونانية في البحر الأيوني- خُلِّد كأحد أبطال حرب طروادة التي سُطِّرت فصول منها في ملحمة «الإلياذة» للشاعر اليوناني الملحمي هوميروس، كما كان بطل «الأوديسة»، الملحمة الشعرية الأعظم في تاريخ الأدب الغربي لهوميروس أيضاً التي روت وقائع عودة يوليسس إلى وطنه بعد الحرب، في رحلة من التيه والضياع والأسر امتدت سنوات عشر، وقفت قوى الطبيعة مع البطل تارة وعاندته تارة أخرى. اكتسب يوليسس مكانته في سجل الأبطال الأسطوريين لدوره الاستثنائي في حرب طروادة، من خلال قصة «حصان طروادة» الشهيرة التي رواها الشاعر الروماني فيرجيل في ملحمة «الإلياذة» الشعرية. كان يوليسس صاحب فكرة الحصان، وهي فكرة دفع ثمنها ربما لاحقاً ذلك أنه أمضى سنوات عشر في رحلة ضياع، وكشف للذات، واختبارات صعبة لحنكة الملك وشغف البطل قبل أن يعود إلى مملكته أخيراً، ليستحق أن يُنتخب كأسطورة دخلت الشعر والنثر العالمي في أكثر من تأويل.

لكن البطولة والمأساة قرينان، ونهاية الحكاية مفجعة كما اقتضى عرف البطولة. هل تذكركم حرب طروادة ببطل آخر منتخب؟ ماذا عن أخيل؟ لقد كان الشخصية المركزية في «إلياذة» هوميروس والمحارب الأعظم كما جاء في تضاعيف الملحمة. كان أخيل وسيماً فاتناً، والوسامة سمة الأبطال التاريخيين إذ إن الشجاعة وحدها لا تكفي! كان منيعاً، كما صورته الأسطورة الإغريقية، لكن ثمة نقطة ضعف واحدة ستطوي صفحة البطل، إنها في كعبه. وها هو سهم مسموم، يقال إن باريس الطروادي، سدده إلى كعب أخيل قضى على البطل أخيراً. من هذه الحكاية، استعنا بـ«كعب أخيل» كي نصف نقطة ضعف المرء، التي ابتلي بها حتى أعظم الرجال وأشجعهم وأكثرهم عصياناً على الهزيمة!

ونمشي قروناً لنقف عند مقتطف يسير من صفحات ملك إنجلترا آرثر؟ كثيرون قرأوا عنه، أو سمعوا به، لكن قلة هم من يعرفون أن آرثر ملك أسطوري! والخيال، الذي يرافق حكاياته أكثر بكثير من الحقيقة، هذا إن كان ثمة حقيقة في القصة! بحسب الروايات التي سجلت في القرون الوسطى والحقبة الرومانسية، قاد آرثر حملة الدفاع عن بريطانيا ضد الغزاة الساكسونيين في أوائل القرن السادس للميلاد. ثمة من يرى أن آرثر لم يكن ملكاً وإنما قائد حربي، ولا يزال المؤرخون حتى عصرنا هذا مختلفين بشأن هويته وحقيقته، ومن الصعب جداً تمييز حدود الخيال عن الحقيقة.. لكن الحقيقة هي أن آرثر يحتل مساحة احتفائية عظمى في الفولكلور الإنجليزي، وثمة مخزون شعري وسردي هائل يسرد حكاية الملك المغوار. ولولا آرثر، لنقص إرث كتاب ومؤرخين عظام أمثال جيوفري مونماوث، الذي جمع حكايات آرثر في كتابه الشهير «تاريخ ملوك بريطانيا»، في القرن الـ ١٢، والشاعر الفرنسي كريتيان دو تروا، الذي دشن ما بات يعرف بـ «نوع الرومانسية الآرثرية» في الأدب، والشاعر المسرحي الإنجليزي وليام شكسبير، بالإضافة إلى شعراء أمثال روبير دو بورون ريتشارد بلاكمور وألفريد لورد تينيسون وويليام ويردزويث وعشرات آخرين.





دارتانيان والفرسان الثلاثة.. رموز الولاء السياسي كقيمة من قيم البطولة

الحروب. ولأنه حتى رواج الأسلحة النارية (القاتلة عن بعد)، كان السلاح الأبيض هو أداة القتال الرئيسة، فإن القدرة على استخدامه بمهارة كانت مسألة حياة أو موت لهذه المجتمعات، فمجدت تلك النخبة من المقاتلين الأشداء أكثر من غيرهم، أيما تمجيد، ورفعتهم إلى مرتبة تسمو على التراتبيات العسكرية المتعارف عليها، وسمتهم «الأبطال».

ولأن التحديات العسكرية لم تكن الوحيدة التي تشكّل خطراً على الناس والمجتمعات، بل كانت هناك الطبيعة بغضبها وضواريها ومشقات سبلها، كان على البطل أن يجمع إلى قوته الجسمية، الذهن المتوقد ذكاءً، الضروري أصلاً لمحاربة الأعداء أيضاً. فالبطل كإنسان مكون من عقل وجسم. أي لا يمكن تقطيعه إلى كتلة عضلات ضخمة يعلوها عقل خامل. إنه إنسان يكرس حياته وأفعاله للدفاع عن القيم التي يؤمن بها أو يسعى إلى نشرها. ولذا، عليه أن يتحلى بهذه القيم، وهذا يتطلب منه أن يكون مفكراً. ومهما طغت براعة وروعة الجوانب الجسمانية والحركية في حياة البطل أو قصته، إلا أن عليه، ليكون بطلاً حقيقياً أن يكون «مفكراً» بالمعنى العملي، كما أن عليه بصفته مثلاً أعلى، أن يتحلى بأهم الصفات الحميدة كما يحددها المجتمع الذي ينتمي إليه. فهل بالسيف فقط حقق أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ما حققوه في ميادين القتال، أم أيضاً بمجموعة القيم الفكرية والأخلاقية الإسلامية التي كانوا يدافعون عنها؟

إن البراعة والقوة في استخدام السيف تتلازم مع الولاء للسلطة السياسية عند البطل الإغريقي أخيل في إلياذة هوميروس، تماماً كما هو الحال عند الفارس دارتانيان في رواية الأديب الفرنسي ألكسندر دوماس «الفرسان الثلاثة» التي ظهرت في القرن الرابع عشر، تماماً كما تتلاءم القوة مع الحب الرقيق والمخلص في سيرة عنترة بن شداد والبطل المتخيل جملة وتفصيلاً «سبايدرمان» كما شاهدناها على شاشات التلفزيون مؤخراً.

وفي العصر الحديث البطل يحط على نهر الهدسون

لو قيل لنا من دون كثرة تفاصيل إن أقوى دولة على وجه الأرض أجمعت شعباً وحكومة على اعتبار أحد أبنائها بطلاً قومياً، واحتفت به بصفته هذه، لتخيلنا (حتى اليوم أيضاً بفعل الكثير المترسب في لا وعينا) أنه شاب في الثلاثين أو الأربعين من عمره، مفتول العضلات قام بعمل خارق لا يقوى عليه إلا الجبابرة جسمياً وعقلياً. ولكن الحقيقة أن هذا البطل هو شخص عادي جداً يميل إلى النحول أشيب الشعر، على مشارف الستين من عمره، إنه الطيار الأمريكي الذي تعطل محركا طائرته بعيد إقلاعها من مطار لاغوارديا في نيويورك قبل أشهر قليلة، فاختار نهر الهدسون ليحط عليه. الأمر الذي أنقذ المسافرين على متن

http://blogs.mysanantonio.com

Corbis

البطل في العصر الحديث: صاحب أي تصرف حكيم في لحظة حرجة واحدة

الطائـرة من كارثة كانـت لتبدو محتمة فيما لو قرر العـودة إلى المطار الذي كان قد أصبح بعيداً عنه.

إن رفـع هـذا الطيار إلى مرتبـة الأبطال لا يتضمـن مبالغة، ولا هو غيـر مستحق. بل يكشف عن التحول الكبيـر الذي طرأ على مفهوم البطولـة فـي العصـر الحديث، بعدمـا غـاب السيف عـن ميدان المعـارك، وحيث لـم تعد العضـلات تجد مبـرراً لتغذيتهـا إلا في مباريـات كمال الأجسام في الأندية الرياضيـة. إن البطل اليوم هو شخـص عادي جداً، يعيش حياة عادية جـداً، ولكنه قادر في لحظة حرجـة أن يستنفر كل قواه العقلية وما تيسر له من قوة جسمية (إن تطلـب الأمر)، للتصرف بحكمة، ليعود بعدهـا إنسانـاً عادياً، تمامـاً كما فعل هذا الطيار الأمريكي.

ومـن الصور الموضحة لمفهـوم البطولة في عصرنـا، الاستفتاء الذي تجريه شبكة «سي إن إن» التلفزيونية، حيث تدعو مشاهديها إلـى اختيار بطل العـام من بين عدد مـن الشخصيات المختلفة، ويكشـف التدقيق في منجزات المرشحين أنهـم كلهم تقريبـاً من العامليـن في الشـأن الاجتماعـي مثل محـو الأميـة، أو مساعدة المحتاجيـن، أو التطبيب في الأماكن النائية من البلدان الفقيرة، وما شابه ذلك.

أصل البطل المعاصر

علـى الرغم من ظهور الأسلحـة النارية في القـرن السادس عشر، فإن السـلاح الأبيـض ظل مستعملاً فـي بعض الحروب حتـى بدايات القرن العشريـن (الحـرب العالمية شهدت معارك عديـدة خيضت بالفرسان والخيول والسيوف). ومع ذلـك، فإن أبطال السيف اختفوا منذ العصر الوسيط في البلاد العربية، ومنذ عصر النهضة في أوروبا. وإذا لم يكن ظهـور السلاح الناري هو من قضى علـى البطل المحارب، فمما لا شك فيـه أنه لا يدعم إحيـاءه على الإطلاق. فالأسمـاء اللامعة في الحروب المعاصـرة هي أسمـاء الجنـرالات والساسة أصحاب القـرار، وليست أبداً أسمـاء أبطال الميدان الذين قضوا على الكثير من الأعداء. وحتى عندمـا يقدم الأدب أو السينمـا أو حتى الاستطلاع الوثائقي صورة بطل ميدانـي تتوافر فيه كل صفات البطل التقليدي فإننا ننسى اسمه بمجرد خروجنا من صالة السينما أو الفراغ من قراءة قصته.

يا بطل

كلمـة يوجههـا الأهل إلـى أي من أبنائهـم، وفي كل مناسبـة يقوم فيها هـذا الابن بعمـل يستحق المديح، إمـا لما مثَّله من جـرأة وشجاعة، أو مـن استعداد لتأدية خدمة للآخرين طوعـاً. ويمكن أن يشمل ما قام به الفتى واستحق عليه التحية أي عمل، بدءاً من ذهابه عدواً إلى الجيران كـي يعود حامـلاً بعض السكـر أو البن لوالدته التـي تحتاجه لضيوفها، أو سجَّـل هدفاً في مباراة في المدرسة، أو عبـر الشارع لينقذ طفلاً قد تصدمـه سيارة مسرعة عابرة، أو أجاب إجابة جيدة عن سؤال طرحته معلِّمة الصف.

وقـد يدرك مـن يخاطب الفتى بهذا النعت المحبـب، أو لا يدرك، أن ما فعله إنما يعبِّر عن «فعل تربوي اجتماعي قومي»، من النوع الذي تمارسه الشعـوب مـع أولادها كـي تهيئهم للقيـام بمهام تنتظرهـم في لحظات الخطر أو الحاجة، وتتطلب منهم ممارسة روح البطولة هذه.

وكثيـراً ما يقال «شكراً يـا بطل». والشكر هنا بقدر مـا هو فعل ذوق هو كذلـك جـزء من التهيئـة. فالفتى يعرف أنـه حين يقوم بعمـل البطولة سوف يعترف له به ومع الاعتراف شكر وإكبار.

وهـذا القول ليس من بدع الحياة المعاصرة، وليـس أسلوبًا من أساليب التنشئـة الحديثة ولكنَّه يُلبِّـي حاجة إنسانية طالما سعـى إليها المرء، كبيراً كان أو صغيراً إرضاء لذاته، وليس أدلّ على ذلك من قول الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد:

إذا القومُ قالوا مَن فتًى؟ خلْتُ أنني
عُنيتُ فَلَمْ أكْسَلْ ولم أتَبَلّدِ



إن العقلانية التي بدأت تسيطر على نمط التفكير في أوروبا منذ عصر النهضة، وبلغت ذروتها في عصر الثورة الصناعية، غيَّرت مفاهيم كثيرة بتغييرها لحاجات المجتمعات على الصعيد الوجداني.

فالعدو الجديد قد يكون الآلة (كما هو الحال في الطائرة التي تعطلت محركاتها فجأة)، أو قد يكون وضعاً اقتصادياً عاماً، أو قد يكون في عجز فئة اجتماعية كاملة عن الحصول على الطبابة التي تحتاجها، وقد يكون تحدياً علمياً يتطلب قدرات ذهنية غير متوافرة للجميع، ناهيك عن تطلعات الشعوب إلى الارتقاء إلى مستوى شعوب تنعم بأوضاع أفضل... وقد أسهمت الآداب والفنون (وأحياناً مراكز القرارات السياسية) في صياغة مفاهيم جديدة للبطولة، وتساعدها وسائل الإعلام المتعاظمة نفوذاً، على تعميم هذه المفاهيم وانتزاع الاعتراف العام من المجتمع بصحتها. وهكذا صار هناك أبطال في عوالم الرياضة والسياسة والعلوم والفنون والآداب والعمل الخيري والشرطة والدفاع المدني.. وكلهم أناس عاديون، غالباً ما تتجلى بطولتهم لمرة واحدة في العمر وفي مجال واحد، ليعودوا بعدها بلحظات أناساً عاديين مثلهم مثل غيرهم من أبناء مجتمعهم.

ولكن هذا البطل الحقيقي الذي صارت بطولته تخضع للتدقيق قبل إعلانها، لم يقضِ تماماً على البطل ذي القوى الخارقة المنسوج جزئياً أو كلياً من الخيال، فقد ظل هذا النوع التقليدي من الأبطال حاجة. ولكن واقع الحياة المعاصرة لا يوفر المادة اللازمة لتلبية هذه الحاجة، فهبت الفنون لصناعته.

«سوبرمان» رجل يطير، لا يخترقه الرصاص، يستطيع أن يحمل عمارة، وذو نظر يخترق الجدران، «الرجل الوطواط» رجل يتنكَّر بملابس الوطواط إخفاءً لهويته ليحارب عصابات المجرمين، ومثله «الرجل العنكبوت» وأيضاً الرجل الآلي «غراندايزر».. كلهم أبطال صاغهم الخيال، للأطفال أولاً، فلقوا القبول نفسه من الكبار. ولا عجب في ذلك، لأن الجريمة ومحاربة المجرمين من أبرز هواجس المجتمعات المعاصرة، وسحق المجرمين الذين يصعب على أدوات العدالة التقليدية القضاء عليهم هو حلم هذه المجتمعات.

الأبطال القوميون

إن كان السيف بكل ما يرمز إليه من قدرة على مواجهة الأعداء قد خرج من مقاييس البطولة «العسكرية أو الوطنية» في العصر الحديث، فقد حلَّت محله مقاييس مختلفة تماماً تتمثل بشكل خاص في القدرة على تحقيق إنجاز ضخم لصالح المجتمع أو الوطن، اعتماداً على الإرادة والحكمة والتخطيط والجهد الكبير حتى ولو خلا هذا الجهد من كل مظاهر القوة الجسمانية. ولعل أوضح مثال يمكن إعطاؤه هنا هو غاندي، قائد الثورة الاستقلالية في الهند، والذي ينظر إليه شعبه على أنه البطل القومي الأول من دون منافس قريب.

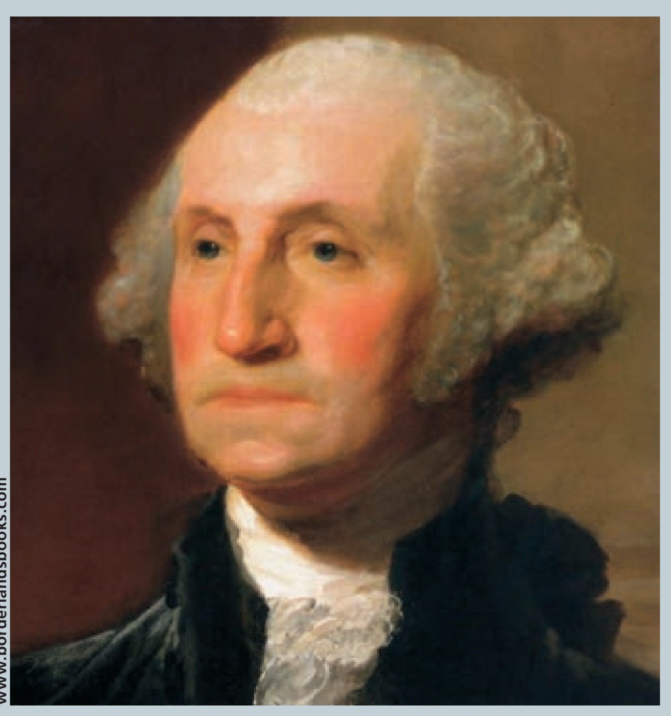
www.themoviedb.org



سوبرمان والوطواط، أشهر أبطال القرن العشرين في الدفاع عن الخير ضد الشر، ولكن في عالم الخيال فقط


King Abdulaziz Foundation for Research and Archives

من الأبطال القوميين: الملك عبدالعزيز، يرحمه الله، موحّد المملكة ومؤسس نهضتها


www.borderlandsbooks.com

والواقع أن لكل شعب من شعوب العالم بطله القومي الأول الذي جسَّد طموحات هذا الشعب في وقت من الأوقات، وحقق له ما عجز أسلافه من القادة عن تحقيقه. فالسعوديون يتطلعون إلى الملك عبد العزيز، رحمه الله، كبطل تاريخي لتمكنه من تحقيق وحدتهم الوطنية التي كانت تبدو شبه مستحيلة التحقيق في ذلك الزمن، ولوضع هذه البلاد الموحدة على طريق النهضة الحضارية الكبرى التي ما كانت ممكنة لولا إنجازاته الشخصية. وبالنظرة نفسها يتطلع الأمريكيون إلى رئيسهم الأول جورج واشنطن قائد ثورتهم الاستقلالية عن إنجلترا، كما يتطلع الفرنسيون إلى شارل ديغول قائد المقاومة الوطنية ضد الاحتلال النازي.

وفي مقابل مثل هذه البطولات التاريخية غير المثيرة للخلاف، تنتاب الشعوب في بعض الأوقات، ولأسباب غامضة ومعقدة جداً، الرغبة في صناعة بطل بناءً على الوعد فقط. فتلتفّ حول هذا البطل وتقدمه على غيره، ولكنها سرعان ما تنفضّ من حوله بمجرد تبخر الوعد. كما هو الحال مثلاً في شخصيات قومية من أمثال أدولف هتلر وبنيتو موسوليني اللذين كانا «بطلين» ما بين عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية، والأشهر الأخيرة منها.

والواقع أن الإنجاز الفعلي للوعد وإن كان ضرورياً في معظم الحالات لرفع شخص إلى مستوى البطل القومي الأول، فإنه لا يبدو شرطاً في حالات أخرى. فالشهداء الذي يسقطون وهم يسعون إلى الوفاء بهذا الوعد، يُرفعون في حالات عديدة إلى مستوى الأبطال القوميين. ومن أشهر الأمثلة المناضلة الفرنسية جان دارك التي قادت ثورة ضد الإنجليز في القرن الخامس عشر، ولكنها سقطت في قبضتهم، وأعدموها حرقاً، ولكنها تحوَّلت إلى رمز للسيادة الوطنية الفرنسية حتى يومنا هذا.

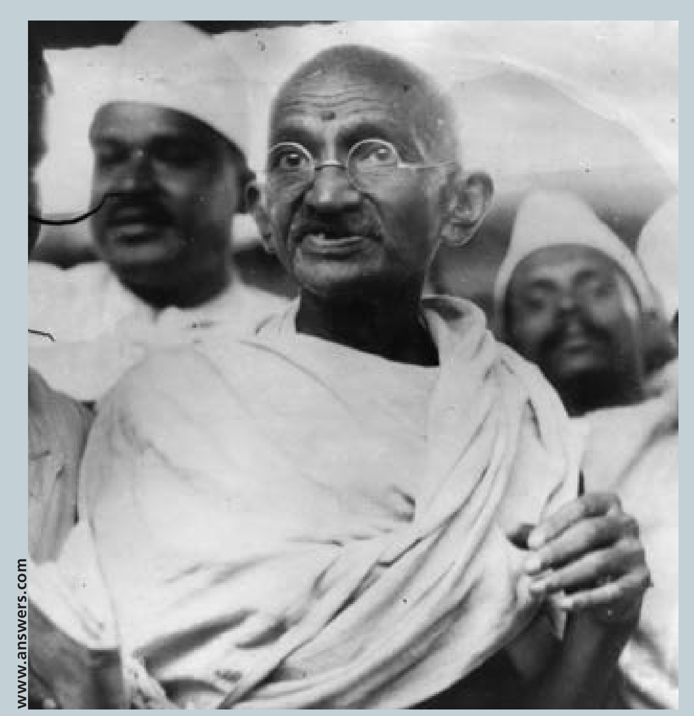
وحتى من فرنسا نفسها، قد يكون هناك مثل أشهر، ألا وهو الإمبراطور نابليون الأول الذي بعدما قاد بلاده في سلسلة من الانتصارات والإنجازات، هُزم شرَّ هزيمة في معركة واترلو (١٨١٥م)، ومات بائساً في المنفى، ومع ذلك بقيت صورته كواحد من أكبر الأبطال التاريخيين في بلاده، وجمَّلها الفنانون كما لم يجمِّلوا صورة أي قائد آخر.

وبشكل عام، يحظى الأبطال القوميون بأعلى مستويات التكريم من شعوبهم، فتطبع صورهم على عملاتها الوطنية، وتنشرها في العالم من خلال طوابع البريد التذكارية والتكريمية، وتطلق أسماءهم على الشوارع والساحات، وحتى على المدن وأحياناً على البلدان، كما هو حال سيمون بوليفار محرر أمريكا الجنوبية من الاستعمار الإسباني. إذ ما من دولة هناك إلا وتضم عشرات الشوارع والقرى والمدن المسماة «بوليفار»، حتى أن دولة كاملة حملت اسمه: «بوليفيا».

البطل في الرياضة

قد تكون البطولة في عالم الرياضة آخر وريث على قيد الحياة لمفهوم البطولة الإغريقية. والأمر يبرر أو يفسر، بأكثر من سبب، منها «بطولات» الألعاب الأولمبية القديمة التي كانت تمجد القوة الجسمانية المدنية الجاهزة لأن تنقلب عسكرية في أي وقت تدعو الحاجة، وأيضاً لأن التفوق الرياضي يبقى في عصرنا كما كان، قائماً على أساس التفوق الجسماني.

صحيح أن عالم الرياضة هو سخي اليوم في توزيع ألقاب البطولة (عندما يحصل الأمر على مستوى النادي أو المحلة الصغيرة)، ولكن


www.answers.com

غاندي.. بطل قومي فريد في شخصيته المسالمة


www.constitutioncenter.org

صورة نابليون البطل عند اجتيازه جبال الألب، كما تخيلها الرسام، والواقع أن القائد الفرنسي اجتاز الجبال على ظهر بغل

هناك أسماء كثيرة، تنتزع الاعتراف العالمي ببطولتها. ألا يتطلع العالم بأسره إلى الملاكم محمد علي كلاي على أنه بطل؟ أو إلى لاعب كرة القدم البرازيلي بيليه على أنه كذلك؟

وعلى الرغم من الابتعاد المستمر للرياضات الحديثة عن شروط وماهية الرياضات التقليدية، حتى أن بعضها يقوم على المهارات الذهنية أكثر مما يقوم على القوة البدنية، فإن كل فائز هو بطل.

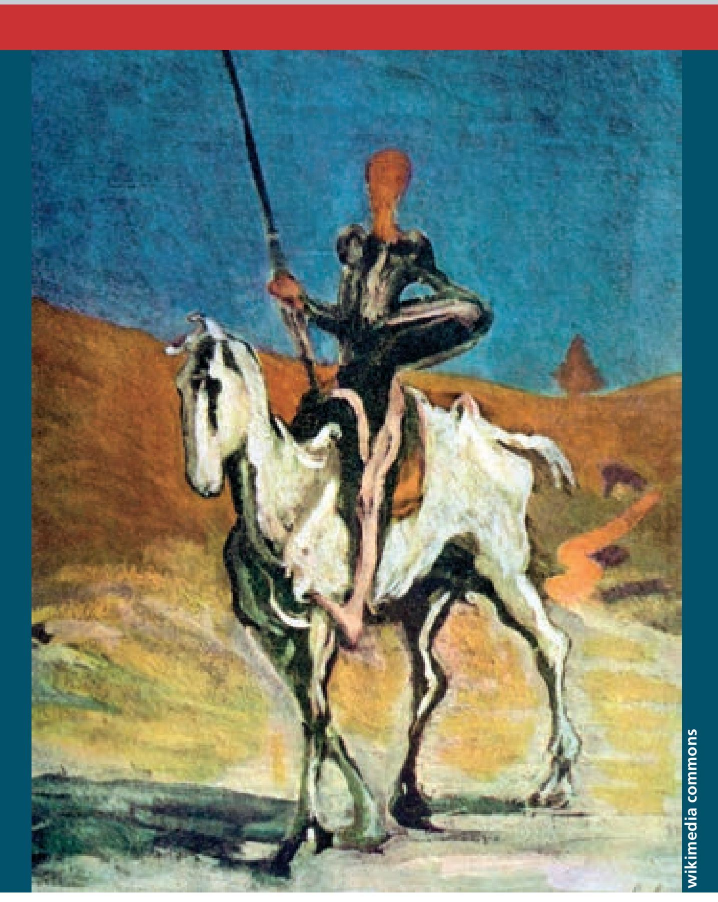
اللابطل

بموازاة شيوع استخدام كلمة بطل في الإشارة إلى الشخصية المحورية في أي عمل أدبي أو فني، أدَّت الدراسات المدققة لهذه الشخصيات لغربلتها عن بعضها إلى استنباط تعبير «اللابطل» (Antihero)، وذلك للإشارة إلى هذه الشخصيات المحورية عندما تفتقر إلى صفات البطولة التقليدية وقيمها.

فالشخصيات «اللابطلة» صارت تشكِّل جزءاً أساسياً من عالم الأدب الغربي ظهر في رواية الإسباني سيرفانتس «دون كيخوتي» (١٦٠٥م).

وتُعد شخصيات مثل إيما بوفاري في رواية «السيدة بوفاري» لفلوبير (١٨٥٧م) وشخصية ليوبولد بلوم في «أوليس» (١٩٢٢م) لجيمس جويس، من أبرز صور «اللاأبطال» في الأدب.

ولا يجب الخلط بين «اللابطل» وشخصية «الشرير» في الرواية، فالإثنان مختلفان تماماً. إذ إن «اللابطل» ليس شريراً، إنه إنسان عادي يعمل بوحي من القيم السائدة، ولكنه يفتقر إلى الشجاعة والاستقامة، والنبل، فيعكس بضعفه وارتباكه، اضطراب الإنسان المعاصر في تعامله مع القيم والفضائل الاجتماعية التقليدية.

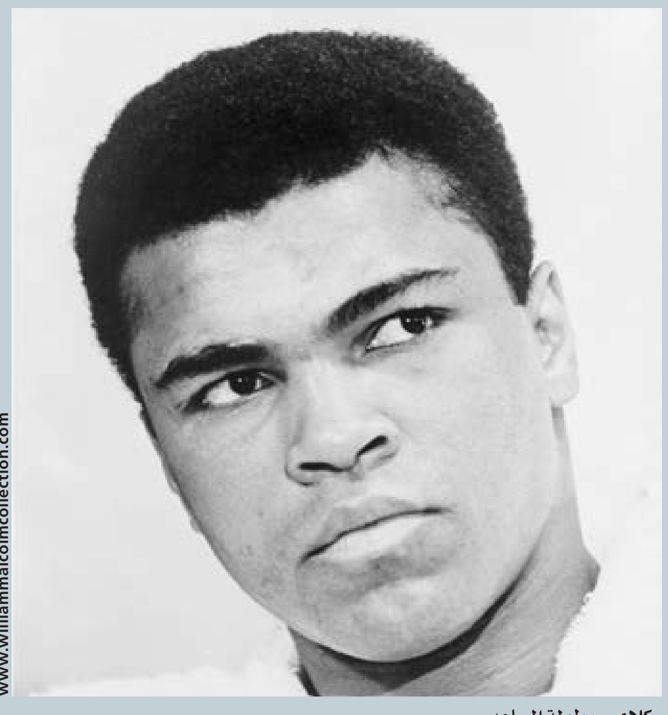

wikimedia commons

دون كيخوتى لـ Honoré Daumier سنة 1868



Corbis

بيليه.. بطولة القدم


www.williammalcolmcollection.com

وكلاي.. بطولة الساعد

أي أن الرامـي ببندقيـة صيد على الأطباق الطائرة هو «بطل» مثل رامي السهـام في الألعـاب الأولمبية القديمـة أو في ميـدان المعركة. وهكذا انفتحـت قائمة أبطال الرياضة لتضـم شهيرات من الإناث مثل العداءة المغربية نوال المتوكل، أو لاعبة الجمباز الرومانية ناديا كومانيتشي.

البـطـل فـي الأدب والـسـيـنـمـا

ثمـة مقارنة فـي عالم الأدب والسينمـا وفي حديثنا عنهمـا اليوم، هذا الحديث الذي بات يشكِّل المناسبة الكبرى التي تجعل كلمة «بطل» تقفز على ألسنتنا. نستخدمها للإشارة إلى الشخصية المحورية في القصة، سـواء أكانت هـذه الشخصية تتحلـى بمواصفات البطولـة التقليدية أو ببعضها، أم كانت مجرد لص أو قاتل. فمن أين أتت هذه التسمية؟

لا شك في أن «بطل» الفلم السينمائي، هو ابن «البطل» الروائي، الذي هو بـدوره ابن «البطل» المسرحي. فلو راجعنـا المحتوى العام للمسرحيات التي ظهرت خلال العصر الكلاسيكي في القرنين السابع والثامن عشر، لوجدنـا أن معظمها كان يتمحور حول شخصيـات قيادية مميزة تواجه تحديـات مصيرية مثـل هاملت وماكبث عند شكسبيـر، وأكثر من ذلك عند المسرحيين الفرنسيين من أمثال كورناي وراسين اللذين استوحيا معظم موضوعات مسرحياتهما من التراث الكلاسيكي اليوناني وأبطال إليـاذة هوميروس. أي أن في شخصيات هـذه المسرحيات كان ثمة ما يربطهـا بمفهوم البطولـة التقليدي. ومن المسـرح انتقلت عادة تسمية الشخـص المحـوري في العمـل الأدبي إلـى الرواية، ومـن الرواية إلى السينما.
ولكن ماذا عن الأدب والسينما في خدمة البطل ومفهوم البطولة، بعيداً عن التسمية اللفظية لأصحاب الأدوار الرئيسة فيهما.

يستحيـل تعـداد الأعمـال الأدبيـة والفنية التـي تناولت سيـر الأبطال ومجَّدت أعمالهم. فهي بدأت قبل ملحمة جلجاميش والإلياذة، ولم تنته مـع دان بـراون. ولكن ما لا بد من الإشـارة إليه، هـو أن الأدب بما فيه مـن ألوان مختلفـة (حكاية، قصة، رواية، مسرحيـة) كان دائماً القناة الرئيسـة التي تمر بها شخصية البطل فـي طريقها إلى وجدان العامة. وطالمـا سعـى الأدب إلـى التجميل والحـذف والإضافة بهـدف الإقناع والترويج وضمان القبول عند العامة.

فهـل كان أخيـل وسيماً مثل الممثـل براد بيت في فلم طـروادة، أم كان قبيحـاً تملأ الجروح والبثور وجهه؟ ليـس للفرق في هذا المجال أي أثر على منجزات هذا البطل، ولكن ألا يفضل الناس الشخص الوسيم على القبيح؟

ففـي عالم السينما، تبـدو صناعة التجميل في ذروتهـا عندما يتعلق الأمـر بالبطل. ألا تؤكـد ذلك المبالغات التي تتجـاوز حدود الممكن (حتـى بالنسبـة إلـى الأبطال) في أفـلام الحركـة (Action) التي صارت تحظى بقنـوات تلفزيونية لا تعرض غيرها، والأفلام الحربية حيـث ترى أفراداً يتمكنون من القضـاء على كتائب كاملة من جيوش الأعداء أو على عصابات كاملة لم تتمكن فيالق الشرطة من القضاء عليها؟

الفـارق الأساسـي الوحيد ما بيـن صورة البطل فـي الأدب وعلى شاشة السينما، هو أن الأول يعيش في الوجدان أكثر ومرشح لأن يدخل الذاكرة الجمعية عند الناس، أما البطـل المصنوع سينمائياً، فغالباً ما يقتصر دوره على الإمتاع المؤقت، ننساه بعيد انتهاء عرض بطولته على الشاشة.



«طروادة» (في الأعلى) و«مملكة السماء» (في الأسفل).. من أشهر أفلام البطولات التي عادت إلى الظهور بقوة في السنوات الأخيرة

البطل في التراث العربي

تعامل العرب منذ القدم مع البطولة، باعتبارها واحدة من أسمى الصفات، ونظروا إليها من أكثر من زاوية، فالإعلاء من شأن البطولة هو إعلاء لشأن الفروسية والشجاعة والإقدام، وهي صفات ظلت مطلوبة في أوساط «القبيلة» العربية المهددة دائماً بالغزو والسلب.

فالبطل في نظر أبناء القبيلة ضرورة أساسية من ضرورات وجودها والدفاع عنها، ولم يتعاملوا مع البطولة بالتعميم، بل ذهبوا إلى إيجاد تعريف واضح للبطل المنشود، وتعريف للصفات الواجب توافرها فيه.

كان البطل في نظر القبيلة العربية سيدها وفارسها وحامي حماها. إنه شخص كريم ذو مروءة وصاحب رأي سديد وقادر دائماً على اتخاذ الموقف المناسب في المكان والزمان المناسبين. ولم تغفل تلك التوصيفات الإشارة إلى القوة الجسمية والشكل الخارجي لجسم البطل، واشترطوا أن يكون قادراً على قيادة الخيل واستخدام السلاح لكي يكون قدوة لغيره من الفرسان.

ربما يكون العرب قبل الإسلام قد بالغوا في تقديم تعريف للبطل، بسبب حاجتهم للرمز الذي يدافع عنهم ويوفِّر لهم أسباب الحياة الكريمة. وكان سادة القبائل العربية وفرسانها يتسابقون للحصول على هذا اللقب أو الاقتراب منه، لأن ذلك سينقل سيرتهم وأفعالهم إلى القبائل الأخرى، عبر الشعر والروايات الشفوية، ويمنحهم مكانة اجتماعية مرموقة وسط أهلهم، ما يجعلهم مهابين ويجعل حدود قبائلهم محصنة من الغزاة وقطاع الطرق.

واقتصر توصيف البطل عند العرب في الجاهلية على السادة الأحرار، ولم تذهب القبائل العربية إلى تقديم هذا اللقب للنساء والعبيد. وتظل قضية الشاعر والفارس الأسود عنترة العبسي قصة استثنائية في حياة العرب قبل الإسلام، فلم يتم الاعتراف به كبطل، رغم حمايته للقبيلة وإنقاذ سمعتها، إلا بعد أن اعترف شداد بنسبه، ليكون البطل حسب التقاليد السائدة معروف الأصل والانتماء.

وحمل إلينا التراث العربي القديم صوراً كثيرة عن فرسان أبطال خلدت قصائد الشعراء أفعالهم وسيرهم، وهم يدافعون عن الحق والفضيلة ويقدمون نموذجاً يكاد يكون مثالياً للشخصية العربية في تلك المرحلة.

الصعاليك يميم بطولة مثار خلاف

وهناك نموذج آخر لهذه البطولة جاء إلينا من التراث أيضاً، وهي بطولة ظلت مثار خلاف في التاريخ العربي، عبَّر عنها «الصعاليك»، وهم فرسان أشداء، خبرتهم الحياة العربية في الصحراء وتحدث عنهم الرواة والشعراء. وصارت أسماء مثل عروة بن الورد، والسليك بن السلكة وتأبط شراً وغيرها حاضرة في الذاكرة العربية. إنهم «أبطال» تميزوا بالفروسية والشهامة والكرم، ووضعوا لأنفسهم قانوناً خاصاً بهم في الحياة، يتمثل في اقتطاع جزء من أموال الأغنياء، ولو بالقوة، وتوزيعه على الفقراء والمحتاجين. وشكل الصعاليك ظاهرة استثنائية في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية العربية في تلك المرحلة، حتى صار بعض الشعراء العرب في العصور اللاحقة يتمثلون سلوكهم الاجتماعي.

ويرى متخصصون في علم الاجتماع أن ظاهرة «الشطَّار والعيارين» التي يحمل أفرادها بعض سمات البطولة، وانتشرت في عدد من الدول والولايات الإسلامية بعد ضعف الدولة العباسية، وخاصة في عهد المماليك، قد استندت في جانب من سلوكها العام إلى ما وصل إليهم من تراث الشعراء الصعاليك، مستفيدين كذلك من ثقافة وتجارب الشعوب غير العربية التي دخلت الإسلام، في تكريس مثل تلك الظاهرة وتعميمها في الحياة العامة، ووجود أدوات في السلطة توفر لهم الدعم والحماية والشرعية.

توصيفات كثيرة للبطولة قدمها التراث العربي، حتى أن نسبة واسعة من الناس تتطلع إلى شخصية «حاتم الطائي» على أنه «بطل» بسبب ما وصل إلينا من روايات، قد يكون مبالغ في بعضها، عن كرمه ومروءته التي لم تعرف مثيلاً لها على أطراف الصحراء.



Corbis



وفي الشعر العربي

لـم يغـادر البطل وعي الشعـراء العرب وقصائدهم منـذ فجر التاريخ، فصـارت ظاهرة التغني بالبطولة والفروسية والكرم والشجاعة وغيرها من مفردات الحياة العربيـة، حاضرة بشكل قوي في القاموس الشعري العربي، منذ امرئ القيس وحتى اليوم. ولذا يستحيل علينا أن نعدد حتى أبرز ما قالوه في بطولاتهم والبطولة عموماً، كما جرت العادة في ملفات «القافلـة»، لأن المختارات وحدها قد تملأ مجلـداً ضخماً. ونكتفي هنا بالإشارة إلى أبرز العناوين العريضة التي يمكن أن تجمع تحتها ما قاله كبار الشعراء في البطولة.

فالدارسـون لشعر البطولة العربية، أو ظاهرة البطل في الشعر العربي، قديمـه وحديثه، يجـدون صورتين واضحتيـن، لا تتقاطعان مع بعضهما وقد تكمل إحداهما الأخرى.

الصـورة الاولى هـي أن يقوم الشاعـر الفارس بالإعلان عـن فروسيته وشجاعته وسمات بطولته بنفسه ومن خلال قصائده، وهي صورة تستند إلى بعض الوقائع على الأرض، وإرادة هؤلاء في أن يتناقل الآخرون هذه القصائـد وترويجها، ليتـم من خلالهـا ترويج صفـات البطولة لهؤلاء الشعراء الفرسان.

يقول الشاعر عنترة العبسي:

ملأت الارض خوفاً من حسامي
وخصمي لم يجد فيها اتساعا

وفي موقف مشابه يقول شاعر العربية المتنبي:

الليل والخيل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فيما يذهب الشاعر الفارس أبو فراس الحمداني حتى وصف أهله وقومه المحاربين بالقول:

ونحن أناس لا توسط بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر

ومثل هذه المكانة لا تتحقق إلا بشروط البطولة والفروسية والكرم والمروءة والشجاعة والأخلاق.

وفي صورة شعرية تعلي من شأن البطولة والفروسية يقول الشاعر الفلسطيني الشهيد عبدالرحيم محمود:

سأحمل روحي على راحتي
وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق
وإما ممات يغيظ العدا

وهذا قرار لن يأخذه أو ينفذه إلا الأبطال الفرسان حيث كان الشاعر أحدهم، واستشهد في معركة حامية دفاعاً عن وطنه عام ١٩٤٨م.

الصورة الثانية وهي أن يذهب شعراء آخرون لتخليد صورة البطل في قصائدهم، سواء كتبوا عن أبطال معروفين بأسمائهم، أو عن البطولة بشكل عام، من أجل تعميم هذه الصورة بين الناس.

وفي قصيدة ذائعة الصيت للشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان يقول فيها متحدثاً عن الفدائي – البطل، الذي احتل مساحة واسعة في وعي الجمهور:

هو بالباب واقف والردى منه خائف

وخلال اندلاع الثورات الاستقلالية ضد الاستعمار الأجنبي لبعض البلدان العربية في النصف الأول من القرن العشرين، وجدنا الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري) يمجِّد القوة كما لم يمجدها شاعر آخر بقوله:

تسلَّحوا واستعدوا للدهر سلماً وحرباً
فالليث ظفر وناب لولاهما كان كلباً

وفي الزمن العربي المعاصر صار الشهيد هو البطل الذي لا ينازعه حضور في وعي الناس، وقد امتلأت صفحات ديوان الشعر العربي بقصائد لا حصر لها تتحدث عن الشهيد والشهادة، باعتبارهما صورة عالية المقام من صور البطولة والفداء، التي تتراجع أمامها صور كثيرة تتحدث عن البطولة والأبطال في التاريخ العربي، وقد توقف كثيرون أمام قصائد الشاعرة العربية الخنساء التي قالتها في أخيها «صخر» لترسم له صورة متكاملة من البطولة التي تحدث عنها العرب على مر الزمان، إذ تقول في مطلع إحدى قصائدها:

أعيني جودا ولا تجمدا
ألا تبكيان لصخر الندى

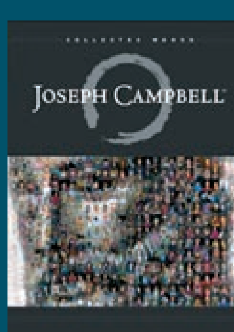
البطل في اللغة

أجمعت قواميس اللغة العربية، القديم منها والحديث، على تقديم تعريف يكاد يكون موحداً للبطل، وقد اتفقت معظم التعريفات على وصفه بالشجاعة والإقدام والجرأة والسبق والإيثار.

وفي التعريف أيضاً أن البطل جاء من الإبطال والإزاحة والمحو السلبي، فيقال بطل الشيء يبطل إبطالاً، والبطل هو الشجاع الذي يبطل جراحته ولا يكترث لها، ويقال للرجل بطل وجمعها أبطال وللمرأة بطلة، ويقال أيضاً بطل الشيء بُطلاً وبطلاناً أي ذهب ضياعاً، وبطل دم القتيل، أي ذهب دمه بُطلاً إذا لم يؤخذ له ثأر ولا دية. ويرتبط البطل اصطلاحاً بمعناه اللغوي ارتباطاً وثيقاً، وجاء في المراجع العربية أنه يتسع اتساعاً حتى يتجاوز الوقوف عند الغلبة على الأقران في جانبها الحربي، ليشمل البطولة النفسية والخلقية والاجتماعية، ولتكون السجايا الرفيعة والشمائل الأصيلة ومكارم الأخلاق قوامها.

ويرى متخصصون أن البطولة في التراث العربي هي جزء من تكوين الإنسان، ويحرص هذا البطل على تقديم صورة تليق به في مجتمع يقدر البطولة عالياً ويجاهر بشأن من يتمتعون بها.

البطل ذو الألف وجه



من بين مئات، وربما آلاف الدراسات التي تناولت مفهوم البطل، تحتل دراسة الكاتب الأمريكي جوزف كامبل مكانة بالغة الأهمية.

ففي هذه الدراسة التي نُشرت للمرة الأولى عام ١٩٤٩م، وأعيد طبعها عام ١٩٦٨م، وأخيراً العام الفائت، يتناول كامبل بالتحليل كل الأبطال الذي حفظ لنا التاريخ ذكرهم من مختلف الثقافات والحضارات، ويكشف عن القواسم المشتركة بينهم، معتمداً على نظريات علماء الاجتماع وعلم النفس (حتى فرويد)، ليصوغ في النهاية الصورة النموذجية للبطل.

وقد أثرت دراسة كامبل للبطل في أعمال معظم الأدباء والفنانين الأمريكيين، منذ أن ظهرت وحتى اليوم. حتى أن المخرج جورج لوكاس، اعترف صراحة وعلناً بفضل دراسة كامبل، على سلسلة الأفلام الشهيرة التي أخرجها بعنوان «حرب النجوم».

البطل في السيرة الشعبية

بعد الشعر، قد تكون السيرة الشعبية المجال الأدبي الأبرز الذي تناول البطولة ومفاهيمها، حتى يمكن القول إن هذا اللون الأدبي العربي الذي لم تعرفه الثقافات الأخرى، تمحور جملة وتفصيلاً حول البطل وبطولاته. ومن أشهر السير التي سمع بها الجميع، إن لم يكونوا قد قرأوها، هناك سيرة عنترة بن شداد، وسيرة الزير سالم، وسيرة سيف بن ذي يزن، وسيرة الظاهر بيبرس... ومن العناوين المؤلفة من أسماء الأبطال، يمكن التكهن بمحتوى هذه السير.

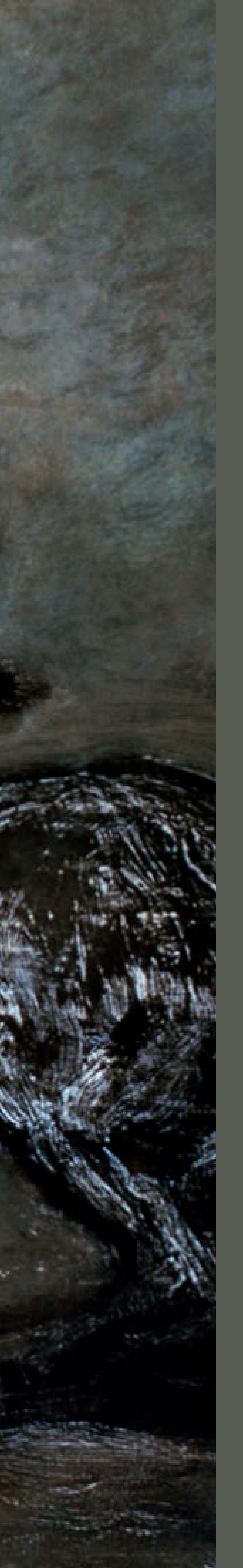
إن كل واحدة من هذه السير الشعبية هي عبارة عن سلسلة من عدة مجلدات. شهدت ظهور نواتها الأولى في وقت مبكر، وظلَّت (طوال العصر الوسيط) تشهد إضافات جديدة. فأبطالها يتسمون بالقوة والشجاعة والفروسية والكرم والمروءة والإيثار وباقي الصفات الحميدة اللازمة للبطل المتفوق. ولهذا ما كان الحكواتي في العصر الوسيط يجد حرجاً في الإضافة على النص الذي بين يديه، وفي تضخيم الوقائع والأرقام التي كانت مضخمة أصلاً على الأرجح.

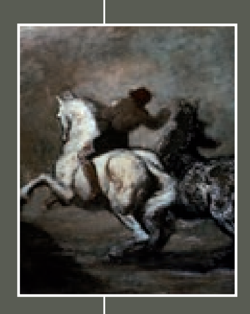
ولو أخذنا السيرة الشعبية للظاهر بيبرس مثلاً، لوجدنا أن وصف المعارك والبطولات يحتل نحو ثلث عدد صفحاتها البالغ نحو أربعة آلاف صفحة.. في حين أن أعمال الشهامة والمروءة والمهارة ومواجهة الصعاب تشكِّل لوحدها ثلثاً ثانياً.

لقد لعبت هذه السير الشعبية دوراً مهماً في العصر الوسيط على صعيد الترويج للقيم الأخلاقية الحميدة، وللشجاعة والإيثار. حتى أن النواة الأولى لسيرة الملك الظاهر، تبدو وكأنها كانت موجهة لتحريض العامة ضد أسرة قلاوون.

لقد اختفت السيرة الشعبية في العصر الحديث، حتى أن قراءة القديم منها لم تعد شرطاً ثقافياً.. فنشوء المدن الحديثة سلب الصحراء اتساعها وطريقة حياة أهلها، صورة البطل. والإعلام الحديث جرَّد قصور القادة من الغموض المغذي للخيال.. ناهيك عن تغير نمط الحياة جملة وتفصيلاً بفعل الدور المتزايد للمجموعة على حساب دور الفرد، وللعقل والعلم على حساب المغامرة.







القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
نوفمبر - ديسمبر 2009
المجلد 58 العدد 6

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com